إسرائيل شاحاك

تقديم: إدوارد سعيد

ترجمة: ميادة العفيفي

اليهود واليهودية

ثلاثة آلاف عام من الخطايا

ميريت ▪ سامكسر

[redacted]

اليهود واليهودية

"ثلاثة آلاف عام من الخطايا"

اليهود واليهودية
"ثلاثة آلاف عام من الخطايا"
تأليف: إسرائيل شاحاك
ترجمة: ميادة العفيفى
تقديم: إدوارد سعيد

الطبعة الأولى، ٢٠٠٣

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٥٧٥١٥٠٠ (٢٠٢)
merit56 @ hotmail. com

الغلاف : **أحمد اللباد**

المدير العام: **محمد هاشم**

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/٣٨٨٣

الترقيم الدولى: **977-351-110-3**

طبع هذا الكتاب بدعم من مؤسسة سعيد خليل المسحال للثقافة والعلوم، غزة بفلسطين، ويخصص عائده لنشر كتب أخرى معنية بالقضية الفلسطينية والقضايا العربية.

الناشر

تأليف : إسرائيل شاحاك
ترجمة: ميادة العفيفــى
تقديم : إدوارد ســعيد

اليهود واليهودية

"ثلاثة آلاف عام من الخطايا"

ميريت للنشر والمعلومات
القاهرة ٢٠٠٣

مقدمة المترجم

فى الثانى من شهر يوليو ٢٠٠١، رحل إسرائيل شاحاك عن الدنيا، دون أى وداع، أو حتى أى تعقيب من الصحف الغربية والأمريكية والإسرائيلية. لقد تعمدت وسائل الإعلام الغربية تجاهل رحيله تماما، كما تعمدت من قبل تجاهل تلك الأمطار الغزيرة والمتواصلة من التقارير التى كان يرسلها أسبوعيا إلى الصحفيين والأكاديميين والناشطين فى حقوق الإنسان فى الغرب، تحت عناوين مثل «التعذيب الوحشى من إسرائيل.. والإبادة الجماعية من الضفة الغربية»، التى كان يعتمد فى كتابتها على مصادر إسرائيلية إعلامية، وكان يجتهد فى ترجمتها إلى الإنجليزية مع إضافة ملاحظاته الدقيقة واستنتاجاته العميقة، كما ذكر إدوارد سعيد من قبل، فإن شاحاك كان قد توفى بالفعل منذ زمن طويل فى أذهان وضمير المجتمع الدولى والإسرائيلى، الذى لم يثيره، بل يمكن القول لم يفزعه، هذا القدر من الصدق والموضوعية والدقة، التى اتبعها شاحاك فى إثبات عدم ديمقراطية إسرائيل، تلك الديمقراطية لتى خطط بعناية لمنحها هذه الميزة المتفردة فى الشرق الأوسط، وفى إثبات أن مؤيديها وداعميها يدركون ذلك تماما دون أي لبس، فليست بديمقراطية فريدة، تلك الممارسات الوحشية التى تقوم بها إسرائيل ضد الفلسطينيين. لقد كان تجاهل وفاة شاحاك هو الحل الأمثل فى الإعلام الغربى، بعد قتله إعلاميا من قبل فى محاولات مستميتة لإغلاق هذا الملف الشائك والمخيف الذى فتحه شاحاك على مصراعيه، بكتابه عن الديانة اليهودية والشعب اليهودى فى مراجعة دقيقة لثلاثة آلاف عام من تاريخه المروع، هذا الكتاب الذى بين أيدينا الآن، والذى حمل قدرا من الحقائق الخفية، التى جاهد اليهود لإخفائها على مدى القرون الماضية.

لقد كان شاحاك بالنسبة لإسرائيل العدو غير المتوقع على الإطلاق، الذى استطاع بجهد ومثابرة أن يبرز للعيان تلك الأسرار التى تشوه للأبد الصورة اليهودية، وتفضح مخططاتها. فشاحاك ضحية معتقلات النازى الذى قضى فيها جزءا كبيرا من طفولته، ومن أوائل المهاجرين اليهود إلى

فلسطين عام ١٩٤٥، رحل إليها مع والدته بعد أن أصبح الرجل الوحيد المتبقى من أسرته، التى أبادها النازى، وقد ذاق بحق طعم الاستبداد والاضطهاد، خدم فى الجيش الإسرائيلى، ثم كان أستاذ الكيمياء الحيوية فى الجامعة العبرية فى القدس، ونال عن عمله الأوسمة والاستحسان من أساتذته وتلاميذه اليهود، وهو المتحمس الصهيونى حتى النخاع فى بداية حياته لسياسات بن غوريون، وهو الذى قال ذات مرة فيإحدى مقالاته: «عندما أتيت إلى فلسطين عام ١٩٤٥، آمنت بإمكانية وجود تعايش سلمى بيننا وبين العرب، وعلى أساس منطقى يفرض أن أرض إسرائيل ملكا لليهود، وأن هؤلاء العرب يجب فقط أن يمنحوا حقوقا مدنية محددة فى إطار الاعتبارات الأمنية الإسرائيلية، لكن يجب ألا تكون لهم حقوق قومية أو أى حقوق تعوق سياسة الاستيطان اليهودى»، لهذا كله لم يكن شاحاك العدو المنتظر، بل العدو الأكثر إثارة للجدل وتهديدا بكشف الأسرار الإسرائيلية المقدسة، كما فعل فى كتابه، كشف الأسرار: سياسات إسرائيل النووية والخارجية (١٩٩٧)، والأصولية اليهودية فى إسرائيل (بالتعاون مع نورتن ميزفنسكى ١٩٩٩)، لذا فإن صدمة المجتمع الإسرائيلى فيه، ربما كانت عميقة، وعلى نفس المستوى كان عمق الرغبة الخفية والمعلنة فى إخفائه، وربما تجاهل وجوده، أو تهديده بالقتل، هما الإعلان الرسمى عن كراهيته، والرغبة فى موته، تماما كما هى رغبتهم فى فناء جميع غير اليهود، فلقد أصبح أحد هؤلاء الأغيار.

وإن كان الغرب وإسرائيل، قد نظروا إلى شاحاك على أنه عدو غير تقليدى، فإنه لم يحاول الدفاع عن نفسه، فقط حاول أن يبرز أنه برفضه للأيديولوجية الصهيونية المرتكزة على الفكر اليهودى الكلاسيكى المتطرف، إنما هو يدعو للتحرر من الخرافات اليهودية التى زرعت الكراهية فى قلب شعبه، وأنه فقط يبحث عن سلام وعن مشاعر إنسانية فى قلوب أهله.

ولأنه كان نفسه ضحية للتاريخ اليهودى، فقد حاول أن يتعلم من خلال تجربته الخاصة، أبعادا أكثر عمقا، وأن يتعرف على الأسباب المتجذرة فى وجدان شعبه، التى نتج عنها تلك الكراهية الشديدة لكل ما هو غير يهودى، وأن ينشر ما تعلمه بالملاحظة الدقيقة والبحث المتأنى، للجميع دون استثناء.

لقد كرس حياته للدفاع عن حقوق الإنسان، وللبحث عن إنسانية الإنسان، لهذا فإن احتجاجاته المدوية عن المعاملة غير الإنسانية التى تمارسها إسرائيل ضد المواطنين العرب والفلسطينيين على الأراضى المحتلة، كانت فى سبيل الكشف عن الوجه القبيح والخفى للتعاليم الدينية المتطرفة التى تهيمن على « الدولة اليهودية » وتحرمها من متع أن تكون حضارة إنسانية الملامح. إن رؤيته لمزارع إسرائيلى يطلق كلابه لتنهش لحم الأطفال الفلسطينيين، كانت تعنى ببساطة رؤية إنسان تجرد من الإنسانية يعرض إنسانا آخر لقدر وحشى من الألم البدنى، مبررا ذلك بتعاليم دينه، إن شاحاك لم يكن علمانيا كما تصور البعض، ولا يساريا أيضا، لكنه كان إنسانا يؤمن بأن الدين نلا يمكن أن يدعو معتنقيه لنهش لحم البشر الآخرين، بدعوى أن هذا هو قمة صور التعبد للخالق.

لهذا السبب فإن شاحاك، الذى تحمس فى بداية حياته لبن غوريون، سرعان ما تحول إلى مناهض شديد الرفض له عندما سمعه فى إحدى خطبه الغوغائية عام ١٩٥٦، يروج لعدوان الثلاثى على مصر، بدعوى أن ذلك من أجل تحقيق « الحدود التوراتية »، واستعادة « مملكة داود وسليمان »، لقد رفض شاحاك هذا الترويج المتطرف، للأوهام التوراتية والسياسية والعرقية، وبحث عن التحرر، تحرر الشعب اليهودى مما غرس فى نفسه، وعن تنوير دينى وانعتاق ذاتى من حياة الغيتو والهيمنة الحاخامية والأفكار العدوانية المجحفة ضد الأغيار.

هناك قلة من المفكرين والكتاب الذين ساعدونا على رؤية حقيقة ما يحدث حولنا، وبشكل جوهرى على رؤية ذلك بأعيننا، وحرصوا على أن نتعلم دون تخبط عشوائى فيما يفرضوه علينا من خبراتهم وأفكارهم، بل يدفعوننا بقوة نحو مزيد من البحث والتحقيق، لقد كان إسرائيل شاحاك أحد هؤلاء المفكرين النادرين.

لهذا فإنه بعد حوالى عقد كامل من صياغة شاحاك لرؤيته الكاملة فى القضية الفلسطينية - الإسرائيلية، يدفعنا إلى الحقيقة الغائبة، إنه لا سلام ولا تعايش سلمى، دون تحرر حقيقى من خرافات الأيديولوجية اليهودية، ودون وعى وإدراك لمدى تغلغلها العميق وتأثيرها على فكر المجتمع اليهودى.

شاحاك يؤكد أن الحل ليس فى الرموز السياسية. ولا فى السياسات التى يروجون لها أو يمارسونها، لكنه فى تغيير جذرى فى العقلية العربية التى رفضت هى الأخرى أو ربما عجزت على أن ترى الحقيقة، وفشلت فى الدخول إلى قلب الفكر اليهودى الدينى الذى هو قلب الأيديولوجية الصهيونية.

إن فكرة التحرر سيطرت دوما على شاحاك فى كتاباته وفى أحاديثه، لقد رأى أنه استطاع بأعجوبة أن يتحرر من معسكر النازى، واستطاع بجهده الشخصى أن يتحرر من السيطرة الحاخامية واليهودية وأن يستخدم العقل والمنطق فى تفسير الأحداث والتاريخ والسلوك الإنسانى، لهذا فهو لم يكن شديد الاندفاع فى دفاعه عن القيادات الفلسطينية أو عن سياسات منظمة التحرير الفلسطينية، بل استخدم دوما التحليل المنطقى المنظم، وإن كان لم يبرز انتقاداته لأنه كما يبرر: «سوف أعلن عن انتقاداتى للفلسطينيين، عندما أقابلهم خارج إسرائيل، إن لدى الكثير من الانتقادات الحادة التى أواجههم بها، لكننى لن أقوم بذلك، وهم تحت الاحتلال والقمع، وأنا مواطن إسرائيلى مفترض أننى صاحب امتياز»، إن هذا الموقف الفريد فى إنسانيته وأخلاقياته هو الذى يميز جميع أبعاد مواقفه تجاه الآخرين، لقد احترم الكرامة الإنسانية، وكانت شقته الصغيرة فى القدس مركزا لحماية المضطهدين، وحماية تلامذته من الفلسطينيين فى الجامعة العبرية، الذين تعلموا منه فيما بعد، ألا يعمموا أبدا أحكامهم عن اليهود، لقد احترموه ليس فقط بسبب موقفه الثابت على المبدأ ضد التمييز العنصرى، لكن أيضا لأنه لم يجاملهم أبدا.

عندما أشار المؤرخ والخطيب الرومانى كورنيليوس تاسيتوس منذ حوالى ١٩ قرنا مضت إلى أن اليهود شعب استثنائى ومتفرد وسط شعوب العالم فى عدائيته الشديدة وازدراءه لجميع الشعوب الآخرين، كان يرد فقط ما اكتشفه علماء كثيرين قبله، وبعده وعليمدار الـ ١٩٠ عاما التالية وصل مفكرون آخرون إلى نفس النتائج سواء من خلال دراستهم للكتب الدينية اليهودية أم من خلال دراسة سلوك اليهود تجاه غير اليهود. وربما كان أبرزهم المصلح مارتن لوثر، الذى كتب عام ١٥٤٣، ألم يقل تلمودهم، ألم يكتب حاخاماتهم، «إنها ليست خطيئة قتل اليهود للوثنى، لكنها خطيئة

أن يقتل اليهودى أخاه اليهودى. إن قتل وسرقة الأغيار « الوثنيين » عملا مقدسا. « لأنهم أعداؤنا وهم أدنى منا » أما اليهود فهم من أصل نبيل ودم مقدس ومطهر، ونحن الأغيار ملعونون، هم أسياد العالم. ونحن خدمهم، بل نحن الماشية فى أعينهم ».

ويقول لوثر أيضا: « هل سيعتقد أحد أننى أبالغ، أنا لا أبالغ، لكن ما أقوله للا يعد شيئا بجانب الحقيقة التى رأيتها فى كتبهم، إنهم يلعنوننا نحن الأغيار ويطلبون من الرب فى صلواتهم فناءنا، وأن يعينهم على إبادتنا »

لقد كان رد فعل اليهود تجاه لوثر هو نفس رد فعلهم تجاه كل من حاول أن يكشف الحقيقة، لقد وصفوه بأنه شخص كريه، أعماه التعصب الدينى، وحتى اليوم هذا هو موقفهم تجاه كل من تجاوز مبدأ تمجيدهم الزائف، وهذا أيضا كان موقفهم من شاحاك الذى قدم فى كتابه هذا وثيقة من عالم يهودى، وثيقة من قلب تاريخهم لإدانتهم، وإدانة مواقفهم وأفكارهم وعقائدهم، إدانة هذا المزيج المسيطر على المجتمع اليهودى من الزهو والعجرفة والخداع والبحث عن مبررات دينية وأخلاقية لكل الممارسات المزدوجة.

لهذا فهو يذكرهم بأن الرومان عندما اكتشفوا حقيقتهم طردوهم من فلسطين، و عندما اكتشفها الألمان، أصبحوا رهائن فى معتقلات النازى. وأنهم إذا كشفوا مرة أخرى، فسوف يتعرضون إما عاجلا أو آجلا لهذه الرغبة الأكيدة فى القضاء عليهم.

ومع هذا التحذير المخلص، رحل شاحاك دون أن ينعيه أحد فى وطنه ولا خارج وطنه، لكنه فى كتابه الذى بين أيدينا الآن قد ترك كنزا من الحقائق الخالصة، التى بها وحدها يمكن تصور الوضع داخل إسرائيل وداخل العقل الإسرائيلى قبل أن نضع أى تصورات للحلول المستقبلية، فهو الذى تنبأ من قبل بفشل مفاوضات أوسلو. وهو الذى تنبأ بأن الانتفاضة الشعبية هى السبيل الوحيد للرد على القمع الاستبدادى الصهيونى.

ميادة العفيفى

يناير ٢٠٠٣

تصدير الطبعة الثانية:

إسرائيل شاحاك، أستاذ فخرى للكيمياء العضوية فى الجامعة العبرية بالقدس، وهو واحد من تلك الشخصيات الاستثنائية المعاصرة فى الشرق الأوسط، لقد قابلته لأول مرة، وبدأت فى إجراء مراسلات منتظمة معه، منذ حوالى خمسة وعشرين عاما مضت، بعد حرب ١٩٦٧ أولا، ثم مرة أخرى بعد حرب ١٩٧٣، ولد فى بولندا، واعتقل ثم هرب من معسكرات اعتقال النازى، وذهب إلى فلسطين فورا بعد الحرب العالمية الثانية، ومثل جميع الشباب الإسرائيليين فى هذا الوقت، خدم فى الجيش، وبعدها خدم لعدة سنوات فى الجيش الاحتياطى لفترة قصيرة من كل صيف، كما تنص القوانين الإسرائيلية.

لقد تابع شاحاك عمله كمحاضر جامعى بارز وباحث فى مجال الكيمياء العضوية، بتلهف ملح نحو المعرفة، وعشق للبحث و التحقيق لا يلين، وميل إلى الدراسة والتفكير بصورة تحقيقية دقيقة، وكان عادة يطلق عليه من قبل تلامذته أفضل أستاذ، ومنح جوائز عن أدائه الأكاديمى، وفى ذات الوقت بدأ فى بحثه عن الصهيونية وممارسات دولة إسرائيل، التى نتجت عنها معاناة وحرمان ليس فقط لفلسطينيى الضفة الغربية وغزة، لكن بشكل جوهرى لجميع غير اليهود مثل الأقلية الفلسطينية، الذين لم يرحلوا خلال موجة ترحيل عام ١٩٤٨، وبقوا، والذين أصبحوا مواطنين إسرائيليين. هذا البحث الذى قاده فيما بعد إلى دراسة دقيقة ومنظمة فى طبيعة دولة إسرائيل، تاريخها وأيديولوجيتها وخطابها السياسى، وسرعان ما اكتشف أن كل هذا مجهول لدى الغالبية من غير الإسرائيليين، خاصة يهو الديسبورة، الذين كانت بالنسبة لهم إسرائيل، الدولة الديمقراطية الرائعة والخارقة، التى تستحق منهم تأييدا ودفاعا غير مشروط.

بعدها أعاد إنشاء الجمعية الإسرائيلية لحقوق الإنسان، وكان رئيسا لها لعدة سنوات، وهى عبارة عن جماعة صغيرة نسبيا، مشكلة من شخصيات

تحمل نفس الفكرة التى مفادها أن الحقوق الإنسانية يجب أن تكون متساوية لجميع البشر، ليس فقط لليهود.

وفى هذا السياق تحديدا بدأت أدرك لأول مرة أعماله. إن العنصر الذى يميز مواقف شاحاك السياسية على الفور، عن تلك المواقف التى يعتنقها بقية الإسرائيليين واليهود غير الإسرائيليين، هو أنه الوحيد الذى بسط الحقيقة بصورة غير مزيفة، دون خوف من أن هذه الحقيقة إذا قدمت بوضوح. قد تبدو « غير جيدة » فى نظر إسرائيل، بل يمكننى القول إنه مناضل متطرف ضد العنصرية فى كتاباته وأحاديثه العامة، كان يحكمه معيار واحد، وواحد فقط، إبطال الانتهاكات التى تمارس ضد حقوق الإنسان، لذا لم يكن يهمه إذا كان اليهود الإسرائيليون هم الذين يتهجمون طوال الوقت على الفلسطينيين، حيث إنه كمثقف كان عليه أن يشهد ضد هذه الانتهاكات. إنه ليس من قبيل المبالغة أن نقول إنه قد التزم إلى أقصى حد بموقفه إلى أن أصبح سريعا الرجل الأكثر مقتا فى إسرائيل، وأتذكر أنه منذ حوالى خمسة عشر عاما مضت، أعلن عن وفاته، على الرغم من أنه كان بالطبع مازال حيا إلى أبعد حد. لقد نشرت « الواشنطن بوست » قصة وفاته، وبعد أن زار شاحاك بنفسه الجريدة ليثبت أنه لم « يمت »، قال لأصدقائه مازحا: إنه لم يكن له تأثير قوى على « البوست » التى لم تنشر أبدا تصحيحا لخبر وفاته، لذا فإنه مازال لدى البعض « ميتا »، إنها أمنية حالمة، تكشف كيف جعل شاحاك « أصدقاء إسرائيل »، يشعرون بعدم الراحة.

وتجدر الإشارة إلى أن طريقته فى قول الحقيقة كانت دوما دقيقة جدا، ولا تقبل بتسويات وسط، ولا يوجد أى إغراء يدفعه لأن تبدو « لطيفة » أو محاولة يبذلها لجعل الحقيقة مستساغة، أو إلى حد ما يمكن تبريرها. فبالنسبة لشاحاك القتل هو جريمة قتل، والقتل هو جريمة قتل، إن أسلوب التكرار والصدمة. يعنى بها أن يحرض المتكامل واللامبالى، على إدراك صادم بحقيقة الألم الإنسانى الذى قد يكون تسبب فيه. وفى أحيانا كثيرة، أزعج شاحاك الناس ودفعهم للغضب، وكان هذا جزءا من مسئوليته، ويجب القول من خلال شعوره برسالته، وبرفقته أستاذه الراحل أعحوشواه

ليبوويتش، الذى أعجب به بعمق وعمل دائما معه، فإن شاحاك أبرز مصطلح « اليهودية النازية »؛ بأساليب مميزة استخدمها الإسرائيليون دوما من أجل إخضاع وقمع الفلسطينيين. إنه لم يذكر أبدا، أو كتب أى شىء لم يكن قد اكتشفه بنفسه، و شهده بعينه، وخبره بشكل مباشر.

إن الفرق بينه وبين معظم الإسرائيليين الآخرين كان فى صنع أوجه ارتباط بين الصهيونية واليهودية، والممارسات القمعية ضد « غير اليهود »، وبالطبع وضع أحكامه واستنتاجاته فى النهاية.

إن قدرا كبيرا من كتاباته كانت تكشف النقاب عن الدعاية الفاضحة والأكاذيب، التى تفردت إسرائيل فى العالم باختلاقها من أجل مصلحتها، ولهذا فإن الصحفيين إما لم يروا أو لم يكتبوا ما يدركون تماما أنه الحقيقة، خوفا من الإدراج فى اللائحة السوداء، أو الانتقام منهم، وكذلك الشخصيات البارزة السياسية والثقافية والفكرية، خاصة فى أوروبا والولايات المتحدة، فقد ابتعدوا تماما عن مبادئهم من أجل تمجيد إسرائيل وإظهارها بأعظم الصفات التى يمكن أن توصف بها أى أمة على وجه الأرض، على الرغم من أن الكثير منهم كانوا مدركين تماما لأعمالها الجائرة، لكنهم لم يشيروا أبدا إلى ذلك. والنتيجة كانت ستارا دخانيا أيديولوجيا، تفرد شاحاك، ببذل جهد عسير لتبديده.

إنه ضحية الهولوكوست، والناجى منها، يعرف تماما معنى معاداة السامية. وبالرغم من ذلك فإنه على النقيض من الغالبية، لم يسمح بفظائع الهولوكوست أن تكون مبررا لتزييف ما فعلته إسرائيل بالفلسطينيين لصالح الشعب اليهودى، فبالنسبة له، المعاناة ليست استحواذا حصريا لجماعة من الضحايا، بل يجب أن تكون، وإن كان هذا نادرا، هى الأساس الذى تضفى عليه ملامح إنسانية على الضحايا، وتجعل من واجبهم عدم التسبب فى معاناة من نفس النوع الذى كابدوه. لقد حث شاحاك كل أبناء وطنه ألا ينسوا أن التاريخ المروع الثابت لمعاداة السامية، لا يخولهم القيام بأى شىء يرغبون فيه لمجرد أنهم تألموا وعانوا. ولا عجب بعد ذلك أنه كان شخصا كريها، فبقوله لمثل هذه الأشياء، رفض شاحاك أخلاقيا القوانين الإسرائيلية والممارسات السياسية تجاه الفلسطينيين.

ويمضى شاحاك إلى أبعد من ذلك، إنه علمانى غير متذبذب، تماما عندما يخص الأمر التاريخ الإنسانى. ولا أعنى بهذا أنه ضد الدين، لكنه ضد استخدام الدين كوسيلة لتفسير الأحداث، وتبرير السياسات غير المنطقية والفجة، وتبجيل طائفة معينة من «المؤمنين» على حساب الآخرين. ومما هو مدهش أيضا أن شاحاك، ليس بالمعنى الحرفى للكلمة، رجل ينتمى لليسار، فهو بشكل عام وفى أحيان كثيرة ناقد للماركسية، ويستشف مبادئه من مفكرين أوروبيين أحرار، وليبراليين وجريئين أمثال فولتير وأورويل. والذى يجعل شاحاك أكثر روعة، إنه فى تأييده لحقوق الفلسطينيين لم يستسلم للتفكير العاطفى، الذى يفيد أن ما عاناه الفلسطينيون على يد إسرائيل يجب أن يكون مبررا لأعمالهم الحمقاء. لم يفعل ذلك بالطبع؛ شاحاك كان دائما ناقدا للأعمال غير المتقنة لمنظمة التحرير الفلسطينية، ولجهلها بإسرائيل وعدم قدرتها على الثبات فى مقاومة إسرائيل، وتسوياتها الرديئة، وإعجابها إلى حد العبادة بنفسها، وافتقادها العام للجدية.

لقد عبر أيضا عن رأيه بحرية ودون خوف ضد قضايا الثأر وجرائم القتل الخاصة بالشرف ضد النساء الفلسطينيات، فلقد كان دوما مؤيدا قويا لحقوق المرأة. وخلال الثمانينيات، عندما أصبح شائعا لدى المثقفين الفلسطينيين، وقلة من قيادات منظمة التحرير الفلسطينية، أن يلتمسوا أوجه «حوار» مع الإسرائيليين من جمعية السلام الآن وحزب العمل وميريتز، تم استبعاد شاحاك بشكل نمطى «مبتذل»، من هذه الحوارات، وأحد الأسباب وراء ذلك أنه كان شديد النقد لمعاهدة السلام الإسرائيلية وتسوياتها، وممارساتها المخجلة فى الضغط على الفلسطينيين فقط دون الحكومة الإسرائيلية من أجل الوصول إلى تغيرات فى السياسة، وعدم استعدادها لتحرير نفسها من الاضطرار لإرضاء إسرائيل بعدم ذكر أى انتقاد لممارستها تجاه غير اليهود. والسبب الآخر، أنه لم يكن أبدا سياسيا، إنه ببساطة لم يؤمن بقولبة نفسه والدوران حول المعانى، هذه الأساليب التى يستعد دوما أصحاب المطامع السياسية لممارستها. لقد ناضل من أجل المساواة، والحقيقة والسلام الفعلى، والحوار مع الفلسطينيين. إن المسئولين

الإسرائيليين المحبين للسلام ناضلوا من أجل وضع مفاوضات يمكن أن ينتج عنها سلام محتمل، تلك التى أدت لمفاوضات أوسلو. لكن شاحاك كان أول من شعر بضرورة إيقافها.

وأتحدث هنا كفلسطينى. شعر دوما بالخجل من الناشطين الفلسطينيين الذين كانوا تواقين للحوار فى السر أو العلن مع حزب العمل أو ميرتيز. ورفضوا أن يقوموا بأى حوار مع شاحاك. فلقد كان بالنسبة لهم شديد الراديكالية، شديد الجراءة، هامشيا جدا بالنسبة للسلطة الرسمية، وبشكل خفى، أعتقد أنهم أيضا خشوا من انتقادات لاذعة للسياسات الفلسطينية، و بالتأكيد كان سيفعل هذا.

وبعيدا عن كونه مثالا للمفكر الذى لم يخن أبدا مبادئه أو قبل بحلول وسط للتعامل مع الحقيقة كما يراها، فإن شاحاك قد قدم خدمة هائلة عبر السنين لأصدقائه ومؤيديه فى الخارج. فلقد عمل وفق افتراض منطقى، بأن الصحافة الإسرائيلية كانت فى تناقض واضح أكثر صدقا وإعلاما حول إسرائيل، من الإعلام العربى والغربى، ولهذا فقد عمل بكد على ترجمة وشرح وإعادة تقديم، و أيضا إرسال «*شحنات*» من آلاف المقالات من الصحافة العبرية. ومن المستحيل أن نفى هذه الخدمة حقها من الاحترام والتقدير، فبالنسبة لى، كشخص تحدث وكتب عن فلسطين. لم يكن بمقدورى أن أقوم بهذا، لولا أوراق شاحاك، وبالطبع لولا مثاليته كباحث وراء الحقيقة والمعرفة والعدالة، لهذا فأنا مدين له بدين ضخم من العرفان بالجميل. لقد قام بهذا العمل على حسابه الشخصى غالبا، وعلى حساب و قته الخاص أيضا.

إن الحواشى التى أضافها والمقدمات المختصرة التى كتبها على مختاراته الشهرية من الصحافة كانت ثمينة فى طبيعتها البحثية، ومعلوماتها العميقة الزاخرة، واتسامها بصبر على التعليم لانهائى، ومع كل هذا، فإن شاحاك استمر أيضا فى عمله كباحث وأستاذ بالجامعة، ولم يكن لهذا الجهد أى تأثير على ترجماته وحواشيه الشارحة، فلقد استطاع بطريقة ما، أن يوجد الوقت أيضا، لأن يصبح أكثر شخصا عرفته فى حياتى، واسع المعرفة، حيث كانت معرفته بالموسيقى والآداب وعلم الاجتماع، وفوق كل

هذا التاريخ فى أوروبا وآسيا ومناطق أخرى بلا منافس. إنه مثال لعالم اليهودية الذى سما فوق الكثيرين غيره، عن اليهودية التى سجنت طاقاته كعالم وناشط سياسى منذ البداية. ومنذ عدة سنوات قليلة مضت، بدأ فى ترصيع ترجماته بالتقارير، التى سرعان ما أصبحت وثائق شهرية تضم عدة آلاف من الكلمات فى موضوع واحد، على سبيل المثال حول الخلفية الحاخامية وراء اغتيال رابين، أو لماذا يجب على إسرائيل أن تعقد سلاما مع سوريا « من المدهش أن يكون السبب أن سوريا هى الدولة العربية الوحيدة التى يمكنها أن تأذى إسرائيل عسكريا »، وهكذا كانت هذه المقتطفات الثمينة من الصحافة العبرية، إضافة إلى تحليلات لاذعة إلى أقصى حد، وخاصة عادة على تحليل الاتجاهات والقضايا الحالية، التى كانت عادة خفية ولا تنشر فى وسائل الإعلام الرائجة.

لق عرفت دوما أن شاحاك مؤرخ مذهل، ومفكر استثنائى وعالم متعدد الثقافات، وناشط سياسى، لكن كما ذكرت سابقا لقد أدركت أن هوايته الأساسية كانت دراسة اليهودية، من جوانبها التوراتية والتلمودية، وللدارس فى هذا الموضوع، فإن هذا الكتاب هو مساهمة قوية، إنه لا يقل عن الكتب العميقة التى تناولت اليهودية الكلاسيكية، فقد تناول أيضا اليهودية الحديثة، واستخدمها فى فهم إسرائيل الآن. ويظهر شاحاك أن ادعاءات تعاليم الشوفينية المنعزلة وضيقة الأفق فى تفكيرها ضد الآخرين المتعددين من غير المرغوب فيهم، توجد فى اليهودية « إضافة طبعا إلى ديانات توحيدية أخرى »، لكنه أيضا يذهب إلى أبعد من ذلك فى إظهار التواصل بين هذه الطريقة التى تعامل بها إسرائيل الفلسطينيين والمسيحيين والآخرين من غير اليهود، حيث تنبثق صورة مروعة من الإجحاف والرياء وعدم التسامح الدينى، والأهم أن وصف شاحاك، يظهر أيضا الأكذوبة، ليس فقط فيما يخص خيالات ديمقراطية إسرائيل التى يروج لها فى الإعلام الغربى، لكنه أيضا يتهم ضمنيا القيادات العربية والمثقفين العرب برؤية جاهلة إلى حد فاضح لهذه الدولة، خاصة عندما يتحدثون لشعوبهم عن أن إسرائيل قد تغيرت حقا وأنها الآن تريد السلام مع الفلسطينيين والعرب.

إن شاحاك مثالا للرجل الشجاع الذى يجب أن يكرم من أجل إنجازاته الإنسانية. وهو أيضا يقدم فى عالم اليوم مثال للأعمال الباقية. والطاقة الأخلاقية التى لا تلين، والفطنة الفكرية التى استخدمها إلى حد مربك فى الوضع الراهن، وإن كان هذا الكتاب يعد مثيرا للجدل، ويقدم حالة من عدم الاستقرار، ويؤدى إلى حالة من عدم الترحاب، فأنا واثق من أنه على الرغم من أن ما قاله كان فى التاريخ اليهودى والدين اليهودى، إلا أنه سيكون أيضا مصدر عدم راحة للقراء العرب، وأنا أيضا واثق من أنه سيقول إن هذا يسعده جدا.

بقلم: إدوارد سعيد

الفصل الأول
الجمهورية الفاضلة المغلقة

«أكتب هنا ما أعتقد أنه الحق، حيث إن حكايات الإغريق متعددة، و هي في رأيي مثيرة للسخرية».
(هكتانيوس المليتي، كما نقله هيرود)
«أفلاطون صديق، لكن الحقيقة أعظم صديق»
(من «الأخلاق» لأرسطو)
«في دولة حرة يمكن لكل إنسان أن يفكر فيما يريد، وأن يقول ما يفكر فيه»
(سبينوزا)

هذا الكتاب على الرغم من أنه كتب بالإنجليزية، ووجهه لمن يعيشون خارج دولة إسرائيل، إلا أنه على نحو ما استئناف لأنشطتي السياسية كيهودي إسرائيلي.

هذه الأنشطة التي بدأتها في الفترة ما بين ١٩٦٥- ١٩٦٦ باحتجاج رسمي، نتج عنه فضيحة مدوية في هذا الوقت: فقد شهدت شخصيا حدث رفض يهودي - شديد التدين - السماح باستخدام هاتفه يوم السبت من أجل طلب سيارة الإسعاف لشخص غير يهودي انهار عليه منزله في منطقة مجاورة للقدس. وبدلا من مجرد الاكتفاء بنشر الحادث في الصحف. طالبت بمقابلة مع أعضاء المحكمة الحاخامية في القدس، المؤلفة من حاخامات معينين من قبل دولة إسرائيل، وسألتهم عما إذا كان هذا السلوك اليهودي متسقا مع تفاسيرهم للدين اليهودي. فأجابوا بأن اليهودي الذي نحن بصدده قد تصرف بشكل سليم وورع بالتأكيد، و أعقبوا بيانهم هذا بأن دعوني إلى مراجعة نص موثوق وجديد بالقبول من الشرائع التلمودية، كتب في هذا القرن. وقد كتبت تقريرا عن الحادث في الجريدة العبرية الرئيسية اليومية «هاآرتس» وتسبب نشرها لهذه القصة في فضيحة إعلامية.

كانت نتائج هذه الفضيحة، بالنسبة لى أكثر سلبية، فلم تتراجع أبدا، لا السلطات الإسرائيلية ولا الحاخامية، ولا المجتمعات اليهودية، عن حكمها بأن اليهودى يجب ألا ينتهك قدسية السبت من أجل إنقاذ حياة إنسان غير يهودى. وقد أضافوا لكثير من الثرثرة المتسمة بالتظاهر بالتقوى، إنه إذا كان سيتبع مثل هذا التصرف، تعريض اليهود لخطر، فإنه فى هذه الحالة يباح انتهاك قدسية السبت من أجل صالحهم. وأصبح هذا جليا بالنسبة لى مع معرفة مكتسبة منذ الصبا. فبدأت بدراسة الشرائع التلمودية التى تحكم العلاقات بين اليهود و غير اليهود، فلا يمكن فهم الصهيونية، بما فى ذلك جزءها العلمانى الظاهر، ولا السياسيين الإسرائيليين منذ نشأة دولة إسرائيل، ولا سياسات المؤيدين لليهودية فى إسرائيل وفى الخارج، دون معرفة التأثير العميق لهذه الشرائع، والأخذ فى الحسبان الرؤية العالمية التى شكلتها وجسدتها.

إن السياسات الفعلية التى مارستها إسرائيل بعد حرب الأيام الستة، وعلى وجه الخصوص ملامح سياسة التمييز العنصرى للنظام الإسرائيلى فى الأراضى المحتلة وموقف غالبية اليهود تجاه قضية حقوق الفلسطينيين، حتى نظريا، أيدت هذ ا الإيمان الراسخ بتقديمى لهذا الغرض، لا أحاول أن أتجاهل الاعتبارات السياسية والإستراتيجية التى قد تكون أثرت أيضا على حكام إسرائيل، إننى أعنى فقط أن السياسات الفعلية هى تفاعل ما بين الآراء الواقعية «سواء كانت صحية أم خاطئة، و سواء كانت أخلاقية أم غير أخلاقية فى رأيى »، والمؤثرات الأيديولجية. حيث نزعت الأخيرة لأن تكون أكثر نفوذا كلما قل مناقشتها أو جذبها تحت الضوء. إن أى شكل من أشكال العرقية، والتمييز العنصرى، والخوف من الأجنبى أو المغاير، تصبح أكثر إقناعا وفاعلية فى تأثيرها السياسى، إذا ما افترض صحتها وحتمية حدوثها من قبل المجتمع الذى يطلق لها العنان. ويحدث هذا بصفة خاصة إذا كانت مناقشتها محرمة سواء رسميا أم من خلال اتفاق تكتيكى مقصود منه تحقيق غرض معين. عندما تكون العرقية والتمييز العنصرى والخوف من المغاير، مواقف سائدة لدى اليهود، وموجهة ضد غير اليهود، ومدعمة من خلال محرضات دينية، فإنها تبدو فى وضع عكسى، وكأنها معاداة للسامية مع محفزات دينية على هذه الرؤية حاليا مع مناقشة الجانب الآخر للرؤية، معاداة السامية، فإنه يتم تجاهل

جوهر الحقيقة الأولى بشكل عام، وبصورة متزايدة خارج إسرائيل، أكثر منه داخلها.

تحديد معنى الدولة اليهودية

دون مناقشة المواقف اليهودية السائدة تجاه غير اليهود، فإنه حتى مفهوم إسرائيل «كدولة يهودية» كما تحدد إسرائيل نفسها رسميا، لا يمكن فهمه. إن الاعتقاد الخاطىء واسع الانتشار بأن إسرائيل دون الأخذ فى الاعتبار سياستها فى الأراضى المحتلة هى ديمقراطية حقة، ينبثق من رفض مواجهة دلالة مصطلح دولة يهودية لغير اليهود.

أرى أن إسرائيل كدولة يهودية تشكل خطرا ليس فقط على نفسها والمقيمين بها، لكن على جميع اليهود وعلى جميع الشعوب الأخري والدول الأخرى فى منطقة الشرق الأوسط وما حولها. وأعتقد أيضا أن دول الشرق الأوسط الأخرى أو الكيانات التى تحدد نفسها بأنها «عربية» أو «إسلامية»، كما تحدد إسرائيل نفسها بأنها «يهودية»، هى الأخرى تشكل خطرا، وإن كان هذا الخطر قد تمت مناقشته على نطاق واسع، فإن الخطر المتأصل فى الصفة اليهودية لدولة إسرائيل لم تتم مناقشته بعد.

إن المبدأ الأساسى بأن إسرائيل «دولة يهودية»، كان ذا أهمية قصوى للسياسيين الإسرائيليين منذ إنشاء دولة إسرائيل، وقد غرس فى ذهن الشعب اليهودى بجميع الوسائل التى يمكن تصورها.

فى بداية الثمانينيات، عندما ظهرت للعيان أقلية ضئيلة من اليهود الإسرائيليين الذين عارضوا هذا المبدأ، فإن قانونا دستوريا قد مرر وأجيز عام١٩٨٥ من قبل الغالبية الساحقة فى الكنيست، بموجب هذا القانون لا يحق لأى حزب، يعلن فى برنامجه علنا معارضته لمبدأ «الدولة اليهودية» أو أن يعرض تغيير هذ ا المبدأ بأى وسائل ديمقراطية، أن يشارك فى انتخابات الكنيست. لقد عارضت شخصيا بقوة هذا القانون الدستورى، فمن نتائجه المنطقية بالنسبة لى أنه لن يمكننى أن أنتمى فى دولة أنا مواطن بها إلى حزب لديه مبادىء أتفق معها، ويكون مسموحا له بالمشاركة فى انتخابات الكنيست.

إن هذا المثال يظهر أن دولة إسرائيل ليست ديمقراطية، لأنها ناشئة عن تطبيق الأيديولوجية اليهودية الموجهة ضد غير اليهود كافة، وهؤلاء الذين يعارضون

هذه الأيديولوجية. والخطر الذى تمثله هذه الأيديولوجية المهيمنة، غير مقصور فى إطار الشئون الداخلية فقط للدولة، لكنه أيضا يؤثر فى السياسات الخارجية الإسرائيلية هذا الخطر سوف يستمر فى نموه مادام هناك توسع فى نظام الإدارة الحالية لتقوية الهوية اليهودية لإسرائيل، وتقوية قوتها النووية بصفة خاصة، والعنصر الآخر المنذر بالسوء هو تزايد التأثير الإسرائيلى على المؤسسة السياسية الأمريكية.

من هذا المنطلق فإن مراجعة المعلومات الدقيقة حول اليهودية، خاصة ما يتعلق بالتعامل مع غير اليهود من قبل إسرائيل، أصبح حاليا ليس فقط مطلبا مهما، لكنه أيضا ذو غرض سياسى.

دعونى أبدأ مع التعريف الرسمى الإسرائيلى لمصطلح «يهودى»، موضحا الاختلاف الحاسم بين إسرائيل كدولة يهودية وغالبية الدول الأخرى. فمن خلال هذا التعريف الرسمى، فإن إسرائيل تخص فقط الأشخاص الذين يحددون من قبل السلطات الإسرائيلية أنهم «يهود»، بصرف النظر عن مكان إقامتهم. من الناحية الأخرى، فإن إسرائيل لا تخص رسميا مواطنيها من غير اليهود، الذين هم فى نظر القانون يعدون رسميا مواطنين من درجة أدنى. بالتطبيق العملي، فإن هذا يعنى أنه إذا قام أحد أفراد قبيلة بيرونية(*) بالتحول إلى الديانة اليهودية، فإنه يعد يهوديا، ويؤهل فورا لأن يكون مواطنا يهوديا ينتفع من حوالى ٧٠ بالمائة من أراضى الضفة الغربية و٩٢ بالمائة من أرض إسرائيل المخصصة رسميا فقط لصالح اليهود، فى حين أن غير اليهود كافة «وليس فقط الفلسطينيون» محرومين من الانتفاع من هذه الأراضى «هذا التحريم ينطبق حتى على عرب إسرائيل الذين خدموا فى الجيش الإسرائيلى ووصلوا إلي أعلى المناصب».

إن هذه الحجة السابقة التى تخص المتحولين إلى الديانة اليهودية قد حدث فى الواقع منذ عدة سنوات مضت. وقد استقر اليهود الجدد واستوطنوا الضفة الغربية بالقرب من نابلس، على أرض تم إقصاء أهلها من غير اليهود رسميا عنها. إن جميع الحكومات الإسرائيلية تقوم بمجازفات سياسية هائلة، بما فى ذلك مجازفة الحرب، ذلك أن مثل هذه المستوطنات المشكلة على وجه الحصر من

(*) البيرونى: أحد أبناء منطقة البيرو بأمريكا الجنوبية (المترجمة)

أشخاص يحددون رسميا أنهم «يهود»، «وليس إسرائيليين كما تدعى زيفا معظم وسائل الإعلام»، سوف تكون خاضعة فقط للسلطة «اليهودية».

وأظن أن يهود الولايات المتحدة أو بريطانيا سوف يعدونها معاداة للسامية إذا طالب المسيحيون أن تصبح الولايات المتحدة أو بريطانيا «دولة مسيحية» تخص فقط المواطنين الذين يحددون رسميا بأنهم «مسيحيون». إن من عواقب مثل هذا المبدأ هو تحول اليهود إلى المسيحية فى هذه الدول من أجل أن يصبحوا مواطنين كاملين.. ويجب أن نعيد إلى الذهن هنا أن فوائد التحول الدينى معروفة جيدا لدى اليهود من خلال تاريخهم الخاص عندما قابلت الدول المسيحية والإسلامية باستخدام سياسات التمييز العنصرى ضد جميع من لا ينتمون إلى دين الدولة، بما فى ذلك اليهود فور تحولهم الدينى، والتمييز العنصرى ضد غير اليهود أمام دولة إسرائيل سوف يوقف التعامل به أيضا فور تحول الشخص رجلا أم امرأة إلى اليهودية. هذا ببساطة يظهر أن نفس النمط من الاقتصارية التى يرى الغالبية العظمى من يهود الديسبورة (*)، أنها معاداة للسامية، يراها غالبية اليهود أنها «يهودية». ومن أجل مقاومة كلا من معاداة السامية والشوفينية(*) اليهودية، فإن اليهود ينظرون إليها على نطاق و اسع بأنها «معاداة ذاتية»، وهو مفهوم أراه غير مقنع.

إن معنى مصطلح «يهودى» أو المصطلحات ذات الطبيعة المتشابهة مثل «اليهودية» أصبح استخدامها فى سياق السياسات الإسرائيلية بنفس أهمية مصطلح «الإسلامية» عندما تستخدم رسميا من نقبل إيران أو «الشيوعية» عندما كانت تستخدم رسميا من قبل.

الاتحاد السوفيتى السابق. ومع هذا فإن المعنى من استخدام مصطلح «يهودية» كما تستخدم بشكلها الشائع غير واضح، سواء بالعبرى أو عندما يترجم إلى اللغات الأخرى، لهذا كان يجب أن يحدد هذا المصطلح رسميا، فطبقا للقانون الإسرائيلى، يعد الشخص يهوديا إذا كانت أمه أو جدته أو جدة جدته أو جدة جدة جدته يهودية الديانة، أو إذا تحول شخص إلى الدين اليهودى بطريقة مرضية ومقنعة للسلطات الإسرائيلية، على شريطة ألا يكون هذا الشخصخ قد

(*) الديسبورة: اليهود المشتتون فى أرجاء العالم، خاصة بعد الأسر البابلى. (المترجمة)

(*) الشوفينية: الغلوفى الوطنية والتعصب الوطنى.

تحول من قبل من اليهودية إلى دين آخر. ففى هذه الحالة لا يعد فى نظر إسرائيل «يهوديا»، و بالنسبة إلى هذه الشروط الثلاثة، فإن الشرط الأول يتبع التحديد التلمودى لهوية اليهودى، وهو التحديد الذى يتبعه اليهود الأرثوذكس. التلمود والتشريع الحاخامى التلمودى المتأخر أيضا يحدد شكل تحول غير اليهودى إلى اليهودية، كما أن شراء عبد غير يهودى من قبل يهودى يتبع شكلا آخر من أشكال التحول الدينى» شريطة أن تتم عملية التحول الدينى على يد حاخامات مفوضين ومزودين بسلطة ووفق الأساليب الصحيحة.

إن هناك أيضا ضرورة أخرى ملحة للتحديد الرسمى لمن هو يهودى ومن هو غير يهودى. إن دولة إسرائيل تمارس رسميا التمييز العرقى لصالح اليهودى وضد غير اليهودى فى العديد من ميادين الحياة، وأرى من هذه الميادين ثلاثة هى الأكثر أهمية: حقوق الإقامة والسكن، الحق فى العمل والحق فى المساواة أمام القانون.

إن التمييز العرقى فى الإقامة والسكن تعتمد على حقيقة أن حوالى ٩٢ بالمائة من الأراضى الإسرائيلية ملك للدولة وتديرها سلطة الأراضى الإسرائيلية، طبقا لقوانين أصدرها الصندوق القومى اليهودى JNF، وهو مؤسسة فرعية عن منظمة العالم الصهيونية.

فى القوانين التى أقرتها الـ JNF، ينكر الحق فى السكن أو إقامة مشروع، وعادة أيضا فى العمل لأى شخص غير يهودى، وفقط لأنه غير يهودى. وفى نفس الوقت لا يمنع اليهود من انتزاع محلات الإقامة أو إقامة مشاريع فى أى مكان فى إسرائيل. إذ طبق مثل هذا التشريع فى أى دولة أخرى ضد اليهود، فإن مثل هذه الممارسة المتسمة بالعنصرية سوف تعد فورا وبمبرر جدير بالاحترام، بأنه معاداة للسامية، وبلا أدنى شك سوف تحث هذه الممارسة على تفجر مظاهرات شعبية عارمة، لكنها عندما تطبق من قبل إسرائيل عجز من أيديولوجيتها اليهودية، فإنه عادة يتم تجاهلها بصورة متعمدة أو يتم تبريرها إذا ما ذكرت وهذا نادر الحدوث.

أما إنكار الحق فى العمل، فإنه يعنى أن غير اليهود محظور عليهم رسميا العمل على أرض تديرها سلطة الأراضى الإسرائيلية، طبقا لقوانين الـ JNF وبلاشك فإن هذه القوانين لا تفرض عادة بالقوة، لكنها موجودة وقائمة قانونا،

ومن وقت لآخر تحاول إسرائيل أن تفرضها بالقوة من خلال حملات تابعة لسلطات الدولة، كما حدث على سبيل المثال عندما أصدر وزير الزراعة الإسرائيلي قرارا مضادا حول ما أسماه «طاعون تأجير باستين الفاكهة المملوكة لليهود والكائنة على الأراضي الإسرائيلية» (على سبيل المثال الأراضي المملوكة إلى دولة إسرائيل) بأن تحصد من قبل العمال العرب، حتى لو كان هؤلاء العمال مواطنين في دولة إسرائيل. أيضا تحظر إسرائيل على نحو صارم أن يقوم اليهود المستوطنون في الأراضي الإسرائيلية بإعادة تأجير حتى ولو جزء من أرضهم للعرب، ولو لمدة قصيرة، ومن يقوم بهذا تفرض عليه عادة غرامات مالية عالية. في حين لا يوجد حظر على غير اليهودي من تأجير أرضه لليهود. هذا يعني إذا طبقت القانون على نفسي أنه من خلال مزية كوني يهوديا، لدى الحق في أن أستأجر بستانا من أجل حصاد نتاجه من يهودي آخر لكن غير اليهودي ليس لديه هذا الحق، سواء كان مواطنا إسرائيليا أم مقيما أجنبيا.

أيضا المواطنون الإسرائيليون غير اليهود ليس لديهم الحق في المساواة أمام القانون، ويتم التعبير عن هذا التمييز من خلال عدة قوانين إسرائيلية، من المحتمل أنه من أجل تجنب الإحراج أو التعقيد، لا يتم ذكرها على نحو بين، كما هي الحال في «قانون العودة» الحاسم، فطبقا لنص هذا القانون، يتم فقط للأشخاص المحددين رسميا بأنهم يهود، الحق آليا في الدخول إلى إسرائيل والإقامة بها، مع حصولهم آليا على «شهادة هجرة»، تلك الشهادة التي تمنحهم بمجرد الوصول واجبات المواطن وامتيازاته، ومنها العودة إلى أرض الوطن اليهودي، والحق في الحصول على العديد من الامتيازات المالية، التي تتراوح طبقا للدولة التي هاجروا منها، فاليهود المهاجرون من دول الاتحاد السوفيتي السابق يحصلون على منحة مالية تتعدى الـ ٢٠٠٠٠ دولار للأسرة، وجميع اليهود المهاجرين إلى إسرائيل طبقا لهذا القانون يحصلون فورا على حق التصويت في الانتخابات، وترشيح أنفسهم في انتخابات الكنيست حتى ولو كانوا لا يتحدثون كلمة عبرية واحدة.

القوانين الإسرائيلية الأخرى تقوم مقام تعبيرات أخرى أكثر تبلدا وتكتما، «أي شخص يمكنه أن يهاجر طبقا لقانون العودة»، وأي شخص غير مؤهل لا يمكنه الهجرة طبقا لقانون العودة، ورجوعا إلى القانون المذكور، فإن المزايا تمنح

إلى القطاع الأول، وتسحب من القطاع الثانى غير المؤهل، بمعيار تصنيفى. النظام المقصود به فرض تمييز بالقوة فى جميع تفاصيل الحياة هو بطاقة تحديد الهوية، التى يلزم كل شخص بحملها فى جميع الأوقات، هذه البطاقات تدرج الهوية الرسمية للشخص، يهودى، عربى، درزى، باستثناء مهم هو إسرائيلى. وقد فشلت جميع المحاولات لدفع وزير الداخلية بالسماح للإسرائيليين الذين يأملون فى أن يعدوا رسميا أنهم «إسرائيليون» أو حتى «إسرائيليون يهود» فى بطاقات تحديد الهوية. وهؤلاء الذين حاولوا القيام بذلك حصلوا على خطاب من وزارة الداخلية ينص على أنه قد تقرر عدم الاعتراف بالجنسية الإسرائيلية، ولم يحدد الخطاب من قام بها القرار أومتى.

هناك العديد من القوانين والتشريعات الإسرائيلية التى وضعت تمييزا لصالح الأشخاص المحددين بأن هؤلاء الذين يمكنهم الهجرة طبقا لقانون العودة يعاملون معاملة تتسم بالتفرقة. ويمكننا أن نستعرض أحد الأمثلة، قد يكون تافها فيما يبدو، بالمقارنة مع قيود حصر الإقامة، لكنه مع هذا مهم جدا، حيث يكشف النية الحقيقية للمشرع الإسرائيلى.

المواطنون الإسرائيليون الذين تركوا البلد لفترة، لكنهم محددون رسميا بأنهم هؤلاء الذين لا يمكنهم الهجرة طبقا لقانون العودة، مؤهلون عند عودتهم إلى الحصول على مزايا سخية خاصة بالإعفاءات الجمركية، والحصول على إعانات مالية حكومية لتعليم أبنائهم فى المدارس الثانوية والحصول على منحة أو قرض بشروط ميسرة لتملك شقة، إضافة إلى مزايا أخرى. المواطنون الإسرائيليون الذين لا يمكن تحديدهم بدقة، أو بمعنى آخر مواطنين إسرائيليين غير يهود، لا يحصلون على أى من هذه المزايا.

إن المعنى الواضح من مثل هذه الإجراءات التميزية هو تقليص عدد المواطنين غير اليهود فى إسرائيل من أجل دفع إسرائيل أكثر نحو أن تكون «دولة يهودية».

أيديولوجية أرض «الميعاد»

إسرائيل أيضا تروج وسط مواطنيها اليهود لأيديولوجية قصرية حول استرداد الأرض، إن الهدف المعلن من تقليص عدد غير اليهود يمكن أن يتم استقبالها بشكل جيد فى ظل هذه الأيديولوجية، التى تغرس فى أذهان أطفال

المدارس اليهودية فى إسرائيل، حيث يتعلمون أنه من القابل للتطبيق وضع اليد على ممتلكات إما دولة إسرائيل أو بعد حرب ١٩٦٧، على ما يشار إليه بأنه أرض إسرائيل.

وفقا لهذه الأيديولوجية، الأرض التى «استردت» هى الأرض التى انتقلت من غير اليهود إلى حيازة اليهود، هذه الحيازة يمكن أن تكون خاصة، أو تابعة للـ JNF أوالدولة اليهودية. الأرض المملوكة أو الخاصة بغير اليهود، فى المقابل تعد أرض «غير مستردة»، وبالتالى فإنه إذا ارتكب اليهودى جرائم تزوير، فإنها تصور على أنها صفقات شراء لأرض من غير يهودى فاضل. الأرض «غير المستردة» تصبح مستردة بموجب هذا الشكل من الصفقات، وبهذا فإنه إذا قام غير اليهودى الفاضل بشراء أرض من أسوأ يهودى، فإن الأرض تصبح «غير مستردة» مرة أخرى.

إن النتيجة المنطقية لمثل هذه الأيديولوجية هو الطرد، الذى يسمى عليه «نقل» لجميع غير اليهود فى هذه المنطقة من الأرض التى يجب أن تسترد. له هذا فإن يوتوبيا «الأيديولوجية اليهودية» التى تبنتها دولة إسرائيل، هى الأرض «المستردة» كلية دون أن يكون أيا منه ا مملوك أو يعمل بها غير يهود. إن قيادات حركة العمل الصهيونية، عبرت عن هذه الفكرة المنفرة والكريهة المسرفة فى التطرف وشديدة الوضوح، والتر لاكوير، صهيونى متعصب، يقول فى كتابه «تاريخ الصهيونية»[١]

كيف يمكن لأحد من هؤلاء الآباء الروحانيين الدينيين، مثل أ. د. جوردن الذى توفى فى ١٩١٩، أن يعارض استخدام العنف من أجل حق الدفاع عن النفس فقط، وفى أسوأ الظروف، لكنه هو و أصدقاؤه يريدون ألا تغرس أى شجرة، وألا يشق أي طريق فى الوطن اليهودى من قبل أى إنسان سوى اليهود الأصليين، هذا يعنى أنهم يريدون إبعاد أى إنسان آخر عن الأرض حتى يستردها اليهود خلفاء جوردن، أضافوا الكثير من العنف بعد ذلك، لكن مبدأ «الاسترداد» وعواقبه بقيت.

على نفس المنوال، الكيبوتس، التى نودى بإنشائها على نطاق واسع، كانت

(١) والتر كوير، History of Zionism, schocken Publishers, Tel Aviv 1974، بالعبرية.

محاولة لإنشاء يوتوبيا، هي يوتوبيا حصرية مستمرة، حت لو تشكلت من ملحدين، فهي لا تقبل بأعضاء عرب، إلا على أساس أن يتحول الأعضاء المحتمل قبولهم من جنسيات أخرى إلى الديانة اليهودية أولا.

ولا عجب أن أبناء الكيبوتس يمكن أن يعدوا الجزء الأكثر استعدادا للروح الحربية والتسلط العسكري في المجتمع اليهودي الإسرائيلي.

إن هذه الأيديولوجية الحصرية، تتذرع بالدعاية الإسرائيلية، أكثر من جميع «الاحتياجات الأمنية، في تحديد سياسة الاستيلاء على الأرض في الخمسينيات، ومرة أخرى في منتصف الستينيات، وفي الأراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧، هذه الأيدويولوجية أيضا تملي أوامرها على الخطط الإسرائيلية الرسمية من أجل تهويد الجليل، من المصطلح الدقيق والغريب بصورة لافتة، يعني تشجيع اليهود على استيطان الخليل بإعطائهم مزايا مالية، و أتساءل: ماذا سيكون رد فعل يهود الولايات المتحدة إذا قدمت خطة «لتنصير نيويورك» أو حتى حي بروكلين فقط، في بلدهم، لكن استرداد الأرض ينطوي على أكثر من مجرد فكر «التهويد» المحلية، وتلقى كامل منطقة إسرائيل التابعة لـ JNF، دعما نشيطا من الإدارات الحكومية الإسرائيلية «خاصة من قبل البوليس السري»، وتصرف مبالغ طائلة من الأموال الحامة من أجل «استرداد» أي أرض يبدي أي غير يهودي استعدادا لبيعها، ولإيقاف أي محاولة من يهودي لبيع أرضه إليغير يهودي، تدفع له مبالغ أعلى من سعر الأرض.

سياسة التوسع الإقليمي الإسرائيلية

إن الخطر الرئيسي الذي تفرضه إسرائيل كدولة يهودية على شعبها، وعلى اليهود الآخرين وعلى جيرانها، هو هذا السعي ور اء سياسة التوسع الإقليمي المحرض عليها أيديولوجيا، وهذه السلسلة المحتومة من الحروب التي نتجت عن هذا السعي. كلما ازدادت إسرائيل التصاقا بأن تصبح يهودية، أو كما يقال في العبرية: « كلما ازدادات لها عودة إلى اليهودية» لعملية استمرت في الانطلاق في إسرائيل منذ عام عام ١٩٦٧ على الأقل، أو كلما أصبحت سياساتها الفعلية الموجهة من خلال اعتبارات أيديولوجية يهودية، أقل ارتباطا بالاعتبارات المنطقية. واستخدامي هنا لكلمة «المنطقية» لا أعني به التقييم الأخلاقي للسياسات الإسرائيلية، أو الدفاع المفترض أو الاحتياجات الأمنية

لإسرائيل، ولا حتى الاحتياجات المزعومة «للبقاء الإسرائيلى»، إننى أشير هنا إلى السياسات الإسرائيلية الإمبريالية المنطلقة من مصالحها المزعومة. ومهما كان مدى الفساد الأخلاقى أو الجهل السياسى التام الذى تتسم به هذه السياسات، فأنا أرى أن تبنى سياسات معتمدة على «أيديولوجية يهودية» بكل صيغها المختلفة، كان أكثر سوءا.

إن الحصون الأيديولوجية السياسية الإسرائيلية تعتمد عادة على المعتقدات الدينية اليهودية أو فى حالة اليهود العلمانيين، على «الحقوق التاريخية» لليهود، المستمدة من هذه المعتقدات التى يتم تذكرها بصورة دوجماتية من الولاء الدينى.

لقد جاء تحولى السياسى المبكر من معجب لبن جوريون إلى خصم مناوىء له، منذ تحديد هذه القضية، ففى عام ١٩٥٦، كنت قد امتلأت اقتناعا مفعما بعاطفية قوية وتلهف إلى جميع مبررات بن جوريون السياسية والعسكرية وراء شن إسرائيل حرب السويس، إلى أن قام «على الرغم من كونه ملحدا، فخورا باستخفافه بالوصايا العشر»، بالإعلان بوضوح وجزم فى الكنيست فى اليوم الثالث للحرب، أن السبب الحقيقى وراءها هو «استرداد مملكة داود وسليمان»، حتى تخومها التوراتية. وعند هذه النقطة فى خطابه، قام تقريبا جميع أعضاء الكنيست بالوقوف تلقائيا وغنوا معا النشيد القومى لإسرائيل. على حد علمى، لم يقم أى سياسى صهيونى أبدا بإنكار فكرة بن جوريون، التى تنادى بأن السياسات الإسرائيلية يجب أن تعتمد «فى إطار الحدود الخاصة بالاعتبارات البراجماتية» على فكرة استرداد الحدود التوراتية، باعتبارها حدود الدولة اليهودية.

بالتأكيد التحليل الدقيق للإستراتيجيات الرئيسية الكبرى، والمبادىء الفعلية للسياسة الخارجية، كما عبر عنها بالعبرية، توضح أن «الأيديولوجية اليهودية» أكثر من أى عام آخر، هى التى تحدد السياسات الإسرائيلية الفعلية.

إن تجاهل هذه «اليهودية» كما هى أو «الأيديولوجية اليهودية» تجعل هذه السياسات مبهمة أمام المراقبين الخارجين، الذين عادة يجهلون أى شىء عن اليهودية، سوى هذه الوسائل الدفاعية العقائدية الفجة.

دعونى أقدم توضيحا أكثر حداثة عن الاختلاف الرئيسى الكامن بين

التخطيط الإسرائيلي الإمبريالي بشكله العلماني الأكثر غرورا والمعتقدات الأساسية لـ «الأيديولوجية اليهودية» وفق الأخيرة، يفترض أن الأرض التي حكمت من قبل حاكم يهودي في العصور السابقة، أو وعد بها الرب اليهود، سواء في الكتاب المقدس، أم فيما هو فعليا أكثر أهمية على المستوي السياسي، طبقا للتأويل الحاخامي للكتاب المقدس والتلمود، يجب أن تنسب إلى إسرائيل باعتبارها دولة يهودية، وبلا شك فإن العديد من اليهود الأتقياء مع هذا الرأي القائل بأن انتزاع الأرض يجب أن يؤجل لوقت تصبح فيه إسرائيل أقوى مما هي عليه الآن، أو أنه سوف يكون هناك أمل في «إخضاع سلمي» يتم عندما «يقتنع» الحكام العرب أو الشعوب العربية بالتخلي عن الأرض محل النزاع مقابل المزايا التي سوف تمنحها لهم الدولة اليهودية.

إن عددا من النسخ المتعارضة للحدود التوراتية لأرض إسرائيل التي قامت السلطات الحاخامية بتأويلها على أنها تعد بصورة مثالية خاصة بالدولة اليهودية، وهي متداولة. تحوى المناطق التالية في إطار هذه الحدود: في الجنوب جميع سيناء، وجزء من شمال مصر، حتى ضواحي مدينة القاهرة، وفي الشرق جميع أراضي الأردن، وجزء كبير من المملكة السعودية، وأرض دولة الكويت بكاملها، وجزء من أرض العراق نحو جنوب الفرات، وفي الشمال.

جميع أراضي لبنان وسوريا مع جزء ضخم من الأراضي التركية، نحو حدود بحيرة فان، وفي الغرب قبرص. لقد أجريت مجموعة هائلة من الدراسات والمناقشات العلمية المعتمدة على هذه الحدود التوراتية، وأدمجت معها مجموعات من الخرائط الجغرافية، والكتب والمقالات، في أشكال من المطبوعات الدعائية الأكثر انتشارا في إسرائيل، التي تروج معها دعما حكوميا. وبالتأكيد فإن كاهانا الراحل وتابعيه، وأيضا مجموعات مؤثرة مثل جيش أمونيوم Gush Emunim، لم يقوموا فقط بالترغيب في الاستيلاء على هذه الأراضي من قبل إسرائيل، لكنهم أيضا أشاروا بوضوح إلى أن الاستيلاء عليها عمل ديني مقدس، ومن المؤكد نجاحه، حيث إنه بتأييد من الرب.

في الواقع فإن القيادات الدينية اليهودية العامة، ترى أن رفض إسرائيل الشروع في هذه الحرب المقدسة، أو حتى ما هو أسوأ من ذلك، إعادة سيناء إلى مصر، هو إثم قومي سوف يعاقب عليه الرب بشدة. واحد من أهم حاخامات

Gush Emunim المؤثرين، دوف ليور، حاخام المستوطنات اليهودية فى Kir-yat Araba وHebron وادى عربة ومدينة الخليل. ذكر مرارا أن فشل إسرائيل فى إخضاع لبنان عام ١٩٨٢- ١٩٨٥، كان عقابا إلهيا مستحقا على خطيئة منح جزء من أرض إسرائيل، أى سيناء إلى مصر.

وعلى الرغم من اختيارى لمثال متطرف على نحو لا يمكن إنكاه للحدود التوراتية لأرض إسرائيل التى تخص الدولة اليهودية، فإن هذه الحدود أيضا شائعة جدا فى الدوائر الدينية الإسرائيلية. وهناك تفاسير أخرى أقل تطرفا للحدود التوراتية، تسمى أحيانا أيضا بالحدود التاريخية، ومهما يكن فإنه يجب التركيز على أنه داخل إسرائيل والمجتمع المؤيد ليهود الدياسبورة، فإن شرعية هذه الحدود التوراتية أو الحدود التاريخية، كتخطيط لحدود الأرض التى تخص اليهود، هى فكرة غير مرفوضة من حيث المبدأ، إلا من أقلية ضئيلة تعارض فكرة الدولة اليهودية. من ناحية أخرى فإن معارضة الحصول على مثل هذه الحدود من خلال حرب هى برجماتية بحتة. بل يمكننى القول إن إسرائيل الآن أضعف كثيرا من أن تخضع جميع الأراضى التى «تخص» اليهود، أو أن تفقد أرواح اليهود «لكن ليس أرواح العرب» وما سوف يستتبع ذلك من خوض حرب لتحقيق مثل هذا الإخضاع للأرض، لكن فى «يهودية القرون الوسطى» لا يمكن لأحد أن يدعى أن.«أرض إسرائيل» مهما كانت حدودها لا تخص جميع اليهود.

فى مايو من عام ١٩٩٣ أعلن آريل شارون رسميا فى اجتماع الليكود، أن على إسرائيل أن تتبنى فكرة «الحدود التوراتية»، باعتبارها سياستها الرسمية. وقد ظهرت قلة من الاعتراضات على هذا الإعلان، سواء فى الليكود أم خارجه، وجميعها تعتمد على أسس برجماتية، حتى إنه لم يسأله أحد تحديدا عن موقع الحدود التوراتية التى طالب أن تبلغها إسرائيل.

دعونا نتذكر أنه لدى هؤلاء الذين أطلقوا على أنفسهم لينينيين لم يكن هناك شك فى أن التاريخ كان يتبع المبادىء الأساسية التى وضعها ماركس ولينين، إنه ليس فقط المعتقد فى حد ذاته، مهما كان دوجماتيا، لكنه الرفض الذى كان يشك فيه دائما وفى أى وقت، من خلال مناقشات مفتوحة من شأنها خلق قالب استبدادى للعقل. إن المجتمع اليهودى الإسرائيلى ويهود الدياسبورة الذين يتصدرون «حياة اليهود» ومندرجين فى منظمات يهودية خالصة، يمكننا

القول إنهم لهذا السبب لديهم نزعة قوية نحو تأييد الديكتاتورية أو ممارستها كتكوين شخصي.

ومهما يكن فإن الإستراتيجيات الإسرائيلية الرئيسية، التى لا تعتمد على معتقدات «الأيديولوجية اليهودية»، لكنها تعتمد على اعتبارات إستراتيجية محضة وامبريالية قد تطورت هى الأخرى منذ إنشاء الدولة. إن الوصف الواضح والرسمى الصادر عن المعتقدات التى تحكم مثل هذه الإستراتيجية قد قدمها جنرال «قوات الاحتياط»، وقائد مخابرات العسكرية السابق[1] شولوم جازيت، فوفق رأى جازيت، فإن الواجب الأساسى لإسرائيل لم يتغير على الإطلاق «منذ انهيار الاتحادالسوفيتى»، وظل على نفس أهميته الحاسمة. إن الموقع الجغرافى لإسرائيل فى قلب منطقة الشرق الأوسط العربية - الإسلامية، يحتم على إسرائيل أن تكون الحارس المكرس من أجل حفظ الاستقرار لجميع الدول المحيطة بها. إن «دورها» هو حماية الأنظمة القائمة، وكبح أو إيقاف عمليات التطرف الراديكالية، ومنع تزايد حركات التعصب الأصولية الدينية.

من أجل هذا الهدف، فإن إسرائيل سوف تمنع وقوع أى تغيرات يمكن أن تقع وراء نطاق الحدود الإسرائيلية «التى» سوف تنظر إليها باعتبارها أحداثا لا يمكن احتمالها، إلى حد قد يدفعها للشعور بالإجبار على استخدام قوتها العسكرية، بهدف منعها أو إبادتها.

بمعنى آخر، فإن إسرائيل تهدف إلى فرض سيطرة على دول الشرق الأوسط الأخرى، ولا حاجة بنا إلى القول إنه وفقا لجازيت، فإن إسرائيل لديها اهتمام هادف إلى النفع العام، باستقرار الأنظمة العربية فى المنطقة. من وجهة نظر جازيت، فإنه من خلال حماية أنظمة فى الشرق الأوسط فإن إسرائيل تقدم خدمة حيوية وأساسية للدول المتقدمة صناعيا، التى هى أيضا بدورها حريصة بشدة على ضمان الاستقرار فى الشرق الأوسط.

إنه يحاول أن يبرهن على أنه دون إسرائيل فإن النظم الحالية الموجودة فى المنطقة كانت سوف تنهار منذ زمن طويل مضى، وأنها لولا التهديدات الإسرائيلية لما بقيت فى حيز الوجود. فى حين أن هذه الرؤية قد تكون زائفة، فإنه على المرء أن يستدعى إلي الذهن المبدأ الأساسى للاروش الذى يقول:

(١) راجع صحيفة «يديعوت أحرونوت»، ٢٧ إبريل ١٩٩٢

«الزيف هو الضريبة التى يجب أن يدفعها البارع من أجل الوصول إلى السلطة»، وبهذا فإن استرداد الأرض أو تخليصها هو محاولة من أجل التملص من دفع هذا النوع من الضرائب.

ولست فى حاجة إلى القول إننى أعارض أيضا الجذر والفرع فى السياسات الإسرائيلية غير الأيديولوجية التى هى شديدة الوضوح كما شرحها جازيت. وفى نفس الوقت أدرك أن مخاطر السياسات الخاصة ببن جوريون أو شارون، التى تحرض عليها «الأيديولوجية اليهودية»، هى أكثر سوءا من كونها مجرد سياسات إمبريالية، مهما كانت إجرامية. إن نتائج السياسات الخاصة بأنظمة تحركها أيديولوجية تؤدى إلى نفس الاتجاه. إن وجود جزء أساسى داخل إطار السياسة الإسرائيلية، يعتمد على «الأيديولوجية اليهودية»، يجعل من تحليلها سياسيا أمرا ملحا. هذه الأيديولوجية فى المقابل تعتمد على المواقف التاريخية اليهودية تجاه غير اليهود، وهذا أحد أهم الأفكار الرئيسية فى هذا الكتاب. هذه المواقف التى أثرت بالضرورة على العديد من اليهود، عمدا أو دون عمد، إن هدفنا هنا هو أن نناقش تاريخ اليهودية فى أطرها الحقيقية.

إن تأثير «الأيديولوجية اليهودية» على العديد من اليهود سوف تكون أكثر قوة كلما ظلت أكثر بعدا عن الفحص العام، مثل هذا الفحص سوف - كما هو مأمول - يقود إلى أخذ نفس الموقف تجاه الشوفينية اليهودية، والازدراء الواضح لدى الكثير من اليهود تجاه غير اليهود «مما سوف يوثق فيما بعد»، حيث يؤخذ عادة على أنه معاداة للسامية، وجميع الأشكال الأخري من الخوف من المغاير أو الشوفينية والعنصرية. من الإنصاف افتراض أن الشرح الكامل، ليس فقط لمفهوم معاداة السامية، لكن لجذورها التاريخية، يمكن أن تكون أسس الصراع ضدها. وفى هذا السياق فإننى أزعم أنه فقط من خلال الاستعراض العام للشوفينية اليهودية والتعصب الدينى، يمكن و ضع أساس لمناهضة مثل هذه الظاهرة. وهذا صادق على وجه الخصوص اليوم، حيث إنه على نحو متعارض مع الوضع السائد منذ خمسين أو ستين عاما مضت، فإن التأثير السياسى للشوفينية اليهودية والتعصب الدينى أصبح أعظم كثيرا من هذا التأثير الناتج عن معاداة السامية، لكن هناك أيضا اعتبارا آخر مهما، فأنا أؤمن بشدة أن معاداة السامية والشوفينية اليهودية يمكن أن يحاربا معا فى وقت واحد.

إلى أن يتم تبنى مثل هذه المواقف على نطاق واسع، فإن الخطر الفعلى للسياسات الإسرائيلية المرتكزة على «الأيديولوجية اليهودية» يظل أعظم كثيرا من خطر السياسات المرتكزة على اعتبارات إستراتيجية محضة. وقد عبر عن الاختلاف ما بين هذين النوعين من السياسات بشكل جيد هيو تريفور - روبر، فى مقاله «سير توماس مورو اليوتوبيا»[1]، حيث أطلق عليهما الأفلاطونية والميكيافيلية، لقد اعتذر ميكيافيلى على الأقل عن الأساليب التى ظن أنها أساسية فى السياسة. لقد أسف على ضرورة استخدام القوة والخداع ولم يطلق عليهما أى اسم آخر. لكن أفلاطون وتوماس مور أوجدا لهما مبررات، واشترطا أن يستخدما من أجل تعزيز جمهوريتيهما الفاضلتين، وعلى نفس النسق فإن المؤمنين حقا بهذه الجمهورية الفاضلة التى تدعى «دولة اليهود» التى سوف تناضل من أجل الوصول إلى «الحدود التوراتية» أكثر خطورة من الاستراتيجيات الأساسية على طريقة جازيت لأن سياستها يتم تبريرها سواء باستخدام الدين أو ما هو أسوأ، باستخدام المعتقدات الدينية، التى تم إلصاق نزعة علمانية بها، التى تتحول إلى شرعية تامة. فى حين أن جازيت على الأقل يرى وجود حاجة إلى المطالبة بأن التكتيك الإسرائيلي يفيد الأنظمة العربية، بن جوريون لم يتظاهر بأن إعادة إنشاد مملكة داود وسليمان يمكن أن تعود بالفائدة على أحد غير «الدولة اليهودية».

إن استسخدام النظريات الأفلاطونية لتحليل السياسات الإسرائيلية المرتكزة على «الأيديولوجية اليهودية» لا يجب أن تبدو غريبة. لقد تم الانتباه إليها من قبل عدة مفكرين، من أهمهم موسى هاداس الذى ادعى أنه أسس «اليهودية الكلاسيكية» التى هى اليهودية كما تم ترسيخها من خلال قصص البطولات التلمودية، مرتكزة على مؤثرات أفلاطونية، وبصفة خاصة مرتبطة بصورة إسبارطة القديمة، كما ظهرت لدى أفلاطون[2] وفقا لهاداس، فإن الملمح الرئيسى

---

(١) In Hugh Trevor- Roper, Renaissance Essays, Fontana Press, London, 1985.

(٢) راجع Moses Hadass, Hellenistic Culture, Fusion and Diffusion, Columbia University Press, New York, 1959

لنظام السياسة الأفلاطونية يتم إظهاره من قبل اليهودية منذ عصر مبكر يعود إلى العصر المكابى ١٤٢- ٦٣ ق.م، وكان هذا الطور الكامل من السلوك الإنسانى تابع للتصديقات الدينية التى فى الواقع يتم التلاعب بها من قبل الحاكم. قد لا يكون هناك تعريف أفضل «لليهودية الكلاسيكية» أو بالطريقة التى حورها إليها الحاخامات، أفضل من هذا التعريف الأفلاطونى. أو على وجه التحديد ما ادعى هاداس أن اليهودية تبنته من خلال ما وضعه أفلاطون نفسه «على أنه» أهداف برنامجه، فى النص التالى المعروف جيدا:

بشكل أساسى لا أحد -رجل أم امرأة - يمكن أن يحيا بلا شرطى يوجهه، وأنه لا يجب لإنسان أن يكون لديه هذه العادة الذهنية بأخذ أى خطوة، سواء كانت جدية أم هزلية، على مسئوليته الخاصة. فى السلم تماما كما فى الحرب عليه أن يحيا دائما وعينيه على ضابطه الأعلي، بمعنى آخر علينا ألا غرن عقل الفرد عليا عمال فكره أو حتى أن يعرف كيفية القيام بهذا (Laws. 942ab).

وإذا استبدلنا كلمة «حاخام» بالـ «الشرطى أو الضابط»، فسوف يكن لدينا تصور واضح عن «اليهودية الكلاسيكية»، فالأخيرة مازالت تؤثر بعمق على المجتمع اليهودى - الإسرائيلى. لقد كانت هذه الفقرة السابقة المقتبسة من أفلاطون هى التى اختارها كارل بوبر(*) فى كتابه «المجتمع المفتوح وأعداؤه» لوصف جوهر «المجتمع المغلق» المقصور على أفراده القلائل. إن اليهودية التاريخية وخلفاءها من اليهودية الأرثوذكسية والصهيونية كانوا الأعداء المؤكدين لفكرة المجتمع المفتوح الذى ينطبق على إسرائيل. الدولة اليهودية، سواء ارتكزت على أيديولوجيا اليهودية الحالية أم اتجهت نحو أن تكون أكثر يهودية مما هى عليه الآن، على أسس من اليهودية الأرثوذكسية، لا يمكن أبدا أن تخلق مجتمعا مفتوحا.

وهناك اختياران يواجهان المجتمع اليهودى - الإسرائيلى. يمكنها أن تصبح منغلقة تماما وتتحول إلى جيتو عسكرى، إسبارطة يهودية، مدعمة من قبل عمل طبقة العبيد العرب Arab helots (*)، وتحافظ على وجودها من خلال تأثيرها على المؤسسة السياسية الأمريكية والتهديد باستخدام قوتها النووية،

(*) كارل مارتن بوبر: فيلسوف يهودى صهيونى متعصب من كبار مفسرى العهد القديم. (المترجمة)

(*) على غرار طبقة العبيد «هلوت» فى إسبارطة القديمة. (المترجمة)

أو يمكنها محاولة أن تصبح مجتمعا مفتوحا ، والاختيار الثانى يرتكز على اختبار أمين ومخلص لماضيها اليهودى، مع الإقرار بوجود الشوفينية اليهودية والقصرية اليهودية، ومع فحص صادق لمواقف اليهودية تجاه غير اليهود.

الفصل الثانى
الإجحاف والمراوغة

إن أول صعوبة فى الكتابة حول هذا الموضوع، هى أن مصطلح «يهودى» قد استخدم خلال المائة وخمسين عاما الأخيرة بمعنين مختلفين تماما، ولفهم هذا الأمر، دعونا نتخيل أنفسنا فى عام ١٧٨٠، حيث كان المعنى شائع القبول لمصطلح «يهودى» يتطابق بشكل أساسى مع ما يفهمه اليهود على أنه المكون لهويتهم الخاصة. وهى هوية دينية فى الأساس، غير أن التعاليم الدينية تحكمت فى تفاصيل السلوك اليومى فى جميع مناحى الحياة الاجتماعية والخاصة بين اليهود أنفسهم تماما كما تحكمت فى علاقتهم بغير اليهود. وبهذا فإنه بالمعنى الحرفى للكلمة، لم يكن اليهودى قادرا فى ذلك الوقت على أن يشرب حتى ولو كوب ماء فى منزل غير يهودى. ونفس التعاليم السلوكية تجاه غير اليهود طبقت تماما من اليمن حتى نيويورك. وأيا كان المصطلح الذى يوصف به يهود ١٧٨٦ (ولا أود هنا أن أدخل فى جدال ميتافيزيقى حول مصطلحات مثل أمة وشعب)[(١)]. من الواضح أن جميع المجتمعات اليهودية فى هذا الوقت كانت منعزلة عن المجتمعات غير اليهودية التى عاشوا وسطها.

وبالرغم من هذا، فقد تغير الوضع من خلال عمليتين متوازيتين - بدأتا فى هولندا وإنجلترا، واستمرتا فى فرنسا الثورية والدول التى حذت حذو الثورة الفرنسية، ثم فيما بعد فى الأنظمة الملكية الحديثة للقرن التاسع عشر - العمليتان هما: حصول اليهود على درجة عالية من الحقوق الفردية فى بعض الأحوال حصلوا على مساواة كاملة فى الحقوق القانونية»، وتحطمت السلطة القضائية التى كان المجتمع اليهودى يمارسها على أفراده. ويجب الإشارة هنا إلى أن كلا العمليتين وقعتا فى وقت واحد، وأن العملية الأخيرة كانت الأكثر أهمية مقارنة بالأولي، وإن كانت أقل إدراكا على نطاق واسع.

(١) اليهود وصفوا أنفسهم بصورة شائعة، بأنهم مجتمع دينى، أو بالتحديد أمة دينية «شعبنا هو فقط شعب بسبب التوراة»، هذه المقولة التى قالها أحد أعلى المراجع الدينية الحاخام ساديا هاجا، الذى عاش فى القرن العاشر أصبح مضرب الأمثال.

لقد كان للمجتمعات اليهودية منذ عصر الإمبراطورية الرومانية القديمة سلطة قضائية كبيرة على أفرادها، سلطة لم تأت فقط نتاج ضغط اجتماعى اختيارى، على سبيل المثال: «رفض أن يكون هناك تعامل بأى صورة مع يهودى محروم دينيا أو حتى دفن جثته»، بل جاءت أيضا نتاج سلطة إكراه سافرة. مثل عقوبة الجلد والسجن والنفى، حيث كان من الجائز تطبيق كل هذه العقوبات بسلطة شرعية تامة على اليهودى، من قبل المحاكم الحاخامية المختصة بجميع أشكال الجرائم. وفى العديد من الدول «أسبانيا وبولندا يعدا مثالين واضحين»، كان من الجائز تطبيق حتى العقوبة القصوى: الإعدام، التى كانت تنفذ بالفعل أحيانا باستخدام أساليب وحشية مثل الجد حتى الموت.

مثل هذه الممرسات لم تكن فقط مجازة، بل إنها لقيت أيضا تشجيعا عمليا من قبل سلطات الدولة فى كل من الدول المسيحية والإسلامية، التى بالإضافة إلى حرصها العام على تطبيق «القانون والنظام»، كان لها فى بعض الأحوال منافع مالية مباشرة أيضا. على سبيل المثال يوجد فى المحفوظات الأسبانية التى يعود تاريخها إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر بيانات للكثير من الأوامر التفصيلية التى أصدرها الملوك الكاثوليك الأكثر ورعا لقشتالة وأراغون تنص على ضرورة التزام موظفيهم - الذين لا يقلون ورعا عنهم - بالتعاون مع الحاخامات فى فرض مراعاة بالقوة على اليهود لاحترام السبت، لماذا؟ لأنه كلما قامت المحكمة الحاخامية بتغريم يهودى انتهك حرمة السبت، فإن الحاخامات كان عليهم تسليم تسعة أعشار هذه الغرامة إلى الملك. وهى صفقة عظيمة الربح والفعالية.

وعلى نفس النسق يمكننا الاستشهاد بفتوي دينية، ظهرت فى خطاب كتب قبل فترة قصيرة من عام ١٨٤٨، من الحاخام الشهير فى هذا الوقت موشى سوفير، حاخام مدينة برسبرغ «حاليا براتسلاف» التى كانت فى هذا العصر تابعة للمملكة الهنغارية المتمتعة بالحكم الذاتى فى الإمبراطورية النمساوية، والخطاب موجه إلى فيينا بصفة خاصة، حيث نال اليهود الفعل بعضا من الحقوق الفردية الجديدة بالاعتبار[1].

(١) الإمبراطور جوزيف الثانى عام ١٧٨٢.

وفيه ينعى سوفير حقيقة أن الحشد اليهودى فى فيينا قد فقد صلاحياته فى عقاب الخارجين، حيث إن اليهود هناك أصبحوا متهاونين فى شئون الشعائر الدينية، ويضيف: «هنا فى برسبرغ عندما قيل لى إن صاحب حانوت يهودى تجرأ على فتح حانوته خلال الأعياد، فقد أرسلت توا شرطيا لاعتقاله».

لقد كانت هذه أكثر الحقائق الاجتماعية أهمية فى الوجود اليهودى قبل حلول الدولة الحديثة، وهى التقيد باتباع التعاليم الدينية اليهودية، إضافة إلى غرسها فى الأذهان من خلال عملية التعليم، وفرضها بالإكراه المادى، حيث لم يكن أمام اليهودى من مهرب سوى التحول إلى ديانة الأغلبية، مع ما يجلبه هذا من قطيعة اجتماعية تامة، وهو مهرب غير عملى على الإطلاق، إلا فى حالة وقوع أزمة دينية(١).

بالرغم من ذلك، فإنه فور ظهور الدولة الحديثة، فقد المجتمع اليهودى سلطة معاقبة أو إكراه الفرد اليهودى، وبذلك فإن واحدا من أكثر «المجتمعات المغلقة» انغلاقا، وواحدا من أكثر المجتمعات الاستبدادية فى التاريخ الإنسانى بأكمله قد انهار. هذا التحرك اليهودى نحو التحرير جاء فى أغلبه

من الخارج، وإن كان بعض اليهود قد ساندوه من الداخل، هؤلاء الذين كانوا فى البداية قلة. هذا الشكل من التحرير كانت له أصداء شديدة الخطورة و الأهمية على المستقبل، تماما كما فى حالة ألمانيا «طبقا للتحليل البارع لـ آ.ج.ب تايلور» حيث كان من السهل المصاهرة ما بين هذا الفاعل والمشاعر الوطنية لأنها حقيقة فعلية أن حقوق الفرد والمساواة أمام القانون قد دخل ألمانيا من خلال جيوش الثورة الفرنسية ونابليون، ولهذا يمكننا أن نصف الحرية بأنها «غير ألمانية»، ولهذا تحديدا أصبح من السهل جدا وسط اليهود خاصة فى إسرائيل تصعيد هجوم شديد الفعالية ضد جميع الأفكار والنظريات الخاصة بالحركة الإنسانية وحكم القانون «ناهيك عن ذكر الديمقراطية»، باعتبارها مفاهيم «غير يهودية» أو «معادية لليهودية»، «وهى كذلك بالتأكيد من منظور تاريخى»، لكنها مبادىء يمكن أن تستخدم «لصالح اليهود»، لكنها لا تحمل مصداقية إذا تعارضت مع «الصالح اليهودى»، على سبيل المثال إذا

(١) كل هذا يحذف عادة من كتب الاريخ اليهودية الشائعة، من التى تروج لخرافة أن اليهود حافظوا على دينهم بمعجزة، أو باستخدام نوع من القوة السحرية الغامضة.

حاول العرب تطبيق هذه المبادىء. هذا قد قاد - مرة أخرى - كما حدث فى ألمانيا ودول أخرى من أوروبا الوسطى، إلى وضع تاريخ يهودى مضلل وعاطفى وبالغ الرومانطقية، مع حذف جميع الحقائق غير الملائمة أو إبادتها.

لهذا فإنك لن تجد فى كتابات حنا أرندت الغزيرة سواء فيما يخص الاستبداد أو اليهود أو كليهما[1]، أدنى تلميح للصورة الحقيقية للمجتمع اليهودى فى ألمانيا القرن الثامن عشر: إحراق الكتب و اضطهاد الكتاب، والنزاع حول القوى السحرية للتمائم، ومنع معظم أشكال التعليم الابتدائى «غير اليهودى» مثل تعليم اللغة الألمانية الصحيحة، أو حتى كتابة الألمانية بالأبجدية اللاتينية[2]، كما لا يمكن أيضا أن تجد فى كتب «التواريخ اليهودية» الوفيرة المكتوبة باللغة الإنجليزية، أى حقائق أولية حول موقف التصرف اليهودى «أصبح رائجا حاليا لدى بعض الجماعات» من غير اليهود: حيث يعدون بالمعنى الحرفى للكلمة، أطراف الشيطان، وأن بعضا من القلائل غير الشيطانيين منهم هؤلاء الذين تحولوا إلى اليهودية، هم فى الواقع أرواح يهودية تاهت عندما انتهك الشيطان السيدة المقدسة «شخينا، أحد المكونات الأنثوية للإله الأكبر، أخت وزوجة الرب الأصغر الذكر، وفق تعاليم القبالاه»[*] فى مكانها السماوى. لقد أضفى كبار الكتاب مثل غيرشوم شولم، على سلطتهم منظومة من الأكاذيب فى جميع المجالات «الحساسة»، وكان أكثرها إقبالا شعبيا هى تلك الأكثر تضليلا وخداعا.

رغم ذلك، كانت النتائج الاجتماعية لعملية التحرير هذه، تعنى أنه لأول مرة تقريبا منذ عام ٢٠٠ ب.م[3]، أصبح فى إمكان اليهودى أن يفعل ما يريد

---

(١) على سبيل المثال فى كتابها Origins of totalitar iahism، جزء كبير مخصص لليهود.

(٢) قبل نهاية القرن الثامن عشر، سمح لليهود الألمان من قبل حاخاماتهم بأن يكتبوا الألمانية بأحرف عبرية فقط، وإلا سيوف يتعرضون لعقوبة الحرمان الدينى والجلد... إلخ

(*) القبلانية: فلسفة دينية يهودية سرية،، انتشرت بين يهود أوروبا فى فى القرن السادس عشر ويهود شرق أوروبا فى القرن الثامن عشر، تنقسم إليقسم نظرى خاص بالطريق إلى المعرفة الباطنية وقسم عملى أقرب للسحر (المترجمة).

(٣) عندما تم إبراق اتفاقية بين الإمبراطورية الرومانية والزعامات اليهودية «فى حكم أسرة النسيميم»، خضع بموجبها جميع اليهود فى الإمبراطورية للسلطة المالية والتنظيمية لهذه الزعامات والمحاكم الحاخامية، الذين تعهدوا من جهتهم بالحفاظ على النظام بين اليهود..

بحرية، في حدود القانون المدنى لبلده، دون أن يكون لزاما عليه دفع ثمن حريته هذه، التحول إلى دين آخر.

حرية أن يتعلم ويقرأ الكتب التى وقعت بلغات حديثة، وحرية أن يقرأ ويكتب بعبرية لم تكن تحظى من قبل بموافقة الحاخامات «كما كان الحال لأى كتاب بالعبرية أو اليديشية(*) من قبل»، وحرية تناول طعام غير الكوشير، وحرية تجاهل المحرمات الغريبة المتعددة التى تنظم الحياة الزوجية، حتى حرية التفكير، حيث كانت «الأفكار المحرمة»، من أكثر الخطايا خطورة.

منحت هذه المزايا ليهود أوروبا «وفيما بعد ليهود بقية البلدان» من جانب الأنظمة الحديثة أو حتى الأوروبية الاستبدادية الخالصة، على الرغم من كون الأخيرة جائرة و معادية للسامية.

لقد كان نيقولا الأول، قيصر روسيا معاديا للسامية شهيرا، وقد أصدر العديد من القوانين المعادية لليهود فى دولته، لكنه أيضا أرسى قواعد «القانون والنظام» فى روسيا، ليس فقط من خلال الشرطة السرية، لكن أيضا باستخدام الشرطة النظامية والحرس الوطنى، مما أدى إلى صعوبة قتل اليهود بأوامر من حاخاماتهم، فى الوقت الذى كان ذلك يتم بيسر تام فى بولندا قبل عام ١٧٥٩، ومع ذلك فإن التاريخ اليهودى «الرسمى» يدينه لكلا السببين معاداته للسامية وإساءة للنظام.

على سبيل المثال فى أواخر ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أمر الحاخام الأعظم Tzadik لقرية يهودية صغيرة فى أوكرانيا، بقتل مهرطق يهودى، بإلقائه فى الماء المغلى لحمامات القرية، وتصف مصادر يهودية معاصرة لهذا الزمن، بحالة من الذعر والدهشة، كيف أن الرشوة لم تعد وحدها غير المؤثرة، لكن كيف أن المجرمين والأتقياء كانوا يعاقبون بشدة على حد سواء. أيضا نظام ميترنيخ فى النمسا ما قبل عام ١٨٤٨، وإن كان نظاما مشهورا بسوء سمعته، بسبب رجعيته الشديدة وعداوته لليهود، إلا أنه لم يسمح بتسميم الحاخامات اليهود الليبراليين. وخلال عام ١٨٤٨ عندما تعرضت قوة النظام إلى ضعف

(*) اليديسية أو اليدية لهجة من لهجات اللغة الألمانية تكثر فيها المفردات العبرية والسلافية والألمانية، وقد نشأت فى ألمانيا وأصبحت لغة شائعة بين يهود أوروبا الشرقية، وتستخدم فى المدارس التلمودية فى إسرائيل (المترجمة).

وقتي، كان أول ما قام به زعماء المجتمع اليهودي في مدينة ليبرغ الغاليسية «لفوف حاليا» الذين اكتسبوا أخيرا حريتهم، أن سمموا الحاخام الليبرالي للمدينة، ذلك الحاخام الذي جلبته جماعة يهودية صغيرة، من غير أرثوذكس، من ألمانيا ليشرف على شئونها الدينية، وذلك بسبب أخطر بدعة، التي أيدت إجراء احتفال البارميتسفاه(*)، ذلك الاحتفال الذي تم ابتداعه في عصرنا الحالي.

التحرير من الداخل

لهذا فإن مصطلح «يهودي» قد اكتسب في المائة والخمسين عاما الأخيرة معنى مزدوجا، مما نتج عنه تشوش عظيم في الفهم لدى بعض أصحاب النيات الحسنة، خاصة في الدول الناطقة بالإنجليزية الذين يتصورون أن اليهود الذين يتعاملون معهم اجتماعيا هم «ممثلون» لليهود عامة.

لقد تم تحرير اليهود من دول أوروبا الشرقية، كما في العالم العربي، من استبداد دينهم ومجتمعاتهم من خلال قوى خارجية، وفي وقت متأخر جدا، وفي ظل ظروف غير مواتية لحدوث تغير اجتماعي ذاتي وحقيقي، لهذا فإنه تم الاحتفاظ في معظم الحالات وبصفة خاصة في إسرائيل بالمفهوم القديم للمجتمع، كما تم الاحتفاظ بنفس الأيديولوجيا، خاصة الموجهة ضد غير اليهود، مع نفس المفهوم الزائف تماما للتاريخ. وينطبق هذا أيضا، حتى على بعض اليهود الذين انضموا إلى حركات «تقدمية» أو يسارية. إن فحص الأحزاب الراديكالية والاشتراكية والشيوعية، يعرض أمثلة عديدة عن شوفينيين وعرقيين يهود مقنعين، انضموا إلى هذه الأحزاب فقط من أجل أسباب متعلقة «بالمصلحة اليهودية»، وفي إسرائيل يؤيدون التمييز الموجه ضد الأغيار.

ولا نحتاج سوى إلى مراجعة هذا الكم من أعمال الاشتراكيين اليهود، الذين نجحوا في الكتابة عن الكيبوتس(*) دون مشقة ذكر أنها أيضا مؤسسة عنصرية يتم فيها الإبعاد الديني للمواطنين الإسرائيليين من غير اليهود، لنرى أن

(*)الميتسفاه: وصايا دينية عددها ٦١٣ وصية، أما البارميتسفاه فهي الوصايا المذكورة بصورة احتفالية وتلقى على الذكور والإناث في سن ١٢ و ١٣ سنة على التوالي، وهي تحمل المسئولية الدينية، وهما من أهم الاحتفالات حاليا لدى اليهود الأمريكيين. (المترجمة).

(*)الكيبوتس: مزرعة جماعية يهودية عرقية. (المترجمة).

الظاهرة التى نشير إليها ليست بأى حال ظاهرة غير مألوفة[١].

إذا تجنبنا استخدام الشعارات المنطلقة من جهل أو نفاق، فإننا نرى أن كلمة «يهود» ومتشابهاتها تصف نوعين مختلفين، بل وزيضا متناقضين من الجماعات الاجتماعية، لكن بسبب سياسات إسرائيل الحالية، فإن القاسم المشترك بينهما سرعان ما يختفى، فمن جهة هناك المعنى التقليدى والاستبدادى الذى قدم سابقا، ومن الجهة الأخرى هناك يهود «بحكم الميلاد» أضفوا صفة ذاتية على الأفكار المعقدة التى أطلق عليها كارل بوبر «المجتمع المفتوح»، وهناك أيضا بعض، خاصة فى أمريكا، من الذين لم يضفوا تلك الصفة الذاتية على هذه الأفكار، لكنهم حاولوا أن يبدو بمظهر المؤيدين لها.

من المهم أن نذكر هنا أن جميع ما يفترض أنه «السمات اليهودية» التى أعنى بها تلك الخصائص المميزة التى يلصقها بشكل زائف المثقفون المزعومون فى الغرب باليهود، هى سمات حديثة غير معروفة تماما خلال معظم التاريخ اليهودى، ولم تظهر فقط إلا عندما بدأ المجتمع اليهودى الاستبدادى فى فقدان سلطته. ولنأخذ على سبيل المثال، روح الدعابة الشهيرة فقط نادرة الوجود إلى أقصى درجة فى الأدب العبرى قبل القرن التاسع عشر.

توجد فقط خلال فترات قليلة، وفى دول كانت الطبقات العليا من اليهود متحررة نسبيا من الرباط الحاخامى، مثل إيطاليا بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر، وأسبانيا الإسلامية، لكنها أيضا محرمة تماما فى الدين اليهودى، ما عدا النكات ذات المعنى المعادى للديانات الأخرى.

ولم تضف أبدا صفة ذاتية على هجاء الحاخامات وقيادات المجتمع اليهودى، ولو بقدر ضئيل كما حدث فى المسيحية اللاتينية. ولم يكن هناك أعمال كوميدية يهودية، تماما كما لم تكن هناك ملهاة فى إسبرطة القديمة، ولنفس الأسباب[٢].

أو لنأخذ سمة حب المعرفة لدى اليهودى على سبيل المثال، ما عدا المعرفة

(١) كتبت هذا، على الرغم من كونى لا أؤمن بالاشتراكية، لكننى أحترم وأقدر من لديه مبادىء قد أختلف معها، إذا بذل جهدا مخلصا فى الصدق مع مبادئه، فلا يوجد ما هو جدير بالازدراء أكثر من الاستخدام غير الأمين للمبادىء الكونية، سواء كانت صادقة أم زائفة من أجل أهداف أنانية تخدم الفرد أو حتى أسوأ من ذلك الجماعة.

(٢) فى الواقع فإن كثيرا من مظاهر اليهودية الأرثوذكسية قد استقت بشكل واضح من إسبارطة، من خلال التأثير السياسى المهلك لأفلاطون، فى إطار هذا الموضوع، يمكن مراجعة التعليقات الرائعة لموسى هاداس فى كتابه Hellenistic Culture Fusion and Diffusion, Columbia University Press 1959

الدينية الخالصة، التى كانت فى حد ذاتها فى حالة من التدني الشديد، كانت الكراهية والازدراء التام لجميع أشكال المعرفة «باستثناء التلمود والصوفية اليهودية»، هى المهيمنة على يهود أوروبا «وبدرجة أقل على يهود البلدان العربية» قبل حوالى عام ١٧٨٠، ولم تكن فقط أسفار العهد القديم، وجميع الأشعار العبرية غير المتعلقة بالطقوس الدينية، ومعظم كتب الفلسفة اليهودية، غير مقروءة، بل كان يتم تحريم حتى قراءة أو ذكر عناوينها، من قبل الحاخامات.

وفى معظم الأحوال كانت دراسة جميع اللغات محرمة تماما، كما كانت أيضا محرمة دراسة الرياضيات والعلوم والجغرافيا[1] والتاريخ، حتى التاريخ اليهودى، كانت مجهولة.

الروح النقدية التى من المفترض أنها من السمات المميزة جدا لليهود، كانت غائبة تماما، ولم يكن هناك شىء أكثر مدعاة للتحريم الشديد، بل والاضطهاد المخيف، أكثر من الابتكار حتى ولو كان فى غاية البساطة، أو أكثر أشكال النقد براءة. لقد كان عالما غارقا فى أدنى صور الخرافة والجهل والتعصب، عالم كان أول تقديم له لكتاب جغرافيا بالعبرية «منشور فى روسيا عام ١٨٠٣» ما يدعو للقول من قبل عدد كبير من أعظم الحاخامات، بأن ما جاء فيه من وجود القارة الأمريكية «مستحيل».

ما بين هذا العالم وما يؤخذ عادة فى الغرب على أنه السمات المميزة لليهود، لا يوجد قاسم مشترك سوى الاسم الخطأ.

وعلى أية حال، فإن عددا كبيرا من يهود اليوم يشعرون بحنين إلى هذا العالم، جنتهم المفقودة، المجتمع المغلق المريح الذى لم يكونوا فيه محررين بقدر ما كانوا مطرودين.

جزء كبير من أفراد الحركة الصهيونية، أرادوا على الدوام إحياء هذا العالم،

---

(١) بما فى ذلك جغرافيا فلسطين وبالتأكيد موقعها، وهذا يظهر من خلال «قبلة» جميع الكنس اليهودية فى دول مثل بولندا وروسيا: حيث يفترض أن يصلى اليهود باتجاه القدس، بل إن اليهود الأوروبيين الذين كانت لديهم فكرة غامضة عن موقع القدس، افترضوا أنها دائما باتجاه الشمال، فى حين كانت فى الواقع أقرب قليلا من الجنوب.

وقد حظى هذا الجزء باليد الطولى. إن العديد من المحفزات الكامنة ور اء السياسات الإسرائيلية، تلك تثير الحيرة لدى «أصدقاء إسرائيل» الغربيين المشوشين بشدة، تصبح قابلة للتفسير بشكل و اضح بمجرد أن ترى على أنها ببساطة رد فعل، رد فعل بالمعنى السياسى، لقد حاول اليهود العودة إلى المجتمع المغلق الذى كان لهم فى القرنين الأخيرين، عودة قسرية «ومن نواحى عدة، مبتكرة ولهذا وهمية» نحو هذا المجتمع.

معوقات الإدراك

تاريخيا يمكن التدليل على أن المجتمع المغلق لا يهتم بوصف ذاته، لأن أى وصف بلاشك يعد جزئيا - شكلا من أشكال التحليل النقدى الذى قد يشجع التفكير النقدى فى «الأفكار المحرمة»، وكلما أصبح المجتمع مفتوحا، كان أكثر اهتماما بتأمل ذاته، أولا بشكل وصفى ثم نقدى، تجاه حالته الراهنة، ومن ثم ماضيه. لكن ماذا يحدث عندما ترغب زمرة من المفكرين فى جذب المجتمع، الذى انفتح بالفعل إلى حد ما، إلى حالته السابقة الاستبدادية والمغلقة؟ وقتها تصبح وسائل التقدم السابقة، الفلسفة والعلوم والتاريخ، خاصة علم الاجتماع - أكثر الأدوات فاعلية فى «خيانة المثقفين»، عندما يتم تحريفها حتى تلائم استخدامها كوسائل للخداع، وفى ذلك السياق تهوى نحو الدرك الأسفل.

لقد كان «لليهودية الكلاسيكية»[1] اهتمام ضئيل فى وصف أو تفسير نفسها أمام أعضاء مجتمعها نفسه، سواء الدارسين منهم «للدراسات التمودية» أم الجهلة[2]. إنه لذو معنى مهم، أن تكون عملية التأريخ اليهودية، حتى بأسلوب التحليل الأكثر جفافا قد انقطعت تماما منذ عصر جوزيف فلافيوس «نهاية القرن الأول، حتى عصر النهضة، عندما تم إحياءها لفترة قصيرة فى إيطاليا وبلدان أخرى كان فيها اليهود تحت تأثير إيطالى قوى، وما يثير الانتباه

(١) خلال هذا الفصل استخدمت مصطلح «اليهودية الكلاسيكية» للإشارة إلى اليهودية الحاخامية التى نشأت حوالى عام ٨٠٠ ميلادية، واستمرت حتى نهاية القرن الثامن عشر، لقد تجنبت مصطلح «يهودية القرون الوسطى»، الذى يستخدمه العديد من الكتاب، لنفس الغرض، لأنه فى رأيى يحمل دلالات غير منصفة.

(٢) كتابات اليهود الهيلينيين مثل فيلواسكندرى، تمثل استثناء، لقد كتبت قبل سيطرة اليهودية الكلاسيكية وهيمنتها، وحجبت تلك الكتابات فيما بعد عن اليهود، ولم تنج إلا بفضل الرهبان المسيحيين الذين وجدوها ملائمة لأفكارهم.

أيضا، أن الحاخامات خافوا من التاريخ اليهودى أكثر من خوفهم من التاريخ العام.

وأول كتاب حديث فى التاريخ نشر بالعبرية «فى القرن السادس عشر» كان عنوانه «تاريخ ملوك فرنسا وملوك بنى عثمان»، وقد تبعته بعض الكتب التاريخية التى تتناول فقط ما تعرض له اليهود من اضطهاد. وأول كتاب فى التاريخ اليهودى نفسه[١٢] «يخص العصور القديمة» تم منعه فورا وحظر انتشاره من قبل أعلى السلطات الحاخامية، ولم يعاود الظهور مرة أخرى قبل القرن التاسع عشر، إضافة إلى ذلك فإن السلطات الحاخامية لأوروبا الشرقية أصدرت فيما بعد، مرسوما بمنع جميع الدراسات غير التلمودية، حتى تلك التى لا تحمل شيئا بعينه يمكن أن يستحق التحريم الدينى، لأنها تنتهك حرمة الوقت الذى يجب أن يوظف، إما لجلب المال - الذى يجب أن يستخدم فى ترسيخ الدراسات التلمودية - أو فى دراسة التلمود. والمنفذ الوحيد الذى يمكن لليهودى الورع أن يطلع على هذه الدراسات غير التلمودية، هى الوقت الاضطرارى الذى يقضيه فى المرحاض، ففى هذا المكان غير الطاهر لم يكن مسموحا بقراءة الدراسات المقدسة، لكن كان مرخصا بقراءة كتب التاريخ شريطة أن تكون بالعبرية، وعلمانية تماما، أى أنها يجب أن

تكون على وجه الحصر مكرسة لدراسات غير يهودية، يمكن تصور تلك الأقلية من يهود هذا العصر الذين وقعوا بلاشك تحت غواية الشيطان، واهتموا بقراءة تاريخ ملوك فرنسا، وكانوا يبررون لجيرانهم أسباب بقائهم فى المرحاض لفترات طويلة، أنهم يعانون إمساكا على الدوام، وكنتيجة لهذا، فإنه منذ قرنين فقط كانت الغالبية العظمى من اليهود تعيش فى حالة كلية من الجهل، ليس فقط فيما يخص وجود القارة الأمريكية، لكن أيضا فيما يخص تاريخهم، ووضع اليهود فى عصرهم، وقد كانوا قانعين تماما بأن يظلوا كذلك.

تاريخ الاستبداد

ومع هذا، فإن هناك منطقة وحيدة لم يسمح فيها لليهود أن يبقوا منغلقين على أنفسهم حيالها، إنها منطقة الهجوم المسيحى ضد تلك النصوص

(١٢) كتاب «ميمور عينايم» الذى وضعه عزاريا دورروس الفيرارى، إيطاليا، عام ١٥٧٤

التلمودية، والأدب التلمودي خاصة تلك المعادية للمسيحية، أو المعادية بشكل عام للأغيار.

وجدير بالذكر أن هذا التحدى نشأ نسبيا فى وقت متأخر فى تاريخ العلاقات المسيحية اليهودية، بداية من القرن الثالث عشر فقط. قبل هذا الوقت هاجمت المراجع المسيحية اليهودية مستخدمة، إما ذرائع توراتية، أو ذرائع عامة. لكنها بدت شديدة الجهل بما يحويه التلمود، وكان واضحا أن الحملة المسيحية ضد التلمود جاءت نتيجة لتحول يهود ضالعين جدا فى التلمود إلى المسيحية، وكانوا فى أحيانا كثيرة منجذبين إلى تطور الفلسفة المسيحية بمظهرها الأرسطووى «وبالتالى الكونى»[1] يجب الإقرار مبدئيا بأن التلمود والأدب التلمودى - بعيدان تماما عن الطيف العام المعادى للأغيار الذى يهيمن عليهما، والذى سوف نناقشه بتفاصيله الدقيقة فى الفصل الخامس - يحوى عبارات وتعاليم شديدة العدائية موجهة بصفة خاصة إلى المسيحية كما ينص التلمود على أن عقوبة المسيحى فى الجحيم هى إغراقه فى بُراز مغلى - وهى عبارة غير مدروسة تماما من أجل تحبيب المسيحيين المخلصين فى التلمود - كما يمكن التنكير بالدمية التى يؤمر فيها اليهود بحرق علنى إذا أمكن لأى نسخة من الإنجيل، تقع بين أيديهم «هذه الوصية ليست فقط موجودة حتى

الآن، بل وتمارس أيضا. ففى الثالث والعشرين من مارس عام ١٩٨٠، أحرقت مئات النسخ من الإنجيل علانية ووسط شعائر احتفالية فى القدس تحت رعاية «يادلعاخيم» وهى منظمة دينية يهودية تلقى معونات مالية من وزارة الشئون الدينية الإسرائيلية».

وعلى أية حال، فإن هجوما ضاريا مبنيا على أسس قوية فى عدة نواحى ضد اليهودية التلمودية قد نشأ فى أوروبا منذ القرن الثالث عشر. ولا نشير هنا إلى الافتراءات الجاهلة مثل التشهير الدموى الذى انتشر من قبل الرهبان الجهلة فى مدن المقاطعات الصغيرة، لكن إلى تلك المناظرات الجدية التى دارت أمام أفضل

---

(١) أكثر الحالات شيوعا، كانت فى أسبانيا: على سبيل المثال «استخدام أسمائهم المسيحية المختارة»، اعتنق السيد ألفونسو الفالادولى المسيحية عام ١٣٢٠، وبول من سانت ماريا عام ١٣٩٠، واختير كمطران لبورغوس عام ١٤١٥، لكن هناك حالات كثيرة يمكن أن تذكر من كل بلدان أوروبا الغربية.

الجامعات الأوروبية فى هذا العصر، التى تمت بأكبر قدر ممكن من الموضوعية، يمكن أن تسمح به ظروف القرون الوسطى[1].

كيف كانت الاستجابة اليهودية؟ أو بالأحرى الحاخامية؟ كانت أبسط الاستجابات هى استخدام السلاح القديم، الرشوة، وسد الثغرات. حيث كان بالإمكان إصلاح أي شيء بالرشوة فى معظم البلدان الأوروبية، طوال الوقت.

هذه القاعدة السلوكية لم تكن أكثر وضوحا، مما كانت عليه فى روما البابوية فى عصر النهضة. إن طبعة Editio Princeps للقواعد الكاملة للشرائع التلمودية - ميشناه تواراه[*]، التى وضعها موسى بن ميمون ليست متخمة فقط بتعاليم شديدة العدائية تجاه الأغيار جميعا، بل أيضا بهجمات عدائية جلية ضد المسيحية ويسوع أيضا، الذى يضيف الكاتب كلما ذكر ا سمه. أهلك الرب الاسم الكريه. وقد نشرت هذه الطبعة دون حذف فى روما عام ١٤٨٠ تحت قيادة سيكستوس الرابع، البابا النشط جدا سياسيا، الذى كان فى حاجة ملحة ومتواصلة للمال «قبل ذلك بعدة سنوات، نشر كتاب الأتان الذهبى الذى وضعه أبوليوس دون حذف التهجمات العنيفة على الميحية، وكان ذلك فى روما أيضا»، كان أيضا البابا ألكسندر بورجيا السادس، شديد الليبرالية أيضا فيما يتعلق بهذه الأمور.

حتى خلال هذه الفترة، وقبلها كانت هناك دائما بلدان ترتفع فيها موجة من الاضطهاد لكل ما هو تلمودى، لكن هجوما ضاريا وأوسع انتشارا وأكثر

ثباتا جاء مع حركة الإصلاح الدينى والإصلاح المضاد، حثت على درجة أعلى من الأمانة الفكرية، إضافة إلى معرفة أفضل بالعبرية وسط العلماء المسيحيين. ومنذ القرن السادس عشر، ت عرضت جميع الكتابات التلمودية، بما فى ذلك التلمود نفسه لرقابة مسيحية فى عدة بلدان، وفى روسيا استمرت هذه الرقابة حتى عام ١٩١٧، فى حين كان بعض الرقباء، كما حدث فى هولندا، أكثر

(١) بالتأكيد كانت اللهجة المستخدمة والنتائج أيضا، أفضل كثيرا من تلك القضايا الجدلية التى اتهم فيها المسيحيون بالهرطقة، مثل النزاعات التيأدين فيها بيتر أبيلارد ورهبان الفرانسيسكان المتزمتين.

(*) ميشناه توراه: كتاب وضعه موسى بن ميمون، يحتوي على ترتيب وإيجاز لكل ما حواه العهد القديم من قوانين، بالإضافة إلى قوانين المشناه والجماراه. (المترجمة)

مرونة، فإن آخرين كانوا أكثر حدة، وتم حذف جميع النصوص العدائية أو تعديلها.

إن جميع الدراسات الحديثة عن اليهودية، خاصة تلك التى قام بها اليهود، قد انطلقت من هذا الصراع. وحتى اليوم مازالت تقدم أدلة واضحة عن أصلها: الخداع، المجادلات العنيفة للدفاع عنها، العدائية النشطة للسعى وراء الحقيقة. إن كل ما يطلق عليه الدراسات العبرية للديانة اليهودية، تقريبا منذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا، ما هى إلا مجادلات ضد عدو خارجى أكثر منها مناقشات داخلية.

ومن المهم أن نسجل هنا أن هذه كانت السمة السائدة للتأريخ الرسمى فى جميع المجتمعات المعلومة «ماعدا اليونان القديمة، التى هوجم مؤرخوها الليبراليون الأوائل من قبل السوفسطائيين لأنهم افتقروا إلى الروح الوطنية»، وينطبق هذا على المؤرخين الأوائل من الكاثوليك والبروتستانت، الذين جادلوا بعضهم البعض، وعلى نفس المنوال، فإن أقدم كتب التاريخ الأوروبية الأولى قد تشبعت بفكرة القومية بشكل فج وازدراء جميع الأمم الأخرى، أى جيرانهم. لكن سرعان ما يأتى وقت تصبح فيه محاولة فهم العدو الدينى أو القومى. وفى نفس الوقت انتقاد بعض المظاهر العميقة والمهمة فى تاريخ جماعة الفرد نفسه. كلا التطورين يسيران بشكل متواز، وعندما جاء مؤرخ مثل بيتر جيل، استطاع أن يضعها بشكل جيد، عندما يصبح التأريخ جدلا بلا نهاية، أكثر من استمرار للحرب بجميع الوسائل التاريخية، وقتها فقط يصبح التأريخ الإنسانى الذى يناضل للوصول للدقة والموضوعية ممكنا، وعندها يتحول إلى واحد من أكثر الأدوات إفادة للإنسانية والتربية الذاتية.

لهذا السبب أعادت الأنظمة الديكتاتورية الحديثة كتابة التاريخ أو معاقبة المؤرخين[1].

---

(١) الأمثلة الستالينية والصينية معروفة بشكل واف، ومع هذا، فإنه يستحق الذكر أن اضطهاد المؤرخين الأمناء قد بدأ مبكرا جدا فى ألمانيا. ففى عام ١٨٧٤ اعتقل د. أوالد الأستاذ فى غوتنغن لتعبيره عن آراء «غير دقيقة» فيما يخص فتوحات فريدريك الثانى، قبل مائة عام، الوضع فى إسرائيل مشابه: فقد شنت أسوأ الهجمات ضدى ليس بسبب التعبيرات العدوانية التى وظفتها فى إدانتى للصهيونية واضطهاد الفلسطينيين، لكن بسبب مقال سابق لى حول ردود اليهود فى تجارة العبيد، حيث وقعت آخر الأمثلة التى ذكرتها عام ١٨٧٠، وقد نشر المقال قبل حرب ١٩٦٧، اليوم من المستحيل نشر مثل هذا المقال.

لكن عندما يحاول المجتمع بأكمله العودة إلى الديكتاتورية، يكتب من أجله تاريخا ديكتاتورى، ليس تحت ضغط من أعلى، لكن بسبب ضغط من أسفل، الذى هو أكثر فاعلية. وهذا ما حدث فى التاريخ اليهودى، وهذا أيضا ما ألف أول عائق علينا التغلب عليه.

ميكانيزمات الدفاع

ما ميكانيزمات الدفاع الأخرى «غير الرشوة» التى وظفتها المجتمعات اليهودية، بالتعاون مع القوى الخارجية، من أجل دفع الأذى عن التلمود والأدب الدينى الآخر؟ يمكننا تصنيف عدة أساليب جميعها كان لها نتائج سياسية مهمة، انعكست على السياسات الإسرائيلية الحالية. وعلى الرغم من أنه قد يكون مضجرا أن نورد قرائن حول كل حالة ومرادفها البيجينى(*) أو الصهيونى العمالى، إلا أننى واثق من أن القراء الذين هم إلى حد ما متابعين لتفاصيل سياسات الشرق الأوسط، سوف يستطيعون بأنفسهم معرفة هذه الأشباه.

إن أول ميكانيزم سوف أناقشه هنا الاستخفاف الجرىء الذى تزامن مع حالة إذعان خارجية، وكما ذكر سابقا، فإن المقاطع التلمودية المعادية

للمسيحية أو غير اليهود[(١٦)] كان يجب أن تحذف أو تعدل، حيث كان الضغط قويا، لكن ما الذى حدث؟ إن قلة فقط من أكثر النصوص عدائية قد تم حذفها جملة من جميع النسخ المطبوعة فى أوروبا بعد منتصف القرن السادس عشر. أما فى النصوص الأخرى، فإن تعبيرات مثل «غيرى، لا يهودى، غريب، (nokhro, einoyehudi, goy) التى ظهرت فى جميع المخطوطات الأولى، إضافة إلى جميع النسخ التى نشرت فى البلدان الإسلامية - قد استبدلت بتعبيرات مثل «همجى، وثنى أو حتى كنعانى(*) أو سامرى(*)، heathen, (idolater, canannite) وهى تعبيرات يمكن أن تبرر أمام الآخرين، لكن

(١٦) فى النهاية كان يجب حذف مقاطع أخرى أيضا، مثل تلك التى تبدو عبثية من الناحية اللاهوتية «مثل قول إن الرب يصلى لنفسه، أو يقوم بالأعمال المفروضة على اليهود بدلا منهم».

(*) الكنعانى: أحد الكنعانيين وهم شعب سام سكن فلسطين وفينيقية ابتداء من عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد تقريبا. (المترجمة)

(*) السامرى: أحد أبناء مدينة السامرة بفلسطين قديما. (المترجمة)

القارىء اليهودى يدرك أنها مجرد تعبيرات لطيفة الوقع بدلا عن التعبيرات نفسها القديمة.

ومع تصاعد الهجوم، فإن الدفاع أصبح أكثر إتقانا، وأحيانا مع نتائج مأساوية باقية. خلال فترات معينة، كانت الرقابة في روسيا القيصرية أكثر صرامة، ورأت أن تلك التعبيرات اللطيفة التى

ذكرت آنفا، لها أيضا خطورتها، وعليه فإن السلطات الحاخامية استبدلتها بمصطلحات مثل «عربى»، أو مسلم» بالعبرية yishma`eli التى تعنى نفس المعنين، وأحيانا «مصرى» لأنها أدركت على نحو صحيح أن السلطات القيصرية لن تعترض على هذا النوع من الانتهاك. وفى نفس الوقت جرى توزيع قو ائم بالمحذوفات التلمودية Talmudic Omissions تداولتها الأيدى على شكل مخطوطات، يتم فيها شرح جميع التعبيرات الجديدة، وتشير إلى المحذوفات، وفى أحيانا كثيرة كانوا يطبعون إنكارا عاما قبل صفحة العنوان على كل مجلد من مجلدات الأدب التلمودى، ينص على هذا الإنكار، الذى قد يظهر على هيئة فصل أيضا، إن جميع التعبيرات العدائية فى هذا المجلد تخص فقط الوثنيين فى العصور الماضية، خاصة العصور السابقة للقرون الوسطى، أو تخص الكنعانيين الذين اندثروا منذ زمن طويل، لكنها ليست موجهة ضد الشعوب التى نعيش على أرضها، بعد الاحتلال الإنجليزي للهند، استطاع بعض الحاخامات أن يكتشفوا ذريعة الادعاء بأن أى تعبير مهين أو يحمل ازدراء يستخدمونه، إنما هو معنى فقط بالهنود، وأحيانا استخدم سكان أستراليا الأصليين، أيضا ككبش فداء باعتبارهم المقصودين من هذه التعبيرات.

ولسنا فى حاجة إلى القول إن كل هذه الأكاذيب كانت محسوبة بدقة من البداية حتى النهاية، وبعد إنشاء دولة إسرائيل، فور أن شعر الحاخامات بالأمان، فإن جميع النصوص والتعبيرات الحداثية قد أعيدت بلا تردد فى جميع النسخ الجديدة.

لأن تكلفة الطباعة باهظة، فإن جزءا كبيرا من الأدب التلمودى بما فى ذلك التلمود نفسه، تتم إعادة طباعته من النسخ القديمة، ولهذا السبب فإن الكتاب الذى ذكر آنفا المحذوفات التلمودية، قد نشر الآن فى إسرائيل بطبعة رخيصة تحت عنوان Hesronot shas، وبهذا يمكن أن تقرأ الآن بحرية، ويتم تعليم

الأطفال اليهودي فعليا[1] ، ما يجب أن يتلفظوا به عند المرور بالقرب من مقبرة يهودية من سؤال الله الرحمة، وأن يلعنوا أمهات الموتى إذا كانت المقبرة غير يهودية[2]. وكانت هذه اللعنة قد حذفت من النسخ القديمة، أو استبدلت بواحدة من التعبيرات لطيفة الوقع، بدلا من كلمة الأغيار، لكن فى الطبعة الإسرائيلية الجديدة التى وضعها الحاخام عادين ستاينزلاس «المنقحة بتفاسير عبرية وحواشى للأجزاء الأرمية من النص، حتى يتمكن أطفال المدارس من ألا يساورهم الشك فيما يجب قوله تماما»، أعيدت التعبيرات التى لا تقبل الشك مثل «الأغيار» و«الغرباء».

وهكذا فإن الحاخامات تحت تأثير ضغط خارجى، قاموا على نحو مضلل بتعديل أو حذف بعض النصوص، لكنهم لم يعدلوا الممارسات الفعلية التى تنص عليها.

إنها حقيقة يجب تذكرها، ليس فقط من قبل اليهود أنفسهم، إنه لقرون طويلة استخدم مجتمعنا الديكتاتورى القمعى، طقوسا غير إنسانية وبربرية، لتسميم عقول أفراده، ومازال يقوم بذلك.

هذه الطقوس غير الإنسانية لا يمكن أن تفسر باستمرار على أنها ردود أفعال خالصة تجاه معاداة السامية، واضطهاد اليهود، إنها سلوكيات بربرية، دون مبرر موجه ضد الإنسانية كافة.

فلنتخيل يهوديا وصل لأول مرة إلى أستراليا، ومع سنوح أول فرصة لمروره بالقرب من مقبرة تخص سكان البلاد الأصليين، يجب كسلوك فيه تعبد إلى الرب لعن أمهات الموتى المدفونين هناك.

دون مواجهة هذه الحقيقة، فإننا جميعا شركاء فى الخداع وشركاء فى جريمة تسميم أجيال الحاضر والمستقبل، مع ما سوف يجلبه هذا من نتائج.

ويستمر الخداع

لم يستمر العلماء المحدثون لليهودية فى خداعهم فقط، لكنهم فى الواقع طوروا أساليب حاخامية أفضل من القديمة، على مستوى الوقاحة والكذب. وأنا أغفل هنا التواريخ القديمة لمعاداة السامية، باعتبارها لا تستحق الاهتمام الجاد،

(١٧) تراكتان بيراخوت، ص٥٨

(١٨) لتخزى أمكم جدا، تخجل التى ولدتكم» (آرميا: ٥٠-١٢)

وسوف أعطى فقط ثلاثة أمثلة خاصة، ومثالا عاما عن تطور الأكاذيب العلمية.

في عام ١٩٦٢، نشر في القدس جزء كبير من كتاب موسى بن ميمون[١]، المذكور سابقا، يدعى كتاب المعرفة، ويحوى القواعد الأساسية للعقيدة اليهودية والعبادات، وقد نشر ثنائى اللغة «مطبوع بلغتين» مع الترجمة الإنجليزية مقابل النص العبرى[٢]. وفيه تم إعادة السياق الأصلى للنص العبرى، فجاءت الدعوة لإبادة من يكفر باليهودية بنصها الكامل: «من الواجب القضاء عليهم يدا بيد». أما فى الترجمة الإنجليزية، فإن هذه الدعوة قد خففت إلى حد ما: «من الواجب أخذ تدابير نشطة لتدميرهم، ثم بعد ذلك النص العبرى يتجه نحو تحديد أمثلة أصلية عن هؤلاء الكفرة الواجب إبادتهم: «مثل يسوع الناصرى وتلامذته، والصدوقيين[*]، وتلامذتهم[٣]، فليفنى الاسم الشرير»، ولا تظهر كلمة واحدة من هذا فى النص الإنجليزى فى الصفحة المقابلة (٧٨٩). ولا حتى المعنى الأخطر. وعلى الرغم من اتساع تداول هذا الكتاب وسط التلاميذ والقراء، خاصة فى الدول الناطقة بالإنجليزية، لا يوجد على حد علمى من احتج على هذا التضليل الجلى.

المثال الثانى يأتى من الولايات المتحدة، وأيضا من خلال ترجمة إنجليزية لكتاب وضعه موسى بن ميمون، الذى لم يقم فقط بتجميع القوانين التلمودية وتنسيقها، لكنه كان أيضا فيلسوفا، ويعد كتاب «دليل الحيارى» من أعظم الأعمال فى الفلسفة الدينية اليهودية، وهو واسع الانتشار والقراءة ومستخدم حتى اليوم، لكن للأسف بالإضافة إلى موقفه تجاه اليهود بشكل عام، والمسيحيين بصفة خاصة، فإنه كان أيضا عنصريا معاديا للسود، وفى نهاية كتابه، دليل الحيارى فى فصل فى غاية الأهمية «الكتاب الثالث الفصل الحادى

(١) نشرة «بويرتاون» القدس ووضعه موسى هيماسون، أشهر علماء اليهودية فى بريطانيا.

(٢) من المفترض أنهم طائفة الصدوقيين.

(*) الصدوقيون: طائفة دينية ترجع إلى قرون عدة قبل ظهور المسيح، لا يؤمن أصحابها بوجود العالم الآخر ولا بالشريعة التلمودية، تعاونت مع الهيلينيين ثم الرومان واختفت مع تحطم الهيكل. (المترجمة)

(٣) يسعدنى القول إنه فى ترجمة جديدة وحديثة للدليل «من مطابع جامعة شيكاغو» كلمة «سوء» تظهر، لكن المجلد ثقيل جدا وباهظ الثمن، لذا فإنه بعيد الاحتمال أن يصل إلى الأيدى «الخطأ».

والخمسين، يناقش كيف يمكن لأنواع مختلفة من البشر أن تصل إلى أعلى القيم الدينية، العبادة الحقة لله، لكن من بين هؤلاء العاجزين عن الوصول إلى هذه القيم نجد: «بعضا من الأتراك - على سبيل المثال العرق المغولي - لقبائل الرحالة فى الشمال، والسود والقبائل الرحالة فى الجنوب، وهؤلاء الذين يشبهونهم بيننا، لكن طبيعتهم مثل طبيعة الحيوان الأبكم، وهم حسب رأيى ليسوا بمستوى الكائنات الإنسانية، ومرتبتهم أدنى من مستوى الإنسان، وأعلى من مستوى القرد، لأن هيئتهم أقرب للإنسان منها إلى القرد».

والآن، ما الذى يمكن أن يقوم به الإنسان حيال مثل هذا النص الذى يعد من أهم الأعمال وأكثرها مرجعية فى اليهودية؟ قد يجابه الحقيقة وما سيترتب عليها، حاشى لله، وقد يعترف «كما فعل الكثير من علماء المسيحية، مثلا فى ظروف مشابهة» بأن عالما يهوديا شديد الأهمية قد حمل آراء متطرفة إلى أبعد حدود ضد السود، وبهذا الاعتراف يكون اتجاهه نحو مهارة تعليم الذات ما قد تعنيه الإنسانية الحقة!

أستطيع تقريبا أن أتخيل علماء اليهود فى أمريكا وهم يتشاورون بين أنفسهم فيما يجب عمله، مع كتاب يجب ترجمته بسبب قلة معرفة العبرية بين اليهود الأمريكيين، وسواء بواسطة التشاور أو حدوث إلهام فردى، فإن حلا «سعيدا» يتم الوصول إليه فى الترجمة الأمريكية الشعبية للدليل، التى أعدها فرايد لاندر، ونشرت لأول مرة عام ١٩٢٥، ومنذ هذا الوقت تعاد طباعته بنسخ متعددة، منها تلك النسخ ذات الأغلفة الورقية. فإن الكلمة العبرية kushim التى تعنى «سود» لم تترجم وظهرت بحروفها Kushites، وهى كلمة لا تعنى أى شىء على الإطلاق لهؤلاء الذين يعرفون العبرية، أو لهؤلاء الذين سوف يتكرم عليهم الحاخام بعدم إعطاء أى تفسير شفهى لها[1] إذا سألوه، وخلال

(١) هناك حقيقة إضافية يمكن الإشارة إليها فى هذا السياق، كان فى مقدور عالم يهودى مختص فى الإسلام هوبرنارد لويس «الذى درس سابقا فى لندن، وحاليا يدرس فى الولايات المتحدة» أن ينشر مقالا فى مجلة Encounter، حيث أشار إلى عدة نصوص فى الكتابات الإسلامية، هى فى رأيه كانت معادية للسود، لكن لا يرقى أى من هذه المقاطع إلى ما ذكرناه فى مقالنا، ويبدو من المستحيل اليوم، بل حتى من ثلاثين عاما مناقشة المقاطع التى ذكرناها آنفا.

كل هذه الأعوام، لم تقل كلمة واحدة تشير إلى هذا التضليل التام أو الحقائق الاجتماعية التى تبطن هذا الاستمرار، حتى خلال الإثارة التى تسببت فيها حملات مارتن لوثر كينج(*)، والتى دعمها كثير من الحاخامات، دون ذكر شخصيات يهودية أخرى بارزة، كان بعضهم بلاشك يدرك المواقف العنصرية المعادية للسود، التى تشكل جزءا من ميراثهم اليهودى.

بالتأكيد قد ينقاد الإنسان إلى الافتراض على سبيل الجدل، أن بعضا من أنصار مارتن لوثر كينج من الحاخامات كانوا إما عنصريين معادين للسود، لكنهم أبدوه لأسباب تكتيكية تخص «المصلحة اليهودية»، على أمل كسب دعم السود اليهود فى أمريكا للسياسات الإسرائيلية، أو أنهم كانوا مرائين بارعين إلى حد الفصام، قادرين على العبور بمنتهى السرعة من عنصرية خفية ممتعة إلى أبعد حدود، نحو صداقة علنية مدعية بالكفاح ضد العنصرية المعادية للسود، ثم العودة مرة أخرى إلى مواقفهم القديمة.

المثال الثالث، يأتى من خلال عمل أقل درجة من أن يصل إلى مقاصد ثقافية، لكنه لهذا أكثر شعبية، هو متع اليديشية، الذى وضعه ليوروستن، وهذا الكتاب خفيف العمق، الذى نشر لأول مرة فى الولايات المتحدة عام ١٩٦٨، وأعيد طبعه فى عدة طبعات، بما فى ذلك الطبعات الشعبية ذات الأغلفة الورقية، وهو عبارة عن سرد مع الشرح للكلمات اليديشية العسيرة، التى يكثر استخدامها مقبل اليهود، أو حتى غير اليهود فى الدول الناطقة بالإنجليزية، بالإضافة إلى تعريف مفصل وإلى حد ما تقديم أمثلة مسلية وحكايات عن استخدامات الكلمة، مع بحث أيتمولوجى عن أصل الكلمة وتاريخها يشير - على نحو صائب عموما - إلى اللغة الأصلية. نجد أن مدخل كلمة Shayqets الذى يعنى صبيا أو شابا من الأغيار، قد جاءت مبهمة بصورة استثنائية فى الكتاب، فهنا نجد أن أصل الكلمة العبرية يشير بصورة مبهمة عن معناها دون إعطاء المعنى الأساسى للكلمة العبرية الأصلية. ومع ذلك نجد تحت مدخل كلمة Shiksa وهى المؤنث من Shayqets يعطى الكاتب المعنى الأصلى للكلمة Shaqets أو ينقلها للحروف الإنجليزية Shaqets، ويعرف

(*) مارتن لوثر كينج: ١٩٢٩-١٩٦٨ زعيم زنجى أمريكى منح جائزة نوبل للسلام عام ١٩٦٤، وتم اغتياله بعد ذلك. (المترجمة)

معناها فى الأصل العبرى «مشوه أو ملطخ»، وهذا الحزب سافر يعرفه كل متحدث للعبرية، فقاموس Megiddo العبرى - الإنجليزى الحديث، المنشور فى إسرائيل، يعرف على نحو صحيح كلمة Shaqets بأنها «الحيوان غير النظيف - مخلوق كريه، مقيت، رث، شاب فاسد، شاب من الأغيار».

مثالى الأخير، الأكثر عمومية، لكن إذا جاز التعبير، أكثر صدمة من الأمثلة الأخرى. يخص موقف الحركة الحسيدية(*) تجاه غير اليهود. والحسيدية - استمرار«منحط» من الصوفية اليهودية - ومازالت حركة حية، لها مئات الآلاف من التابعين النشطين، الذين يكرسون أنفسهم بتعصب لخدمة حاخاماتهم المقدسين، وقد نال بعضهم نفوذا سياسيا كبيرا فى إسرائيل، ويوجدون ضمن زعامات معظم الأحزاب، ووسط الصفوف العليا فى الجيش.

ما إذن أفكار هذه الحركة فيما يخص غير اليهود؟ على سبيل المثال د عونا نأخذ الكتاب الشهير Hatanya، وهو كتاب أصوى يعبر عن حركة حباد، أحد أهم فروع الحسيدية، وفقا لهذا الكتاب نجد أن جميع غير اليهود مخلوقات شيطانية تماما

ليس بداخلها أى شيء طيب على الإطلاق، حتى الجنين غير اليهودى يختلف نوعيا عن الجنين اليهودى، إن الوجود الإنسانى لغير اليهود مسألة غير أساسية، حيث إن جميع المخلوقات قد خلقت فقط من أجل صالح اليهود.

هذا الكتاب متداول بشكل واسع وبطبعات لا يمكن حصرها، وأفكاره قد تم الترويج لها فى عدد كبير من محاضرات الوارث الحالى للحباد، المدعو الحاخام لوبافيتشر، م.م شنورز سوهن، الذى يقود هذه المنظمة القوية المنتشرة فى العالم من مقره الرئيسى فى نيويورك. تنتشر هذه الأفكار على نطاق واسع وسط العامة فى إسرائيل، وفى المدارس والجيش.

كما تفيد شهادة شلوميت ألونى، عضو الكنيست، فإن هذه الدعاية لحباد، قد انتشرت بصورة كبيرة قبل الاجتياح الإسرائيلى للبنان فى مارس عام ١٩٧٨، من أجل استمالة أطباء وممرضات الجيش الإسرائيلى نحو الامتناع عن

(*) الحسيدية: مشتقة من العبرية بمعنى «الورع»، وهى الآن حركة دينية صوفية يهودية، أسسها بعل شيم طوف. وتحولت مع بداية القرن التاسع عشر إلى عقيدة لغالبية يهود أوروبا الشرقية. (المترجمة)

تقديم المساعدة الطبية للجرحى الأغيار، ولم تشر هذه النصيحة النازية إلى العرب أو الفلسطينيين بصفة محددة، لكنها ببساطة أشارت إلى «الأغيار» أو الـ «غوييم».

رئيس وزراء إسرائيل السابق شازار، كان نصيرا متحمسا للحباد، وغيره من كبار السياسيين الأمريكيين والإسرائيليين، وعلى رأسهم رئيس الوزراء مناحيم بيغن ونائب الرئيس الأمريكي مونديل، كانوا يدعمونها ويتوددون إليها علانية، على الرغم من عدم الشعبية التي يحظى بها الحاخام لوبا فيتشر، ففي إسرائيل يتم انتقاده بصورة واسعة لرفضه المجيء إلى الأرض المقدسة حتى ولو للزيارة، وبقائه في نيويورك لأسباب ميسيائية مبهمة، في الوقت الذي فيه تعرف على نطاق واسع في نيويورك آراؤه العنصرية المعادية للسود.

إن حصول حباد على الرغم من مصاعبها الفعلية، هذا التأييد العلني من قبل بعض الرموز السياسية الكبرى في إسرائيل، يعود إلى المعالجة المضللة والمخادعة من قبل، تقريبا جميع المفكرين والمثقفين الذين كتبوا عن الحركة الحسيدية وفروعها «حباد»، وينطبق هذا على من كتبوا عنها بصفة خاصة بالإنجليزية، حيث يتكتمون على الدلائل الساخرة في النصوص الحسيدية القديمة، إضافة إلى المعاني السياسية المتخمة التي نتجت عنها، والتي تبرز بوضوح أمام القارىء العادي للصحافة الإسرائيلية العبرية، من خلال تصريحات لوبا فيتشر، وغيره من الزعامات الحسيدية شديدة التعطش للدماء والحاضة على تعاليم معادية للعرب.

أحد أبرز الأمثلة في هذه الحالة، والمثال الحي على قوة الخداع، كان مارتن بوبر، الذي تمجد أعماله المتعددة الحركة الحسيدية بأكملها «بما في ذلك الحباد» دون أن يشير أبدا إلى تعاليم الحسيدية التي تخص غير اليهود. وتصبح جريمة الخداع أعظم عندما نرى حقيقة تمجيد بوبر للحسيدية التي نشرت لأول مرة في ألمانيا خلال فترة صعود القومية الألمانية وتعاظم ارتقاء النازية، ففي الوقت الذي يعارض فيه ظاهريا بوبر النازية، نراه يمجد تعاليم حركة تدعو لأفكار عدائية ضد غير اليهود لم تكن تختلف عن تعاليم النازية ضد اليهود.

قد يجادل المرء طبعا بأن اليهود الحسيديين منذ سبعين أو خمسين عاما مضت كانوا ضحايا ، «والكذب الأبيض» لصالح الضحية لها مبررها، لكن

نتائج الخداع لا تحصى، ولا يمكن التنبؤ بها، لقد ترجمت أعمال بوبر إلى العبرية، وقد أصبحت عنصرا قويا فى التعليم العبرى فى إسرائيل، وقد أعلت بشكل كبير حالة التعطش للدماء القوية لدى زعماء الحسيدية، ولهذا أصبحت عاملا مهما فى ارتفاع الشوفينية الإسرآئيلية وكراهية غير اليهود كافة. وإذا فكرنا بهذه الأعداد الكبيرة من البشر الذين ماتوا متأثرين بجراحهم، لأن ممرضى الجيش الإسرائيلى المتأثرين بالدعاية الحسيدية، رفضوا مداواتهم، فإن مسئولية كبيرة تقع على رأس مارتن بوبر. ويجب أن أشير هنا إلى أنه فى تملقه للحسيدية قد تفوق إلى حد بعيد على بقية العلماء والمثقفين اليهود، خاصة هؤلاء الذين كتبوا بالعبرية «أو رسميا باليديشية سابقا» أو حتى بلغات أوروبية، لكنها خالصة للجمهور اليهودى، ففى الأمور المتعلقة بالمصلحة اليهودية الداخلية، كان هناك ذات مرة قدر كبير من النقد العادل لحركة الحسيدية، كراهيتهم للنساء Mysogynism التى كانت أكثر تطرفا من هذه الشائعة لدى جميع اليهود الأرثوذكس، انغماسهم فى شرب الكحول، إعجابهم الذى يقارب العبادة بحاخاماتهم المقدسين، الذين كانوا يغتصبون أموالهم، والخرافات المتعددة التى كانت تميزهم، إضافة إلى سمات سلبية أخرى كانت قد لوحظت بشكل خطير وحاسم وقتها. لكن أفكار بوبر العاطفية والخيالية الكاذبة هى التى كسبت المعركة اليوم، خاصة فى الولايات المتحدة وإسرائيل، لأنها جاءت تحمل نفس نغمة الإعجاب الاستبدادى بكل ما هو «يهودى أصيل»، ولأن بعض الدوائر اليهودية «اليسارية» التى كان لبوبر تأثير كبير عليها بشكل خاص، قد تبنت موقفه.

لم يكن بوبر وحده فى هذا المجال، على الرغم من أنه فى رأيى كان الأسوأ إلى أبعد حد، سواء فى الشر الذى روج له، أم فى التأثير الذى خلفه وراءه، هناك أيضا عالم اجتماع وعالم الدراسات التوراتية، ذو النفوذ الكبير، يحزقيل كاوفمان، الذى أيد الإبادة الجماعية على غرار النموذج الموجود فى سفر يوشع، والفيلسوف المثالى المذهب هوجو شموئيل بيرغمان، الذى أيد منذ زمن بعيد يعود إلى ١٩١٤- ١٩١٥، ترحيل جميع الفلسطينيين إلى العراق، وكثيرا غيرهم كانوا جميعا أصحاب مظاهر «حمائية»، لكنهم وظفوا مبادىء يمكن التلاعب بها بأكثر أساليب معاداة العرب تطرفا، جميعهم كانت لديهم ميول

نحو هذا التصوف الدينى، الذى شجعهم على التضليل. وجميعهم بدوا وكأنهم أشخاص مهذبون متحضرون، حتى عندما دافعوا عن الترحيل، والعنصرية، والإبادة الجماعية، بدوا وكأنهم لا يقدرون حتى على إيذاء ذبابة، ولهذا السبب فإن تأثير أكاذيبهم كان أعظم.

لذلك علينا أن نناضل ضد تمجيد الإنسانية، التى نادى بها، ليس فقط الحاخامات، لكن هؤلاء الذين يفترض أنهم كانوا أعظم وأكثر علماء اليهودية تأثيرا ونفوذا، علينا أن نناضل أيضا ضد هؤلاء الورثة المحدثين للأنبياء المزيفين، ورجال الدين المدعين، علينا أن نردد، حتى فى وجه ما هو تقريبا الرأى الإجماعى داخل إسرائيل ووسط الغالبية العظمى من اليهود فى دول مثل الولايات المتحدة، تحذير لوكرتيوس الذى جاء ضد أن تحيط بأحكام الإنسان مؤثرات ناتجة عن القصائد الخطابية للزعماء الدينيين. إلى مثل هذه الدرجة من الشر يمكن أن يقود الدين الإنسان، إن الدين ليس دوما - كما يقول ماركس - أفيون الشعوب، لكنه يمكن أن يكون كذلك أحيانا، عندما يستخدم بهذه الوسيلة من خلال المراوغة، وتشويه الحقائق الأساسية، لذا فإن العلماء والمثقفين الذين يقومون بهذه المهمة يصبحون أشبه بمهربى الأفيون.

يمكننا أن نخرج من هذا بتحليل آخر أكثر عمومية حول الوسائل الأكثر حضا وفاعلية ورعبا فى الإكراه على ارتكاب الشر، أن يغش الإنسان ويخادع، وتظل يداه نظيفة تماما من العنف وإفساد شعوب كاملة، ودفعها نحو الاضطهاد والقتل.

لهذا لم يعد هناك أي شك فى أن أفظع جرائم الاضطهاد فى الضفة الغربية قد حض عليها التعصب الدينى اليهودي، قد يفترض الغالبية أن أسوأ أشكال الديكتاتورية هى تلك التى تنطوى على إكراه بدنى، وسوف يستشهدون بالصورة المتخيلة للنظام الاستبدادى فى رواية جورج أورويل ١٩٨٤، لكن يبدو بالنسبة لى أن هذه النظرة الشائعة خاطئة إلى حد كبير، وأن حدس إسحق أسيموف، الذى وضعه فى قصص الخيال العلمى التى كتبها، كانت أسوأ أشكال الظلم والاضطهاد، فدائما يضفى عليها صفة ذاتية، هى أكثر صدقا من وصف مخاطر الطبيعة الإنسانية.

فعلى عكس مثقفى ستالين أصحاب القلنسوات الصوفية، فإن الحاخامات

وحتى العلماء الذين هاجمناهم هنا، ومعهم الجماهير الكاملة من متوسطى الثقافة الصامتين مثل الكتاب والصحفيين والشخصيات العامة «الذين يكذبون ويخادعون أكثر من غيرهم» أولئك لا يواجهون خطر الموت أو معسكرات الاعتقال، بل فقط الضغط الاجتماعى، إنهم يكذبون بداعى الوطنية، لأنهم يعتقدون أن من واجبهم أن يكذبوا من أجل تحقيق ما يتصورون أنه «مصلحة اليهود».

إنهم كاذبون وطنيون، وهذه الوطنية هى نفسها التى دفعتهم للصمت عندما يشهدون الاضطهاد والتفرقة العنصرية ضد الفلسطينيين.

إننا أيضا نواجه فى الوقت الحالى نوعا آخر من الجماعات المخلصة، لكنها جماعة جاءت من خارجها، وهى أحيانا أكثر إيذاء، فالعديد من غير اليهود ربما فى ذلك رجال الدين المسيحى وبعض عوام المتدينين، إضافة إلى بعض الماركسيين فى جميع الجماعات الماركسية يحملون رأيا غريبا، يرى أن الطريقة الوحيدة للتكفير عن الاضطهاد الذى تعرض له اليهود، هو بعدم الحديث عن أعمال الشر التى يمارسها اليهود، بل وبالمشاركة فى «الأكاذيب البيضاء» حولهم. كما أن الاتهام الفج بمعاداة السامية «أو حتى بالنسبة ليهود كراهية النفس» ضد أى شخص يحتج على التمييز العنصرى ضد الفلسطينيين أو أي شخص يشير إلى أى حقيقة حول الدين اليهودى أو ماضى اليهود «تتعارض مع النسخة المرخصة» تواجه بكثير من العدائية من أصدقاء اليهود غير اليهود، أكثر من اليهود أنفسهم. إنه وجود وتأثير عظيم لهذه الجماعات فى جميع الدول الغربية، خاصة فى الولايات المتحدة «مثل الدول الأخرى الناطقة بالإنجليزية» التى سمحت للحاخامات وعلماء اليهودية، بترويج أكاذيبهم، ليس فقط دون أدنى مقاومة ولكن مع عون كبير أيضاً.

فى الواقع، لقد استبدل العديد من المعادين للستالينية وثنهم بوثن آخر، فقد مالوا إلى دعم العنصرية اليهودية والتعصب بحرارة متقدة وعدم أمانة، أكثر من الذى وجد بين أخلص الستاليين فى الماضى وعلى الرغم من أن هذه الظاهرة من التأييد الأعمى و«الستالينى» لأى إثم طالما أنه يهودى، قد تعززت بصفة خاصة منذ عام ١٩٤٥، عندما أصبحت حقيقة إبادة اليهود الأوروبيين معروفة، إلا أنه من الخطأ أن نفترض أنها جاءت منذ ذلك الوقت فقط، بل على العكس،

إن الأمر يعود إلى زمن أبعد كثيراً، خاصة فى الدوائر الديمقراطية الاشتراكية، لقد كشف موسى هين، المعروف بشكل كبير ويحظى بالاحترام، كأحد أوائل الاشتراكيين فى ألمانيا، كنعصرى يهودى متطرف، عندما نشرت آراؤه، فيما بعد حول «العرق اليهودى النقى» عام ١٨٦٦، ولم تكن معروفة من قبل، كما لم تكن مختلفة عن الهراء الذى جاءت به فكرة «العرق الآرى النقى» لكن الاشتراكيين الألمان الذين ناضلوا ضد العنصرية الألمانية، حافظوا على صمتهم حيال هذه العنصرية اليهودية، وفى عام ١٩٤٤ خلال الصراع الفعلى ضد هتلر، وافق حزب العمال البريطانى على خطة من أجل ترحيل الفلسطينيين عن فلسطين، تلك الخطة الشبيهة بخطط هتلر المبكرة (نحو عام ١٩٤١) تجاه اليهود وتمت الموافقة على هذه الخطة تحت ضغط من الأعضاء اليهود فى زعامة الحزب، العديد من الذين عرضوا موقفاً قوياً داعماً «نسب وقربى» لكل سياسة مارستها إسرائيل أكثر مما أظهر المحافظون تأييدهم لأيان سميث.

ولكن المحظورات الستالينية فى اليسار البريطانى كانت أقوى من اليمين، ولم يكن هناك فعلياً أى نقاش عندما أيد حزب العمل حكومة بيجين، وفى الولايات المتحدة ظهرت مواقف مشابهة، ومرة أخرى كان الليبراليون الأمريكيون هم الأسوأ، وليس هذا هو الموضع المناسب لشرح جميع النتائج السياسية لهذه القضية، ولكن يجب أن نواجه الحقيقة، ففى صراعنا ضد عنصرية وتعصب الدين اليهودى، فإن أخطر أعدائنا لن يكونوا فقط العنصريين اليهود (من يستخدموا العنصرية) ولكن أيضاً هؤلاء غير اليهود الذين هم فى مناطق أخرى معروفون بشكل زائف فى تصورى، على أنهم «تقدميون».

الفصل الثالث:
الأرثوذكسية والتأويل

هذا الفصل مخصص نحو المزيد من الوصف التفصيلي للبنية اللاهوتية الشرعية لليهودية الكلاسيكية[1] ومن ذلك فإنه قبل الشروع في هذا الوصف، من الضروري أن نبدد على الأقل بعضاً من الكثير من المعتقدات الخاطئة المنشورة تقريباً في جميع اللغات الأجنبية (غير اليهودية) التي تحدثت عن اليهودية، خاصة هذه التي تروج لعبارت شائعة اليوم مثل «تعاليم المسيحية ـ اليهودية» أو «القيم المتشاركة في الديانات التوحيدية».

بسبب ضيق المساحة، ينبغي على فقط أن اتناول بالتفصيل أهم هذه الأوهام الشائعة، ذلك أن الدين اليهودي هو وكان دوماً ديناً توحيدياً، اليوم وكما يعلم الكثير من علماء التوراة ومن خلال القراءة المتأنية لأجزاء العهد القديم يمكن أن يكشف بسهولة أن هذه الرؤية اللاتاريخية خاطئة تماماً، ففي العديد إن لم يكن في كل أسفار العهد القديم يمكن التعرف بوضوح على وجود قدرة الآلهة الآخرين، فنجد أن يهوه (Jehovah) الرب الأكثر قوة[2] هو أيضاً شديد الغيرة من قرنائه من الآلهة ويحرم عباده من عبادتهم[3] وفقط مؤخراً جداً رفض وجودجميع الآلهة غير يهوه، في الإنجيل، ولدى بعض من الأنبياء المتأخرين[4].

وما يعنينا هنا، على أية حال ليس اليهودية التوراتية ولكن الكلاسيكية، ومن الجلي وإن كان أقل وعياً أن الأخيرة كانت خلال القرون الماضية في معظمها

(١) ملاحظة المحرر كما ذكر في الهامش العاشر من الفصل الأول، يستخدم الكاتب مصطلح «اليهودية الكلاسيكية» للإشارة إلى اليهودية الحاخامية في الفترة من ٨٠٠ بعد الميلاد، وحتى نهاية القرن الثامن عشر، وتتوافق هذه الفترة مع القرون الوسطى اليهودية، لأن أوضاع القرون الوسطى استمرت بالنسبة لمعظم المجتمعات اليهودية فترة أطول مما عرفته شعوب أوروبا الغربية، أي حتى فترة الثورة الفرنسية ولذا ما يطلق عليه الكاتب تسمية «اليهودية الكلاسيكية» يمكن اعتباره «يهودية القرون الوسطى».

(٢) الخروج (١١ـ١٢).

(٣) نفس المصدر (٢٠ـ٣ـ٦).

(٤) أرميا (١٠) تتردد نفس النغمة بعد ذلك في أشعيا ،راجع أشعيا (٤٤).

بعيدة عن التوحيد الخالص، ويمكن أن يقال نفس الشيء حول التعاليم الحقة المهيمنة اليوم على اليهودية الأرثوذكسية، التي هي استمرار مباشر لليهودية الكلاسيكية.

لقد جاء اضمحلال التوحيد من خلال انتشار الصوفية اليهودية (القبالاه) التي تطورت خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وحازت على نصر ساحق تقريباً، في نهاية القرن السادس عشر من الهيمنة على جميع الأوساط اليهودية وحركة التنوير اليهودية التي نشأت بسبب أزمة اليهودية الكلاسيكية، كان عليها أن تكافح ضد تأثير هذه الحركة الصوفية، أكثر مما كان عليها أن تكافح ضد أي فكر آخر، ولكن في اليهودية الأرثوذكسية الحديثة، خاصة وسط الحاخامات، ظل تأثير حركة القابالاه الصوفية هو الغالب[1] على سبيل المثال فإن حركة Gush Emunim غوش إيمونيم، قد انتشرت إلى حد كبير بسبب تأثير أفكار القابالاه.

إن معرفة وفهم هذه الأفكار يعد أمراً مهماً لسببين، الأول، أننا دون هذه المعرفة لن يمكننا أن نفهم المعتقدات الحقيقية لليهودية في نهاية عصرها الكلاسيكي.

ثانياً: أن هذه الأفكار تلعب دوراً سياسياً بارزاً في الوقت الحالي ونظراً لأنها بشكل ما جزء من منظومة المعتقدات الواضحة لعديد من الزعماء السياسيين المتدينين بما في ذلك معظم قيادات غوش إيمونيم، وأيضاً لها تأثير غير مباشر على العديد من القيادات الصهيونية في كل الأحزاب، بما في ذلك اليسار الصهيوني.

طبقاً إلى تعاليم القابالاه، فإن الكون لا يحكمه فقط إله واحد ولكن عدد من الآلهة، لهم صفات وتأثيرات متنوعة تنبثق من علة أولى مبهمة، وإذا أقصينا عدة تفاصيل جانباً، نستطيع تلخيص هذه المنظومة كالتالي: من العلة

(١) فكر حركة القابلاة ينحصر بالتأكيد علي فئة قليلة وقد حصرت دراستها التفصيلية في قلة من العلماء، وخاصة في أوروبا ما بعد عام ١٧٥٠، اتخذت إجراءات مشددة للحفاظ على سريتها، ومنع دراستها إلا في جانب علماء ناضجين وتحت مراقبة حازمة، ولم تكن لدى الجماهير اليهودية غي المتعلمة في أوروبا الشرقية أي معرفة حقيقية بهذه النظرية، ولكن القبالاة تسللت إليهم على شكل خرافات وممارسات سحرية.

الأولى، هناك إله ذكر يسمى «الحكمة» أو «الأب» ثم آلهة أنثوية تسمى «المعرفة» أو «الأم» وقد انبثقا من العلة الأولى. ثم انبثق عن زواج الاثنين زوج من الآلهة الأصغر: «الابن» ويسمى بأسماء كثيرة أخرى مثل «الوجه الصغير» أو «المقدس المبارك» والابنة، وأيضاً تسمى السيدة «أو matronit وهى كلمة مشتقة من اللاتينية»، و«شخينة» أو «الملكة».. وهكذا هذان الإلهان الأصغر يجب أن يتحدا، ولكن اتحادهما يمنع بسبب مجاراتهما للشيطان، الذى هو فى هذه المنظومة كيان هام جدا ومستقل.

الخلق بدأ فى الحدوث من قبل العلة الأولى من أجل السماح لها بأن يتحدا، ولكن بسبب السقوط أصبحوا أكثر عدم اتحادا من ذى قبل، وبالتأكيد فإن الشيطان قد تدبر أمره للتقرب من الابنة المقدسة بل إنه اغتصبها «سواء رمزيا أو واقعيا ـ الآراء تختلف حول هذا الأمر»، وبدأ خلق الشعب اليهودى من أجل إصلاح الشرخ الذى تسبب فيه آدم وحواء، وفى جبل سيناء تحقق هذا الأمر للحظة وجيزة: «الابن» الذى تجسد فى موسى، توحد بالإنبة «شخينة» ولكن لسوء الحظ، فإن خطيئة «العجل الذهبى» مرة أخرى تسبب عدم التوحد الإلاهى، ولكن توبة الشعب اليهودى قد أصلحت الوضع إلى حد ما. وعلى نفس المنوال، فإن كل حادثة فى التاريخ اليهودى التوراتى، يعتقد أنه مرتبط مع اتحاد أو انفصال الزوجين المقدسين، كان الاجتياح اليهودى لفلسطين الكنعانية وبناء الهيكل الأول والثانى، على وجه الخصوص، ممكنا بسبب اتحادهما، فى حين أن دمار الهيكلين، ونفى اليهود عن الأرض المقدسة هى علامات خارجية ليس فقط بسب انفصالهما، بل أيضاً بسبب فسق حقيقى، فالابنة وقعت تماما فى حبائل الشيطان، فى حين اتخذ «الابن» شخصيات أنثوية شيطانية مختلفة، بدلاً من زوجته الأصلية.

إن واجب اليهود الأتقياء هو إعادة، من خلال صلواتهم وشعائرهم الدينية، هذا الاتحاد المثال المقدس، وبهذا فإنه قبل القيام بمعظم الأعمال الطقسية، التى يجب على كل يهودى ورع أن يؤديها عدة مرات فى اليوم، تُفرض تلاوة الصيغة القبالانية التالية: «من أجل الاتصال(٧) المبارك المقدس مع شخينته» كما تنظم

(٧) يرى كثير من المتصوفين اليهود المعاصرين أن نفس النهاية قد تتحقق بسرعة أكبر من خلال الحرب ضد العرب، وطرد الفلسطينيين أو إقامة الكثير من المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربيه، كما تقوم على ذلك الفكر أيضاً تلك الحركة المتنامية لبناء الهيكل الثالث.

أيضاً الصلوات الصباحية اليهودية من أجل التحفيز على هذا الاتحاد الجسدى.

هناك أيضاً صلوات أو طقوس دينية أخرى، كما تفسر من قبل القبالاه، قد صممت من أجل خداع الملائكة «يصورون على أنهم آلهة ثانويون مع قدر من الاستقلالية» أو من أجل استعطاف الشيطان، وفى نقطة معينة فى صلاة الصباح، تتلى بعض العبارات بالآرامية [1] بدلاً من العبرية المعتادة.

وهذا بقصد خداع الملائكة الذين يتحكمون فى البوابات التى تدخل من خلالها هذه الصلوات إلى السماء، والذين لديهم القدرة على منع الصلوات الخاصة بالاتقياء. وتفهم الملائكة فقط العبرية وتحيرهم العبارات الآرامية، ولأنها غبية إلى حد ما «يفترض أنها أقل ذكاء بكثير من القباليين، فإنهم يفتحون البوابات، وفى هذه اللحظة تصل جميع الصلوات، بما فيها تلك التى بالعبرية إلى السماء.

أو فلنأخذ مثالاً آخر: يغسل اليهودى التقى يديه قبل تناول الطعام وبعده بطريقة طقسية، متفوها بألفاظ تبريكية خاصة، هذه التبريكات أحدها فيه تعبد إلى الرب بتعزيز الاتحاد المقدس للابن والابنة، ولكن فى الآخر يتعبد إلى الشيطان، الذى يحب صلوات اليهود وطقوسهم إلى أقصى حد حتى إنه عندما يعرض عليه بعضها، فإنها تلهيه لفترة وينشغل عن إزعاج الإبنة السماوية. وبالتأكيد، فإن القباليين يؤمنون بأن بعضا من الضحايا التى تحرمت فى الهيكل كانت موجهة للشيطان. مثلا عندما يتم التضحية بسبعين ثورا خلال الأيام السبعة من عيد الخيام الدينى [2] فإنه من المفترض أنها تقدم للشيطان بوصفه حاكماً غير اليهود [3] من أجل تعطيله عن التدخل فى اليوم الثامن، عندما تقدم الأضحية للرب. ويمكننا أن نعطى العديد من الأمثلة الأخرى من نفس النوع.

(١) ما يسمى قيدوشاه شليش «القداسة الثالثة» أدخلت إلى صلاة أوفالتيزيون فى نهاية صلوات الصباح.

(٢) عدد «٢٩»

(٣) يوصفف هذا بتفاصيل غاية فى الدقة، مثلا الغسيل الطقسى لليدين يجب أن يتم تحت صنبور وكل يد تغسل على حده من ماء فى إبريق «أصغر حجم ممكن»، ويمسك باليد الأخرى، وإذا كانت اليدان قذرتين فعلاً، فمن المستحيل تنظيفهما بهذه الطريقة، ولكن مثل هذه الاعتبارات العملية لا مكان لها هنا، وتأمر اليهودية الكلاسيكية باتباع عدد كبير جداً من هذه الطقوس التفصيلية التى تهتم بها القبالاه اهتماما كبيرا، فهناك مثلاً قواعد دقيقة حول التصرف فى المرحاض، فعلى اليهودى الذى يقضى حاجته فى الخلاء، ألاّ يقوم بذلك باتجاه شمال جنوب، لأنه مقترف بالشيطان.

ويجب هنا أن نبدى عدة ملاحظات فيما يخص هذه المنظومة وأهميتها من أجل فهم صحيح لليهودية، سواء فى فترتها الكلاسيكية، وفى صيغتها السياسية الحالية وفى الممارسة الصهيونية.

أولاً أيا ما كان يمكن قوله على هذه المنظومة القبالية، لا يمكن وصفها بالتوحيدية، إلا إذا قبل الإنسان اعتبار الهندوسية والديانة الإغريقية ـ الرومانية المتأخرة، وحتى ديانة مصر القديمة، ديانات توحيدية أيضاً.

ثانيا.. إن الطبيعة الحقيقية لليهودية الكلاسيكية تظهر بوضوح من خلال اليسر الذى قبلت به هذه المنظومة. إن الإيمان والمعتقدات «باستثناء المعتقدات التوحيدية» تلعب دوراً شديد الضآلة فى اليهودية الكلاسيكية، ولكن الأكثر فهو الطقوس أكثر من المغزى أو الدلالة، التى من المفترض أن يرتبط بها المعتقد. لهذا فإنه فى وقت عندما رفضت قلة من اليهود المتدينيون قبول القبالاة «مثل الحال اليوم»، فإنه يمكن رؤية قلة من اليهود يؤدون الشعائر الدينية وهم مؤمنون بأنها عمل من أعمال عبادة الرب، فى حين أن آخرين يقومون بالضبط بنفس الشىء مع نية استرضاء الشيطان ـ ولكن طالما أن الطقس هو نفسه، فهو يمارسونه معا وسوف يظلون أعضاء فى نفس الطائفة مهما تكن شدة كراهيتهم لبعضهم البعض، ولكن إذا حدث وجرؤ شخص على تقديم ابتكار جديد فى نمط بالغسل، بدلا من اختلاف النية، المقترنة بغسل اليدين مثلا، فمن المؤكد أنه سوف يحدث وقتها انشقاق حقيقى. وينطبق نفس الشىء على الصيغ المقدسة لليهوية.

الشرط أن يبقى نظام الألفاظ دون أن يمس، أما المعنى فإن قضية ثانوية فى معظم الأحيان. على سبيل المثال، ربما كانت أكثر الصيغ اليهودية تقديسا: «اسمعوا يا أهل إسرائيل، الله هو ربنا، الرب واحد».

التى تكرر عدة مرات فى اليوم من قبل كل يهودى تقى، يمكن فى الوقت الحالى أن تعنى معنيين مختلفين، يمكن أن تعنى أن الرب بالتأكيد «واحد» ويمكن أيضاً أن تعنى أنه مرحلة معينة من اتحاد الإلهين الذكر والأنثى قد تمت، أو أنه قد تم التحفيز عليها من خلال التكرار الصحيح لهذه الصيغة. ومع ذلك، فإنه عندما يقوم جموع المصلين من اليهود فى الصلوات الإصلاحية بترديد هذه الصيغة بأى لغة غير العبرية، فإن جميع الحاخامات الأرثوذكس، سواء المؤمنون بالوحدانية، أو الاتحاد السماوى، يصابوا بالغضب الشديد.

وأخيراً فإن جميع هذه النقاط التى ذكرت، لها أهمية كبرى فى إسرائيل «وفى مراكز يهودية أخرى» حتى وقتنا الحالى. الصيغ المتعددة المحددة ذات الدلالات «الهامة» «مثل «قانون القدس» وأفكار ودوافع غوس إيصونيم، والإلحاح الكامن وراء كراهية غير اليهود الذين يعيشون حالياً فى فلسطين، والموقف المتعصب تجاه جميع محاولات السلام التى قدمت من جانب الدول العربية، جميعها بالإضافة إلى الكثير من الاتجاهات الأخرى لممارسات السياسات الصهيونية، التى كثير الكثير من حسنى النية، الذين لديهم فهم زائف عن اليهودية الكلاسيكية، لكنها تصبح أكثر وضوحاً فى ضوء هذه الخلفية الدينية الصوفية، ومع ذلك يجب أن أحذر من السقوط فى محاولات أخرى متطرفة لشرح جميع السياسات الصهيونية فى ظل مصطلحات هذه الخليفية، بشكل واضح تأثيرات السياسة الصهيونية تختلف فى مداها.

لقد كان بن جوريون خبيراً فى التلاعب بها بطريقة مسيطرة من أجل نهايات محددة، وفى فترة سلطة بيغن الماضى مارس تأثيراً أشد عظمة على الحاضر ولكن ما يجب ألا نفعله أبداً، تجاهل الماضى وتأثيراته، لأنه فقط من خلال معرفته يمكن لنا أن نسمو فوق قوته العمياء.

تفسير التوراة

سوف يرى من خلال الأمثلة المطروحة أن ما يعتقد أكثر الناس اطلاعاً أنهم يعرفونه عن اليهودية، قد يكون شديد التضليل، إلا إذا كان بإمكانهم قراءته بالعبرية. فجميع التفاصيل التى ذكرتها آنفاً يمكن أن توجد فى النصوص الأصلية أو فى بعض الحالات، فى الكتب الحديثة التى وضعت بالعبرية من أجل قراء مختصين. أما فى النصوص الإنجليزية فإنه ينظر لها بغير اهتمام، حتى مع أن إغفال مثل هذه الحقائق الاجتماعية الهامة، يعد تشويها للصورة بأكملها.

هناك أيضاً فهم خاطىء حول اليهودية، تلك الشائعة بصفة خاصة لدى المسيحيين، أو الذين تأثروا بشدة بالثقافة والتقاليد المسيحية. هذه الفكرة المضللة بأن اليهودية «دين توراتى» وأن العهد القديم له من اليهودية نفس الموقع الرئيسى والسلطة التشريعية التى للإنجيل على البروتستانت أو حتى المسيحية الكاثوليكية. مرة أخرى، نجد أن هذا مرتبط بقضية التفسير، لقد رأينا أنه فى القضايا التى تخص العقيدة هناك الكثير من الحرية، ويصدق

العكس تماما فيما يتعلق بالتفسير الشرعى للنصوص الدينية. فالتفسير هنا قد ثبت بشكل صارم، ولكن فيما يتعلق بالتلمود أكثر من التوراة نفسها[1] الكثير، بل ربما الغالبية، من الآيات التوراتية تصف الطقوس الدينية والالتزامات «مفهومة» من خلال اليهودية الكلاسيكية، والأرثوذكسية الحالية، بطريقة مختلفة تماما عن أو حتى متناقضة عن معناها الحرفى الذى يفهمه المسيحى أو حتى القراء الآخرون للعهد القديم، الذين يرون فيه فقط النص الواضح البسيط. ويوجد نفس الانقسام فى الوقت الحالى فى إسرائيل ما بين هؤلاء الذين يتعلمون فى مدارس يهودية دينية، وهؤلاء الذين يتعلمون فى مدارس علمانية» عبرية، حيث بشكل كامل يدرسون المعنى الواضح للعهد القديم.

هذه نقطة هامة يمكن فقط فهمها من خلال الأمثلة، سوف نلاحظ أن التغيرات فى المعنى لا تسير جميعها فى نفس الاتجاه، من زاوية علم الأخلاق. إن المدافعين عن العقائد اليهودية يدعون أن تفسير التوراة، التى وضعها الفريسيون [*] وثبتت فى التلمود، كانت دائما أكثر تحررا من المعانى الحرفية، ولكن بعض الأمثلة التالية سوف توضح أن هذا كان أبعد ما يكون عن القضية فى حد ذاتها:

١ـ دعونا نبدأ بالوصايا العشر نفسها. الوصية الثامنة «أنت لا يجب أن تسرق» سفر الخروج: (١٥. ٢٠) هذا يمكن أن يؤخذ بأنه تحريم، السرقة «أى اختطاف» شخص يهودى. السبب أنه طبقا إلى التلمود جميع الأفعال المحرمة من خلال الوصايا العشر هى معاصى كبرى «فى حين أن خطف الأغيار من قبل اليهودى مباحة من خلال شريعة التلمود»، هذا التفسير جملة متطابقة ظاهرياً «أنتم لا يجب أن تسرقوا.. اللاويون ١١:١٩» ومع ذلك يسمح أن يكون لها نفس المعنى الحرفى.

(١) «التفسير» كلمة من استخدامى الخاص. اليهودية الكلاسيكية «والأرثوذكسية فى الوقت الحالى» ترى ذلك على أنه المعنى التلمودى. حتى لو جاء عكس المعنى الحرفى، فإنه المستخدم دائماً.

(*) الفريسيون: طائفة من اليهود فى عصر المسيح عُرفت بالطقوس وبالتقوى الكاذبة، كانوا يتميزون بالثقافة والتفقه فى الدين، وانعزالهم عن العامة، يؤمنون بفكرة الماشيح والآخرة والملائكة.. «المترجمة».

٢ـ هناك المثل الشهير «العين بالعين والسن بالسن.. إلخ»، «سفر الخروج: ٢٤: ٢١» تؤخذ لتعني، عين مال مقابل العين، وهذا يعني دفع غرامة أكثر منه التعرض لعقاب ديني.

٣ـ هناك حالة شهيرة في تحريف المعنى الحرفي إلى معنى مختلف تماما.

النص التوراتي يحذر بوضوح ضد الانحياز إلى الجانب الأقوى أو صاحب الحظ الأوفر في قضية جائرة «أنت لا يجب أن تتبع العامة في فعل الشر، ولا تجب في دعوى مائلاً وراء الكثيرين للتحريف سفر الخروج ٢: ٢٣»، الكلمات الأخيرة في هذه الآية تتحرف عن سياقها وتفسر بأنها وصية لاتباع الأغلبية!

٤ـ الآية: «أنت لا يجب أن تسلق جدي في حليب أمه» سفر الخروج ٢٣:١٩» تفسير بأنها تحريم مزج أي نوع من اللحوم مع أي حليب أو منتجات ألبان. حيث إن نفس الآية قد كررت في موضعين آخرين في أسفار موسى الخمسة، التكرار المجرد هنا يؤخذ على أنه تحريم ثلاثي «أ» منع اليهودي من أكل مثل هذا المزيج، «ب» من طهيه لأي غرض و«ج» التمتع أو الاستفادة منه بأي طريقة [(١)].

٥ـ في عدة حالات المصطلحات العامة مثل «رفيقك»، «غريب»، «أجنبي» أو حتى كلمة «رجل»، تؤخذ بأن لها معنى حصري شوفيني. الآية الشهيرة «أنت يجب أن تحب رفيقك كما نفسك. «اللاويون ١٨: ١٩» تفهم من خلال اليهوية الكلاسيكية «الأرثوذكسية الحالية» بأن اليهود موصى بأن يحب رفيقه اليهودي، وليس أي رفيق إنساني، وعلى نفس المنوال، فإن الآية «ولا يجب أنت تقف أمام دم رفيقك» في نفس الصفحة ١٦٦» من المفترض أن تعني أن الإنسان لا يجب أن يقف عديم الجدوى أو بلا حركة عندما تكون حياة «دم» رفيقه اليهودي في خطر، ولكن كما سوف نرى من الفصل الخامس، اليهودي بشكل عام محرم عليه أن ينقذ حياة واحد من الأغيار، لأنه «ليس رفيقه» إن الوصية الكريمة بترك فضلات حصاد حقل شخص وكرمه «للفقير والغريب» «اللاويون ١٠ ـ ٩» تفسر بأنها تعني على وجه الحصر اليهودي الفقير ومن تحول إلى اليهودية. قوانين المحظورات المرتبطة بالجثث التي تبدأ في الآية «هذا

(١) وفق رواية مجهولة النسب، لاحظ أحد اليهود المهرطقين في القرن التاسع عشر، أن الوصية الشهيرة «لا تزن» تكررت مرتين فقط «ولهذا يفترض أن الإنسان محرم عليه أكل الزنى أو طهيه، أما التمتع به فحلال».

هو الشرع، عندما يموت رجل فى خيمة: كل ما فى الخيمة.. يكون نجساً لمدة سبعة أيام» «سفر العدد «السفر الرابع من العهد القديم» ١٤ : ١٩» ولكن كلمة رجل «adamâ تؤخذ على أنها تعنى «يهودى» أى أنه فقط جثمان اليهودى هو المحظور «هذا يعنى كلا من غير الطاهر والمقدس فى نفس الوقت وتعتمد على تفسير السابق، إن اليهود الأتقياء لديهم تبجيل هائل تجاه جثث اليهود والمقابر اليهودية، «إلا أن المئات من مقابر المسلمين قد دمرت تماما فى إسرائيل من أجل إفساح مكان لبناء فندق هيلتون تل أبيب» وكان هناك احتجاج عنيف لأن مقبرة يهودية فى جبل الزيتون قد دمرت فى أثناء الحكم الأردنى، وعلى هذا أمثلة كثيرة جداً، بعض من هذه النتائج اللا إنسانية لهذا النوع من التفسير سوف يناقش فى الفصل الخامس.

٦ـ أخيراً فيما يخص واحدا من أكثر النصوص النبوئية شيوعاً فى الإصحاح التى لا يمكن أن يكون بها لبس فى تحريم القتل فى الآية «أشعيا ١:١٥» فى هذا النص هى: «وعندما أنت تمد توا يديك، سوف أخفى عينى عنك، ليس هذا فحسب، عندما تقوم بالكثير من الصلوات، لن أسمعك يداك مليئتان بالدم». وحيث إن الكهنة اليهود «يمدون أيديهم» عندما يباركون الناس خلال الصلاة العامة، فإنه قد افترض أن هذه الآية تعنى أن الكاهن الذى يقوم بالقتل غير العمد، يجرد من أهليته «بمد يديه» للمباركة حتى وإن شاب لأنهما مليئتان بالدم، ومن الواضح تماماً من هذه الأمثلة أنه حتى اليهود الأرثوذكس اليوم «أو جميع اليهود قبل حوالى عام ١٧٨٠» عندما يقرؤن التوراه، فإنهم يقرأون كتابا مختلفا تماماً، مع معان مختلفة كلية، عن التوراة كما يقرؤها غير اليهود أو غير الأرثوذكس من اليهود. هذا التمييز يطبق أيضاً فى إسرائيل، على الرغم من أن كلا الفريقين يقرأ النص بالعبرية.

لقد أثبتت الخبرة هذا مراراً، خاصة منذ عام ١٩٦٧، أن العديد من اليهود فى إسرائيل «وأماكن أخرى» من غير الأرثوذكس لديهم معرفة ضئيلة مفصلة عن الدين اليهودى، وقد حاولوا أن يشعروا الإسرائيليين الأرثوذكس «أو الجناحات اليمينية التى تأثرت بقوة بالدين، بالإثم أو الخزى بعيداً عن موقفهم اللاإنسانى تجاه الفلسطينيين، بأن أوردوا على سبيل الاستشهاد آيات من التوراة بصورته الإنسانية الواضحة. وعلى أية حال، فقد وجدت دوما، أن مثل

هذا الجدل ليس له أدنى تأثير على هؤلاء الذين يتبعون اليهودية الكلاسيكية لأنه بالنسبة لهم النص المقدس «التوراتى، يعنى شىء مختلف تماماً عما هو لدى أى شخص آخر».

وإذا كان مثل هذا الانقسام المعرفى موجوداً فى إسرائيل حيث يقرأ الناس العبرية ويمكنهم بسهولة الحصول على معلومات صحيحة إذا أرادوا، يمكن لنا أن نتصور مدى عمق سوء التفسير فى الخارج، لنقل بين المتعلمين فى العقيدة المسيحية، فى الواقع، كلما يقرأ مثل هذا الشخص التوراة يقل إمكانية تعرفه على اليهودية الأرثوذكسية، حيث إنها ترى العهد القديم، باعتباره نصاً له صيغ دينية مقدسة غير قابلة للتغير، تلاوتها فعل له فضيلة كبرى، ولكن معانيه تتحدد تماما بشكل آخر، وكما قال همبتى دمبتى لأليس فى رواية أليس فى بلاد العجائب، وراء مشكلة من يحدد معانى الكلمات، هناك يكمن السؤال الحقيقى: «من سيكون السيد؟»

بنية التلمود

لهذا يجب أن نفهم بوضوح أن مصدر السلطة لجميع ممارسات اليهودية الكلاسيكية «وحالياً الأرثوذكسية» والقاعدة المحددة لبنيتها الشرعية، هى التلمود، ولكن تحديداً، ما يدعى بالتلمود البابلى، فى حين أن بقية الأدب التلمودى «بما فيها ما يدعى التلمود المقدس أو تلمود الفلسطينى» يعمل كسلطة تشريعية تكميلية.

لا يمكننا أن ندخل هنا فى وصف تفصيلى للتلمود والأدب التلمودى «المادة المطبوعة»، ولكن سنقتصر على رؤية النقاط الأساسية التى نحتاجها فى نقاشنا.

بشكل أساسى التلمود يتألف من جزءين، الأول «المشنا» (*) وهو موجز جامع له رمز شرعى يتألف من ٦ أجزاء، كل منها ينقسم إلى عدة رسائل كتبت بالعبرية، نفحت فى فلسطين حوالى ٢٠٠ قبل الميلاد من الأجزاء الأكثر شمولية «وبشكل واسع شفهية، من المادة الشرعية التى نظمت خلال القرنين السابقين».

(*) المشنا: مجموعة القوانين غير المكتوبة التى جمعت حوالى عام ٢٠٠ قبل. الميلاد والتى تشكل الجزء الأساسى من التلمود «المترجمة»

الثانى والجزء الأكثر «انتشاراً» وهو الجماراه وهو تسجيل ضخم للمناقشات التى دارت على وحول المشنا، وهناك تقريبا مجموعتان متوازيان من الجباراه، واحدة جمعت فى «بابل، ما بين عام ٢٠٠ و ٥٠٠ ب.م والأخرى فى فلسطين ما بين ٢٠٠ ب، الميلاد وبعدما فى تاريخ غير معلوم بعيدا جدا عن ٥٠٠ ب.م، التلمود البابلى الذى هو المنشاة إضافة إلى الجماراه البابلية»، هو الأكثر شمولاً وانتشاراً والأفضل تنسيقاً من الفلسطينى، وهو وحده الذى يعد دقيقاً وله سلطة شرعية، التلمود «الفلسطينى» أو التلمود المقدس يُعد له قيمة أقل كسلطة تشريعية، مع عدد من مجموعة «نصوص أو وثائق»، تعرف بالإجماع على أنها «الأدب التلمودى» وتحتوى على مادة تركها كتبة تلمودين سابقين.

وعلى نحو مناقض للمشناه، فإن بقية التلمود والأدب التلمودى قد كتب بمزيج من العبرية والآرمية، واللغة الأخيرة كانت هى السائدة فى التلمود البابلى، أيضاً لم تقتصر على الأمور الشرعية، ودون أى سبب واضح، يمكن أن يعترض النقاش الشرعى فجاءة تقاطع يشار إليه على أنه «القصص» ها غادا Ag-gadah وهو خليط من الحكايات والنوادر حول الحاخامات وأناس عاديين، وشخصات توراتية، ملائكة شياطين، سحر ومعجزات [1]، هذه النصوص المروية، على الرغم من تأثيرها الكبير الشائع على اليهودية خلال العصور، كانت يوما تُعد «حتى من قبل التلمود نفسه» لها قيمة ثانوية. وبسبب الأهمية العظيمة لليهودية الكلاسيكية، فهو الأجزاء الشرعية للنص، خاصة نقاش الحالات التى فيها نظر. التلمود نفسه يحدد الأنواع المختلفة من اليهود بطريقة تنازلية، كالعالى، الأقل هم الجهلة بشكل تام، ثم يأتى هؤلاء الذين يعرفون فقط التوراة، ثم هؤلاء الذين يعرفون المشناه أو الهاغادا، ثم الطبقة العليا وهم هؤلاء الذين درسوا وقادرون على مناقشة الجزء الشرعى من الجماراه، وهم فقط، القادرون على هداية جموع اليهود فى جميع الأمور.

النظام التشريعى للتلمود يمكن وضعه بأنه شامل تماماً. وذو سلطة صارمة، علاوة على أن لديه قابلية للتطوير بشكل غير محدود، دون أى تغير فى القاعدة «العقائدية»، فكل منحنى من مناحى حياة اليهود سواء خاصة أو

---

(١) يخلو المشناه بشكل واضح من كل هذا، وعلى وجه الخصوص من الاعتقاد بالعفاريت والسحر. فى حين أن التلمود البابلى ملىء بالخرافات الفاضحة.

عامة، مغطاة عادة بتفاصيل وفيرة مع توضيح العقوبات والجزاءات، التى تستوجبها كل خطيئة يمكن تصورها أو أى تخط للقواعد. والقواعد الأساسية لكل مشكلة قد تم تحدد بها عقائديا ولا يمكن مراجعتها، ولكن ما يمكن مناقشته وبتطويل كبير الدراسة المحكمة والتعريف العملى لهذه القواعد. ودعونى أقدم بعض الأمثلة:

«عدم القيام بأى عمل» فى السبت، إن مفهوم عمل يحدد بأنه يتضمن تحديدا ٣٩ نوعاً من العمل، لا أكثر ولا أقل. والمعيار الذى تنطوى عليه هذه القائمة لا دخل له بمدى مشقة هذا العمل، إنه ببساطة قضية تعريف عقائدى حازم «مؤكد أنه من غير بينه أو دليل، أحد أنواع العمل المحرمة هى الكتابة: وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: كم عدد الحروف التى يمكن أن يكتبها اليهودى وتعد بذلك خطيئة ارتكاب الكتابة فى السبت؟ «الإجابة: اثنان» هل الخطيئة متساوية بصرف النظر عن اليد المستخدمة؟ الإجابة: لا » وبذلك ومن أجل الحماية من الوقوع فى الخطيئة فإن التحريم الأساسى على الكتابة قد تم نسيجه مع تحريم تال على لمس أى شىء يخص الكتابة يوم السبت.

عمل آخر يُعد نموذجاً أولى تمنع على أساسه نماذج أخرى، محرم فى السبت، وهو طحن الحبوب، من هنا يمكن الاستنتاج بالقياس أو التناظر الوظيفى أى أن نوع من طحن أى شىء مهما كان محرماً. وهذا فما المقابل قد وضع له سياج من التحريم بممارسة الطب فى السبت «إلا فى الحالات الخطيرة التى تهدد حياة اليهودى» ومن أجل الوقاية من الوقوع فى خطيئة طحن العقاقير، طبحا من العبث الإشارة إلى أنه فى العصر الحالى مثل هذا الخطر لا محل له «ولم يكن موجودا فى عدة حالات حتى فى العصور التلمودية»، ومن أجل وضع سياج حول السياج، فإن التلمود على نحو واضح يمنع العقاقير السائلة أو المشروبات الوقائية فى السبت، الذى ثبيا يظل إلى الأبد ثابتا، مهما كان منافا للعقل.

كتب تيرتوليان، واحد من آباء الكنيس الأول «إننى أؤمن بهذا الأمر لأنه مناف للعقل»، ويمكن استخدام هذا الشعار لوصف غالبية القواعد التلمودية، مع استبدال كلمة «أؤمن» بـ «أمارس».

الأمثلة التالية تصور بدرجة أفضل مدى العبثية التى وصل لها هذا النظام. فأحد الأعمال الأولية المحرمة فى السبت هى الحصاد، ومن خلال القياس فإن هذا

أدى إلى تحريم قطع غصن شجرة وأيضاً تحريم ركوب حصان «أو أى حيوان آخر»، وذلك كسياجه لإغراء قطع غصن الشجرة من أجل دفع الحيوان. بالطبع الجدال هنا بأن التحريم بلا فائدة لأنه لديك سوط مصنوع بالفعل، أو أنك قد تركب حصاناً فى مكان بلا شجر لا طائل من ورائه، فما حُرم يظل محرماً للأبد. ولكنه يمكن أن يصبح أكثر قسوة وصرامة: ففى الوقت الحالى يحرم ركوب دراجة فى السبت، لأنها تعادل ركوب الحصان.

المثال الأخير، يصور كيف يمكن استخدام نفس الأساليب فى حالات نظرية خالصة، ليس لها تطبيقات مقنعة فى الواقع. فخلال وجود الهيكل كان يسمح للكاهن الأعظم فقط بالزواج من عذراء، على الرغم من أنه نظرياً على امتداد فترة التلمود لم يكن هناك هيكل أو كاهن أعظم، ولكن التلمود يكرس واحداً من أكثر مناقشاته غرابة فى تحديد تعريف مصطلح «العذراء» المناسبة للزواج من الكاهن الأعظم بتفصيل مطول، وعلى كل عالم فى اليهودية الكلاسيكية أن يكون ضليعاً فى المئات من مثل هذه المشاكل. وقد حكم على مدى تمكن العلماء الكبار من خلال قياس قدرتهم على مط أو إنشاء مثل هذه المشاكل، لأنه كما وضح من خلال الأمثلة، هناك دائماً فرصة متاحة من أجل مط أكبر - حتى ولو فى اتجاه واحد - وهذا المط يستمر واقعياً بعد التنقيح النهائى للتلمود.

وبالرغم من هذا، فإن هناك فرقاً كبيراً ما بين الفترة التلمودية «التى انتهت حوالى عام ٥٠٠ ب.م، وفترة اليهودية الكلاسيكية «التى بدأت حوالى ٨٠٠ ب.م»، إن المنطقة الجغرافية التى يعكسها التلمود ضيقة، يظهر فيها المجتمع اليهودى كمجتمع «كامل» مع ممارسة الزراعة اليهودية كأساس للمجتمع «ينطبق هذا على بلاد الرافدين وفلسطين»، على الرغم من أنه فى هذا الوقت كان هناك يهود آخرون يحيون فى مختلف أنحاء الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الساسانية، ولكن يتضح فى النص التلمودى أن تركيبه - لأكثر من خمسة قرون - كان قصرا على الدوائر المحلية، فلم يشارك علماء من دول أخرى غير بلاد الرافدين وفلسطين، كما لا يعكس النص الأحوال الاجتماعية، خارج هاتين المنطقتين. وفى القرون الثلاثة الفاصلة بين اليهودية التلمودية واليهودية الكلاسيكية لا يعرف سوى قدر ضئيل جداً عن الأحوال الدينية والاجتماعية لليهود، ولكن بدءاً من ٨٠٠ ب.م، عندما أصبح متاحا مرة أخرى

معلومات تاريخية مفصلة، نجد أن المظهرين اللذين ذكرا آنفا قد انعكسا «ضيق الرقعة والمجتمع الكامل».

حيث يُعترف بالتلمود البابلى «وبدرجة أقل ببقية الأدب التلمودى كسلطة دينية ملزمة، ويُدرس ويطور فى جميع المجتمع اليهودية. وفى نفس الوقت كان المجتمع اليهودى يخضع لعملية تغيير عميقة، ومهما كان هذا المجتمع وأينما كان، فإنه لم يشمل الفلاحين، وسوف نناقش هذا النظام الاجتماعى الذى نشأ عن هذا التغيير فى الفصل الرابع. أما هنا فيجب أن نصف كيف أن التلمود تكيف مع الظروف الجديدة ـ الجغرافية بصورة أوسع كثيراً، والاجتماعية بصورة أقل كثيراً. وهى ظروف تختلف عن السابقة بشكل جوهرى، سنرى كيف تكيف التلمود مع اليهودية الكلاسيكية، ويجب أن نركز على ما هو فى رأى الطريقة الأكثر أهمية فى هذا التكيف.

التدبير الإلهى لشئون العالم

كما ذكرنا آنفا فإن المنظومة التلمودية فى معظمها دوغماتية جازمة، ولا يُسمح بوجود أى مرونة فى قواعدها حتى ولو تحول الأمر إلى أشياء منافية للعقل مع تغير الظروف، ففى حالة التلمود، على العكس من التوراة، فإن المعنى الحرفى فى النص ملزم، ولا يمكن لأحد أن يفسره بعيدا عن معناه، ولكن فى عصر اليهودية الكلاسيكية فإن العديد من الشرائع التلمودية أصبح من المتعذر الدفاع عنها من قبل الطبقات اليهودية الحاكمة ـ الحاخامات والأثرياء. ولصالح هذه الطبقات، فإن وسيلة من التضليل المنهجى قد ابتكرت من أجل الحفاظ على حرفية الشريعة مع انتهاك روحها ومقصدها.

فكان هذا النظام الريائى من «التخريجات» heterim للأنظمة الدينية، التى كانت فى رأيى أهم سبب فى انحطاط اليهودية فى عهدها الكلاسيكى «أما السبب الثانى فكان الصوفية اليهودية التى نشطت لفترة أقصر كثيراً من الزمن». ومرة أخرى يجب أن نقدم بعض الأمثلة لوصف الطريقة التى عمل بها هذا النظام.

١ـ أخذ الربا: يحرم التلمود بشكل قاطع على اليهود، بالوقوع تحت طائلة العقاب الشديد، أخذ فوائد على قرض يعطيه ليهودى لآخر، «طبقاً إلى غالبية المراجع التلمودية، فإنه واجب دينى بأخذ أكبر قدر ممكن من الفوائد من قرض

لأحد الأغيار»، وهناك قواعد مفصلة تمنع حتى أدنى شكل من استفادة دائن يهودى من مدين يهودى آخر، ويصف التلمود جميع اليهود الشركاء فى مثل هذا العمل المحرم، بما فى ذلك الشاهد أو الكاتب، بأنهم مرتكبون لجرائم شائنة. وغير مؤهلين للشهادة أمام المحكمة، فمن يشارك فى عمل كهذا يعلن بأنه «ليس لديه حق فى رب إسرائيل» ومن الواضح أن هذا التشريع قد فصل بعناية ليلائم احتياجات الفلاحين من اليهود أو الحرفيين، أو المجتمعات اليهودية الصغيرة التى كانت تستخدم أموالها فى إقراض غير اليهود. غير أن الوضع كان مختلفاً تماما فى أوروبا الشرقية «خاصة بولندا»، فى القرن السادس عشر. كان هناك بالقياس مجتمع يهودى كبير، يشكل الأغلبية فى العديد من القرى، وكان الفلاحون المستعبدون فى الأرض، بالكاد فى موقف يمكنهم من الاقتراض بأى شكل، فى حين أن اقتراض النبلاء كان عمل قلة من اليهود الأثرياء جداً، ولهذا اضطر الكثير من اليهود إلى القيام بأعمال تجارية مع بعضهم البعض. وفى ظل هذه الأوضاع. ابتكرت الترتيبات التالية التى تدعى (heterisqa). تخريج الأعمال، وهو تنظيم دينى للمعاملات التجارية، وقد ابتكر من أجل وضع فائدة ـ بسيطة بين اليهود، مما لا يغير نص الشريعة لكنه من الناحية الرسمية ليس قرضا على الإطلاق. المرابى يستثمر ماله فى تجارة المقترض، مع تعهد مكون من شرطين، الأول أن يتعهد المقترض بأنه سوف يدفع للمرابى فى الوقت المتفق عليه مستقبلاً مبلغاً معيناً من المال «فى الواقع، يمثل الفائدة على القرض» على أنه نصيب المقرض فى الأرباح، الثانى أن المقترض سيفترض أنه حقق قدراً من الأرباح، وعليه إعطاء المرابى حصته الأصلية، إلا إذا ادعى عكس ذلك بشهادة مؤيدة من حاخام البلدة، أو القاضى الحاخامى، الذى بدوره، يرفض أن يشهد فى مثل هذه القضايا. عملياً المطلوب من أجل إتمام الصفقة، هو أخذ نص هذا «التخريج» المكتوب بالآرامية ومبهم تماما أمام الغالبية العظمى، ووضعه على جدار فى الغرفة التى تجرى بها الصفقة «توجد نسخة من هذا النص فى جميع مشروع البنوك الإسرائيلية»، أو حتى تحفظ فى خزانة. وبهذا يجدوا القرض ذو ا لفائدة البسيطة بين اليهود شرعيا تماما ولا يستوجب أدنى لوم.

٢ـ السنة السبتية: (*) طبقاً للشريعة التلمودية «المعتمدة على اللاويون:

(*) السنة السبتية: سنة راحة للأرض عن قدماء اليهود كل سابع سنة. «المترجمة»

٢٥. فإن على اليهود المالكين للأرض فى فلسطين [١]، أن يتركوا الأرض كل سنة «سبتية» سابعة، بلا زراعة، وبهذا تكون جميع الأعمال الزراعية «بما فى ذلك الحصاد» محرمة. وهناك أدلة وافرة على أن هذا القانون قد تم التقيد به بشكل صارم لحوالى ألف عام، منذ القرن الخامس قبل الميلاد وحتى اختفاء الزراعة اليهودية فى أرض فلسطين. وبعد ذلك، عندما لم يكن هناك داع لتطبيق هذه الشريعة فعليا، فقد تم الاحتفاظ به دون أن يمس.

ولكن فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر، ومع إنشاء أول المستعمرات الزراعية اليهودية فى فلسطين، أصبحت قضية اهتمام عملى. لقد ساعد الحاخامات ليتلاءموا مع رغبات المستوطنين على تدبير «تخريج»، ثم بعد ذلك تطويره من قبل خلفائهم فى الأحزاب الدينية الصهيونية وأصبح فيما بعد عرف إسرائيلى متبع.

وهذا بيان بكيفية تطبيقه قبل فترة قصيرة من السنة السبتية، يقوم وزير الداخلية الإسرائيلى بإعطاء كبير الحاخامات وثيقة تجعله المالك القانونى لجميع الأراضى الإسرائيلية، الخاصة والعامة، ثم يذهب الحاخام الأكبر مسلحاً لهذه الشهادة إلى شخص غير يهودى ويبيعه كل أرض إسرائيل، «ومنذ عام ١٩٦٧، الأراضى المحتلة أيضاً» مقابل مبلغ زهيد، ثم توثيق وثيقة منفصلة، يتعهد فيها «المشترى» بأنه سوف يعيد «بيع» الأرض مرة أخرى بعد إنقضاء العام. وتتكرر هذه الصفقة التجارية كل سبع أعوام، وعادة مع نفس «المشترى».

الحاخامات غير الصهاينة لا يقرون شرعية هذا «التخريج» [٢] معلنين، عن حق، أن الشريعة الدينية تمنع اليهود من بيع أراض فى فلسطين للأغيار، وبذلك فإن هذه الصفقة برمتها ترتكز على إثم وهى بذلك باطلة وبلا قوة شرعية ملزمة. الحاخامات الصهاينة يردون على ذلك، بأن المحرم فعلا هو البيع الحقيقى، وليس البيع الزائف.

حلب الأبقار يوم السبت: حرم هذا العمل فى العصور السابقة للتلمود، خلال

(١) أو، بدقة أكبر، فى كثير من أنحاء فلسطين، ويبدو أن تلك الأنحاء المقصودة فى الشريعة هى التى كانت غالبيتها من اليهود ما بين ١٥٠ ـ ٢٠٠ ب.م.

(٢) لذا ينظم الأرثوذكس اليهود غير الصهاينة فى إسرائيل حوانيت خاصة فى السنوات السبتية، لبيع الفواكه والخضراوات التى يزرعها العرب فى أراض عربية.

عملية من زيادة الصرامة الدينية التى ذكرت أنفا، والتحريم كان يمكن ببساطة أن يظل فى الديسبورة، حيث كان اليهود المالكون للأبقار، عادة على قدر من الثراء الذى يمكنهم من امتلاك خدم غير يهود، ويمكنهم أن يأمروهم «باستخدام إحدى الذرائع الموصوفة آفقا، بحلب الأبقار. وقد استخدم المستعمرون اليهود الأوائل فى فلسطين عرباً للقيام بهذا، ولأغراض أخرى أيضا، ولكن مع الغرض القسرى للسياسة الصهيونية التى تنص على حصر العمالة على اليهود، كان هناك حاجة إلى «تخريج» «وقد كان هذا ملحاً بصفة خاصة قبل وصول الحلب الآلى فى أواخر الخمسينيات، هنا، أيضاً كان الاختلاف بين الحاخامات الصهاينة وغير الصهاينة.

طبقاً إلى الصهاينة، فإن تحريم الحلب أصبح مرخصاً، على شريطة أن يكون الحليب مائلاً للزرقة وليس أبيض، ومن حليب السبت الأزرق هذا كان الاستخدام القصرى فى صناعة الجبن، ثم يزال الصبغ ويستخدم فى مصل اللبن.

أما الحاخامات غير الصهاينة فقد ابتكروا «تخريجاً» أكثر خبثا «شهدته بنفسى فى كيبوتس للمتدينين عام ١٩٥٢» فقد توصلوا إلى فقرة شرطية أو «تدبير احتياطى» يسمح بتفريغ ضروع الأبقار يوم السبت لإراحتها من احتقان ضروعها بشكل مؤلم، ولكن بشرط صارم أن يسيل الحليب هباء على الأرض، والآن هذا ما يحدث فعلا، يذهب عضو الكيبوتس النقى فى صباح يوم السبت إلى حظيرة الأبقار ويضع دلوا تحت البقرة «لا يوجد تحريم على هذا العمل فى الأدب التلمودى كله» ثم يذهب بعد ذلك إلى الكنيست للصلاة، ثم يأتى زميله، الذى لديه «نية صادقة» لإراحة البقرة من ألمها ويترك الحليب يسيل، ولكن إذا وجد بالمصادفة، دلوا تحتها، فهل هو ملزم بأن يزيله؟ بالطبع لا. إنه ببساطة «يتجاهل» وجود الدلو، وينهى مهمته الرحيمة، ويذهب بعد ذلك إلى الكنيس، أخيراً يذهب زميل ورع آخر إلى حظيرة الأبقار ويكتشف مع دهشة كبيرة، وجود الدلو الملىء بالحليب، ويضعه فى مخزن بارد ويتبع زملاءه إلى الكنيس، والآن يصبح كل شىء جيداً تماماً ولا حاجة إلى إضاعة المال فى شراء صبغ أزرق.

٤ـ المحاصيل المختلطة: تخريجات أصدره الحاخامات الصهاينة فيما يتعلق بتحريم عن بذر نوعين مختلفين من البذور فى حقل واحد «معتمد من اللاويون

١٩ : ١٩ » ولكن الهندسة الزراعية الحديثة أثبتت أنه البذور المختلطة أكثر إنتاجا وربحاً. لذا فإن الحاخامات ابتكروا « تخريجاً » يتيح للرجل أن ينشر نوعاً من البذور على طول الحقل، وفى اليوم التالى، يأتى زميله، الذى «لا يعرفه» لينشر نوعا آخر من البذور. بالعرض. ورغم ذلك، فإن هذه الطريقة أثبتت أنها إهدار للعمالة، ولذلك ابتكرت وسيلة أفضل يكوم رجل كومة من نوع واحد من الحب فى مكان عام ويغطيها ، بعناية بكيس من القماش أو لوح خشبى، ثم يضع فوقها نوع ثانى من الحب، بعد ذلك يأتى رجل آخر ويصيح أمام شهود «أريد هذا الغطاء»، ويزيله، وقتها يختلط الحب تلقائيا. وفى النهاية يأتى رجل ثالث ويقول «خذ البذور وأنثرها فى الحقل»، ويشرع هنا الشخص بالقيام بذلك[١].

٥ـ المواد المخمرة: يجب ألا تؤكل أو أن يتم الاحتفاظ بها فى حيازة اليهودى، خلال الأيام السبعة «أو خارج فلسطين، الثمانية» الخاصة بعيد الفصح، وقد اتسع مفهوم «المواد المخمرة» بشكل مستمر ومع مقت شديد لرؤيتها يصل إلى حد ا لمظاهر الهيسترية خلال أيام الأعياد. وتضم هذه المواد جميع أنواع الدقيق، وحتى الحبوب غير المطحونة، وفى المجتمع التلمودى الأولى، كان هذا جائزاً، لأن الخبز «سواء مخمرا أم لا» كان يخبز عادة مرة واحدة فى الأسبوع، حيث كانت تستخدم الأسرة القروية آخر حبوب العام الماضى لخبز الخبز غير المخمر لمناسبة العيد، الذى يواكب موسم الحصاد الجديد. ولكن فى حالة اليهود الأوروبيين ما بعد الأزمنة التلمودية، فإن التقيد بالسقانون كان قاسيا جدا على الأسر اليهودية من الطبقة المتوسطة وبصورة أكبر على تجار الحبوب، لذلك ابتكر «تخريج» جديد، يتيح بيع جميع هذه المواد صوريا للأغيار قبل قدم العيد، ثم تعاد بعد ذلك لم آليا. المهم فقط هو الاحتفاظ بهذه المواد فى مكان مغلق خلال فترة العيد.

(١) فى شتاء عام ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦، شاركت فى هذا وكنت صبياً فى الثالثة عشرة من العمر، وكان المسئول عن العمل الزراعى فى المدرسة الزراعية اليهودية التى كنت أدرس بها يهوديا ورعا جدا، لذا فكر أنه من الأفضل استخدام طفل يتيم دون الثالثة عشرة للقيام بهذا العمل المهم، أى جذب الغطاء، لأنه غير قادر على القيام بذلك بنفسه «الطفل فى هذه السن قادر على المعصية، ويعتبر والده إذا كان حيا مسئولا عن تلك المعصية».

في إسرائيل هذه الصفقات الوهمية أصبحت أكثر فاعلية، اليهود المتدينون «يبيعون» موادهم المخمرة إلى الحاخامات المحليين، الذين بدورهم يبيعونها إلى الحاخامات الكبار، وهؤلاء يبيعونها إلى الأغيار ومن خلال «تخريج» معين يفترض أن هذه الصفقة الوهمية تضم أيضاً المواد المخمرة لدى اليهود غير المتدينين.

٦ـ أغيار السبت: وربما تكون أكثر «التخريجات» تطوراً فيما يخص أغيار السبت sabbath goy وكما ذكرنا آنفا، فإن الأعمال المحرمة في السبت في اتساع متزايد، وأيضاً ظلت الأعمال التي يجب أن تنجز من أجل تلبية الاحتياجات أو زيادة الراحة في زيادة مطردة أيضاً. وينطبق هذا بصفة خاصة على الوقت الحالي، على الرغم من أن تأثير التغيرات التكنولوجيا كان واضحاً منذ زمن بعيد. إن التحريم ضد الطحن في السبت كان بالقياس أمراً بسيطاً بالنسبة لفلاحي اليهود أو الحرفيين، في فلسطين القرن الثاني، مثلا لدى الذين استخدموا مطحنة يدوية من أجل أغراض منزلية، ولكن الأمر كان مختلفا تماما بالنسبة لصاحب مطحنة هوائية أو مائية ـ واحداً من أكثر المهن شيوعا في أوروبا الشرقية ـ وهناك مشكلة أخرى إنسانية أكثر بساطة، مثل الرغبة في الحصول على فنجان شاي ساخن مساء يوم السبت، التي تصبح أكثر إغراء مع وجود السماور الذي يستخدم باستمرار في أيام الأسبوع، والمنتصب في الغرفة، تلك فقط مشكلة بسيطة لعدد لا يحصى من المشاكل الناجمة عن التقيد بشعائر السبت، ويمكنني أن أذكر يقينا أنه في مجتمع مشكل قصريا من اليهود الأورثوذكس، كانت مشاكل غير قابلة للحل تماما، على الأقل خلال القرون الثمانية أو العشرة الماضية، فدون مساعدة من الأغيار، ويصدق هذا الآن أكثر في «الدولة اليهودية»، لأن العديد من الخدمات العامة مثل الماء، والغاز والكهرباء تدخل في هذا الباب، فاليهودية الكلاسيكية بذلك لم يمكنها العيش حتى ولو لأسبوع واحد دون استخدام الأغيار.

ولكن دون هذه «التخريجات» كان هناك عائق عظيم في عمالة الأغيار للقيام بمهام السبت تلك لأن الشرائع التلمودية تحرم على اليهود طلب أي شيء من الأغيار محرم على اليهود أنفسهم[١] القيام به في السبت. وسوف أصف

(١) مثلاً يحرم على اليهودي الاستمتاع بضوء شمعة أشعلها أحد الأغيار يوم السبت، إلا إذا كان ذلك الشخص قد أشعلها لنفسه قبل دخول اليهودي الغرفة عليه.

إثنين من أنواع عديدة من «التخريجات» التى استخدمت لهذه الأغراض.

أولاً، هناك طريقة «التلميح» التى تعتمد على منطق التحايل على الشرائع، فتصبح طبقاً لها الحاجة الآثمة بلا إثم، ربما إذا مورست بخبث. وكقاعدة عامة، يجب أن يكون «التلميح» «غامضا» أو مبهماً ولكنه فى الحالات التى تكون فيها الحاجة ملحة، فإنه يمكن استفهام تلميح «واضح» على سبيل المثال، فى كتيب دينى حديث به القواعد الدينية موجه للجنود الإسرائيليين، يتعلم منه الجنود كيف يتكلمون مع العمال العرب الذين يستخدمهم الجيش على أنهم أغيار السبت، يمكن فى الحالات الحرجة، عندما يكون الجو بارداً جداً ويجب إشعال نار، أوعندما يكون مظلماً وهناك حاجة إلى الضوء من أجل إقامة الصلاة العامة، فإن الجندى اليهودى التى قد يستخدم تلميح «واضح» ويقول للعربى: إن الجو بارد أو «مظلم» هنا، ولكن عادة يكون التلميح المبهم واف بالغرض، على سبيل المثال، «سيكون الوضع أفضل كثيراً إذا كان الجود أدفأ هنا»[١]، إن هذه الطريقة من «التلميح» كريهة ومهنية إلى حد كبير.. نظرا لأنها تستخدم عادة مع غير اليهود الذين، بسبب فقرهم أو مكانتهم الاجتماعية الثانوية، من قبل مستخدميهم اليهود، فالخادم غير اليهودى أو الأجير فى الجيش الإسرائيلى، الذى لا يدرب نفسه على فهم «التلميحات المبهمة» التى يؤمر بها يطرد بلا شفقة من عمله.

الطريقة الثانية تستخدم يوم السبت فى الحالات التى لا يكون مطلوب من غير اليهودى القيام بأعمال طارئة أو خدمات شخصية يمكن «التلميح» بها، ولكن المطلوب القيام بأعمال روتينية منتظمة لا تحتاج إلى إشراف يهودى دائم، وطبقا لهذه الطريقة، التى يطلق عليها «التضمين الضمنى» (havlaah) ليوم السبت، يستخدم أحد الأغيار «لكل أيام الأسبوع أو العام.. دون أن يذكر السبت تحديداً فى عقد العمل، ولكن فعليا العمل المطلوب يؤدى فقط فى السبت.

(٢٠) استخدم أحد أعمامى فى وارسو قبل عام ١٩٣٩، طريقة أكثر دهاء، فقد استخدم خادمة غير يهودية تدعى ماريسا، وكان من عادته عند الاستيقاظ من قيلولة الظهيرة يوم السبت أن يقوم أو لا بصوت واطىء.. كم سيكون رائعا لو «ثم يرفع صوته إلى حد الصراخ»، أحضرت ماريسا فنجانا من الشاى، وكان ينظر بورع وخشية للرب ولم يحلم أبداً أن يأخذ ولو قطرة من حليب بعد ست ساعات كاملة من آكل اللحم وفى مطبخه كان يحتفظ بحوضين للغسيل، واحد لغسل الأطباق المستعملة للحم، والآخر للحليب.

وقد استخدمت هذه الطريقة فى الماضى فى استخدام أحد الأغيار لإطفاء شموع الكنيس بعد صلاة عشية السبت «بدلاً من تركها مهدرة ومشتعلة حتى نهايتها»، وتستخدم حالياً فى إسرائيل فى تنظيم إمدادات المياه أو مراقبة مستودعات المياه فى أيام السبت[1].

فكرة شبيهة أيضاً تستخدم فى حالة اليهود، ولكن لغرض مختلف، إذا يحظر على اليهود الحصول على أى أجر مقابل عمل قاموا به في السبت، حتى ولو كان العمل نفسه مباحا. والمثال الرئيسى هنا يخص المهن المقدسة: الحاخام أو العالم التلمودى، الذى يخطب أو يعظ أو يحلم يوم السبت، وقائد جوقة الترتيل الذى يعمل فقط فى السبت والأيام المقدسة فقط «التى تنطبق عليها محرمات أخرى أيضاً»، والقند لفت، إضافة إلى مهن أخرى شبيهة، كانت تلك الأعمال فى الأزمنة التلمودية وفى بعض البلدان بعد الأزمنة التلمودية بقرون عديدة، غير مدفوعة الأجر، ولكن فيما بعد، عندما أصبحت هذه المهن لها أجور، فإن وضع «تخريج» «للتضمين الضمنى» قد تم فى توظيفهم على أساس «الشهر» أو «العام»، وفى حالة الحاخامات وعلماء التلمود فإن المشكلة كانت معقدة إلى حد كبير، لأن التلمود يحرمهم من الحصول على يأى أجر نظير العظمة أو المدرس الأمور التلمودية حتى فى بقية أيام الأسبوع[2]، ومن أجلهم تم ابتكار «تخريج» إضافى يقتضى أن تكون أجورهم ليست أجورا على الإطلاق، ولكنها «تعويض بطالة» dmey batalah، وعلى هذا الأساس، فإنهم يحصلون فى الواقع على أجر مقابل العمل الذى يقومون به فى الدرجة الأولى فى السبت، ولكن فى صيغة تعويض عن بطالتهم فى أيام الأسبوع.

(١) أحيانا تقع أخطاء مؤسفة، لأن بعضا من هذه الأعمال شديدة اليسر، تسمح للمستخدم أن يحصل على ستة أيام عطلة فى الأسبوع وفى قرية بنى براك «قرب تل أبيب»، التى يسكنها غالبية من اليهود الأرثوذكس، هزتها فى الستينيات فضيحة مخلجة، فبعد موت أحد أغيار السبت، الذى استخدم لأكثر من عشرين عاما لمراقبة إمدادات المياه فى السبت، اكتشفت أنه لم يكن مسيحياً ولكن يهوديا، ولذلك فإنه عندما استخدم خليفة له درزى، طالبت القرية من الحكومة الحصول على وثائق تفيد أن الموظف الجديد من أحد الأغيار من سلالة نقية وقد أشيع وقتها أنهم طلبوا من الشين بيت تقصى حقيقة انتساب المستخدم الجديد للأغيار.

(٢) من ناحية أخرى، يتم القيام بالتعليم الابتدائى للتوراه مقابل أجر، وقد اعتبر دوما هذا العمل قليل القيمة وسىء المردود من الناحية المادية.

الظاهر الاجتماعية للتخريجات

هناك ملمحان اجتماعيان لهذه التخريجات وهى تحتاج إلى اهتمام خاص، أولاً أن الملمح المهيمن على هذا النظام من التخريجات، وفى اليهودية الكلاسيكية، نظرا للاعتماد عليهما، هى خداع، خداع للرب فى المقام الأول، من جانب الحاخامات، إذا كان بالإمكان استخدام هذه الكلمة للكيان المتخيل، الذى يعتقد الحاخامات أنهم أكثر ذكاءاً منه. ولا يوجد فرق أعظم يمكن تصورد، أكثر مما بين رب التوراه «خاصة إله الأنبياء العظام» وإله اليهودية الكلاسيكية.

فالأخير أشبه بالإله جويتر لدى الرومان، الذى كان على نفس النمط يتم خداعه من قبل عبادة، أو الآلهة الآخرين الذين ذكروا فى «الغصن الذهبى» لفريزر، من الناحية الأخلاقية، فإن اليهودية الكلاسيكية، تقدم حالة من الانحطاط الفكرى أو الأخلاقى، مازالت جارية، وهذا الانحلال يؤدى إلى مجموعة قبلية من الطقوس الفارغة والخرافات السحرية، كانت لها نتائج اجتماعية وسياسية غاية فى الأهمية ومن أجلها يجب أن نذكر أنها على وجه التحديد الخرافات الخاصة باليهودية الكلاسيكية التى لها القبضة العظمى على الجماهير اليهودية، بدلاً من هذه الأجزاء من التوراة، أو حتى التلمود، الذى يحمل دينا حقيقيا وقيما أخلاقية «نفس الشىء يمكن أيضاً أن يلاحظ فى الديانات الأخرى، التى هى الآن تجتاز يقظة الروح الدينية».

إن صلاة «كول يندرى» (kol Nidrey) التى تعد أكثر المناسبات الدينية تقديسا وجلالة فى السنة اليهودية المقدسة، ويحضرها حتى اليهود البعيدون تماما عن الدين، تلك الصلاة التى تتم عشية يوم عيد الغفران، يذكر فيها تراتيل ناجمة عن تخريجات منافية للعقل وخادعة، تعلن فيها مقدما كل النذور المكرسة للرب فى العام التالى، حتى تصبح باطلة وبلا قوة شرعية ملزمة[(١)].

وفى مجال العبادة الشخصية، فإن صلاة «قاديش» (Qadis) التى تتلى فى صباح أيام الحداد من قبل الأبناء لصالح أبويهم حتى ترفع أرواحهم إلى الجنة - عبارة عن تلاوة بالنص الآرمى مهمة لدى الغالبية العظمى من اليهود. ومن

(١) طقس «مهم جداً» آخر هو النفخ فى قرن كبش فى رأس السنة، من أجل تضليل الشيطان.

الواضح جدا أن الاهتمام الشائع بهذه الأجزاء الأكثر خرافة فى الدين اليهودى، لا يمنح بنفس القدر للأجزاء الأفضل منه.

وبالإضافة إلى خداع الرب، يأتى أيضاً خداع اليهود الآخرين، خاصة فيما يخص مصالح الطبقة اليهودية الحاكمة، فمن الواضح جدا أنه لم يسمح بأى «تخريج» دينى يخص مصالح فقراء اليهود، على سبيل المثال، اليهود الذين كانوا يعانون الجوع ولكنهم واقعيا لم يصلوا إلى مرحلة الموت جوعا لم يسمح لهم أبداً من قبل حاخاماتهم، «الذين لم يتعرضوا عادة للجوع» بتناول أى نوع من الطعام المحرم، سوى طعام الكوشير، الذى هو دائما شديد الغلاء.

الملمح الثانى المهيمن على هذه «التخريجات» أنها كانت إلى حد كبير، مرتكزة على روح الفائدة المادية، وهذا هو التزاوج ما بين الرياء ودافع الربح، الذى هيمن بشكل متزايد على اليهودية الكلاسيكية، وفى إسرائيل، حيث تستمر هذه العملية، فإن الرأى العام يفهم هذه القضية بشكل مبهم، على الرغم من جميع عمليات غسل الدماغ الرسمية التى يروج لها النظام التعليمى والإعلامى. لذا فإن المؤسسة الدينية ـ الحاخامات ـ والأحزاب الدينية ـ وإلى حد ما المجتمع الأرثوذكسى بأكمله، لا تحظى بشعبية كبيرة داخل إسرائيل، وواحد من أهم الدوافع وراء ذلك هو سمعتهم الشهيرة من الازدواجية والقابلية للرشوة. وبالطبع فإن الرأى العام «الذى قد يكون غالبا مجحفاً» شىء والتحليل الاجتماعى شىء آخر، ولكن فى هذه القضية تحديدا، فإن المؤسسة الدينية اليهودية، لديها نزعة كبيرة نحو التحايل والابتزاز بطرق غير شرعية، ونتيجة للتأثير الفاسد للديانة اليهودية الأرثوذكسية، ولأنه فى الحياة العامة الاجتماعية، الدين الوحيد الذى له تأثيرات اجتماعية، فإنه أثره على الجماهير المؤمنة ليس عظيما جدا تقريبا، كما هو على الحاخامات وزعامات الأحزاب، الدينية. هؤلاء اليهود المتدينون فى إسرائيل هم بسطاء، مع أن غالبيتهم ليسوا كذلك بلا شك، وهم ليسوا كذلك بسبب تأثرهم الدينى بالحاخامات، ولكن على الرغم من هذا، فإنه من الناحية الأخرى، ففى تلك المجالات المحدودة من الحياة العامة فى إسرائيل التى تهيمن عليها تماما الدوائر الدينية، فإن مستوى التحايل والخداع والابتزاز ينتشر جدا، ويتجاوز إلى حد كبير «المتوسط العام» الذى يتعايش معه المجتمع الإسرائيلى العام غير المتدين.

فى الفصل الرابع، سوف ترى كيف أن هيمنة الدافع النفسى فى اليهودية الكلاسيكية، كان مرتبطاً ببنية المجتمع اليهودى، واتسامة مع المجتمع العام الذى عاش فيه اليهود فى الفترة «الكلاسيكية»، هنا أريد فقط التوضيح أن الحافز النفعى لم يكن مميزا لليهودية فى جميع فترات تاريخها . ولا تخفى هذه الحقيقة سوى التشوش الأفلاطونى، الذى بحث عن «روح» يهودية ميتافيزيقية سرمدية لليهود بدلا من رؤية التغيرات التاريخية فى المجتمع اليهودى.

هذه الفوضى الأفلاطونية قد شجع عليها إلى حد كبير الصهيونية باعتمادها على «الحقوق التاريخية» التى استمدتها من خلال طريقه لا تاريخية أخذت من التوراة، لهذا فإن العديد من المدافعين عن الدعاوى اليهودية، بشكل صحيح تماما، يدعون أن التوراة معادية للدافع النفعى، فى حين أن التلمود لا يبالى بذلك، ولكن هذا قد حدث نتيجة للأوضاع الاجتماعية المختلفة تماما، والتى شكلت هذه الأوضاع.

وكما ذكرنا آنفا، فإن التلمود مؤلف من منطقتين محددتين بدقة فى الفترة التى كان فيها اليهود يشكلون مجتمعا يعتمد على الزراعة ومؤلف أساسا من الفلاحين - وهو مختلف تماما بالتأكيد عن مجتمع اليهودية الكلاسيكية، وفى الفصل الخامس سوف نتناول بالتفصيل ا لمواقف العدائية والممارسات الخادعة التى مارستها اليهودية الكلاسيكية ضد غير اليهود.

ولكن الأهم كمظاهر اجتماعية هو الخداع الذى كان دافعه نفعياً والذى مارسه اليهود الأثرياء ضد اليهود الفقراء «مثل التخريج الخاص بالفوائد على القروض»، هنا، تجدر الإشارة، أنه على الرغم من معارضتى للماركسية سواء كنظرية فلسفية أو اجتماعية، فإن ماركس كان محقاً تماماً، فى مقاليه حول اليهودية، عندما وصفها بأنها يهيمن عليها البحث عن الربح - وقد اشترط أن هذا كان قصرا على اليهودية كما يعرفها هذا بالنسبة لليهودية الكلاسيكية، التى كانت فى شبابه، قد دخلت بالفعل فى فترة إغلالها، حقا أنه ذكر ذلك على نحو اعتباطى ولا تاريخى ودون دليل، ولكنه بوضوح جاء باستنتاجه من خلال الحدس، وكان حدس هذه المرة مع التحديد التاريخى المناسب، صحيحاً.

الفصل الرابع
وطأة التاريخ

لقد كتب قدر كبير من الأكاذيب فى محاولة لتقديم تفسير اجتماعى أو باطنى لليهود أو اليهودية بشكلها العام، غير أن هذا لا يمكن القيام به، حيث إن البنية الاجتماعية للشعب اليهودى والبنية الإيديولوجية لليهودية قد تغيرت بعمت عبر العصور، ومع ذلك يمكن تحديد أربع مراحل مميزة:

١ـ مرحلة الممالك القديمة لإسرائيل ويهوذا القديمتين، حتى تدمير الهيكل الأول «٥٨٧ق.م» والنفى البابلى. «الكثير من العهد» القديم يهتم بهذه الفترة، على الرغم من أن الأسفار الكبرى من العهد القديم وحتى الأسفار الخمسة الأولى كما نعرفها، قد وضعت فعليا بعد هذا التاريخ، اجتماعيا، هذه الممالك اليهوية القديمة كانت شبيهة تماما بالممالك المجاورة لفلسطين وسوريا ومع قراءة متأنية للإسفار النبوئية نجد نفس التشابه يمتد نحو الطقوس الدينية التى يمارسها الغالبية العظمى[1].

والأفكار التى كانت تمثل نموذجا لليهودية المتأخرة بما فى ذلك على وجه الخصوص العزل العرقى تفرد هم بالتوحيد ـ كانت فى هذه المرحلة مقصورة على دوائر صغيرة من رجال الدين والرسل الذين اعتمدوا فى تأثيرهم الاجتماعية على الدعم الملكى.

٢ـ مرحلة المراكز الثنائية، فلسطين وبابل منذ بداية «العودة الأولى من بابل» ٥٣٧ ق.م حتى حوالى ٥٠٠ ب.م وقد تميزت بوجود هذين المجتمعين اليهوديين المتمتعين بالحكم الذاتى، وكلاهما اعتمد فى المقام الأول على الزراعة وكانت «الديانة اليهودية» كما سبق أن أشرنا بالتفصل فصلت بعناية بالغة داخل الدوائر الكهنوتية والنساخ، وتم فرضها بقوة وسلطة الامبراطورية الفارسية.

ويحتوى سفر عزرا EZRA فى العهد القديم على عدد من الأنشطة التى

(١) انظر أرميا، ٤٤، مثلا، خاصة الآيات ١٥ ـ ١٩ ومن أجل مراجعة أكثر دقة راجع: Raphael parai.the Hebrw Goddes, Ktav, u.s.a.1967

مارسها عزرا الكاهن «الكاتب الماهر فى شريعة موسى» الذى منحه أرتحشستا الأول ملك فارس، سلطة وضع «الأحكام والقضاه» على يهود فلسطين «الذى لن يطبق شريعتك ربك، وقانون الملك، فليقض عليه الحكم عاجلاً، إما بالموت، أم بالنفى، أو مصادرة الممتلكات أو السجن[(١)].

وفى سفر نحميا Nehemiah ساقى الخمر للملك أرتحشستا، الذى اختار حاكما فارسيا على يهودا، مع المزيد من السلطات - نرى إلى أى حد كان الإكراه الخارجى «حاليا قد نطلق عليه الإمبريالية» يستخدم فى فرض الديانة اليهودية، مما أسفر عن نتائج لا تزول.

فى كلا المركزين، واصل الحكم الذاتى اليهودى استقلالية بثبات وعناد وعزم خلال معظم هذه الفترة، وتم قمع أى انحرافات عن الأرثوذكسية الدينية.

والاستثناءات التى حادت عن هذه القاعدة، عندما أصيبت الارستوقراطية الدينية بـ «عدوى» الأفكار الهلينية[(*)] «من ٣٠٠ إلى ١٦٦ ق.م، ومرة أخرى تحت حكم هيرود الأكبر وخلفائه من ٥٠ ق.م إلى ٧٠ ب.م» أو عندما تعرضت للتمزق كنتيجة إلى تطورات جديدة «على سبيل المثال، الانقسام بين الحزبين الكبيرين الفريسيين والصدوقيين [(*)]، الذى وقع حوالى ١٤٠ ق.م»، رغم ذلك، ففى اللحظة التى ينتصر فيها أى من الحزبين كانت تستخدم مرة أخرى الآلية القسرية الكامنة فى مجتمع الحكم الذاتى اليهوى «أو لفترة قصيرة من الوقف، مجتمع الاستقلال» من أجل فرض آرائها الدينية الخاصة على جميع اليهود فى المركزين.

خلال معظم ذلك الوقت، خاصة بعد انهيار الامبراطورية الفارسية وحتى حوالى ٢٠٠ ب.م، كان اليهود خارج المركزين يتحررون من الإكراه الدينى

(١) عزرا، ٧، ٢٥ - ٢٦. يختص الإصحاحان الأخيران من هذا السفر بإظهار جهود عزرا فى فصل اليهود «الخالصين» أصحاب «البذرة المقدسة» بعيداً عن «شعب الأرض»، «الذين كانوا أنفسهم جزئياً، على الأقل، من نسل يهودى، ويضع حدا للزواج المختلط.

(*) فى محاكاة للفكر الإغريقى ومحاولة للتشبه بالعادات والممارسات الإغريقية القديمة. «المترجمة»

(*) الصدوقيين: طائفة يهودية ترجع إلى عدة قرون قبل قدوم المسيح، وفى زمن المسيح أنكرت الحشر ووجود الملائكة، وتعاونت مع الهيلينيين ثم الرومان لحفظ مكان، ثم اختفت بعد تحطيم الهيكل «المترجمة».

اليهودى، ومن بين البرديات المحفوظة فى الفنتين «بمصر العليا» هناك خطاب يعود تاريخه إلى ٤١٩ ب.م، يحوى نصاً مرسوماً من الملك داريوس الثانى الفارسى، ينص على أنه يجب على يهود مصر احترام عيد الفصح[١].

غير أن الممالك الهيلينية، والجمهورية الرومانية والإمبراطورية الرومانية المبكرة لم تزعج نفسها بمثل هذه الأشياء.

إن الحرية التى حظى بها اليهود الهيلينين خارج فلسطين، سمحت بابتكار الأدب اليهودى المكتوب بالإغريقية، والذى كان مرفوضا فيما بعد من قبل يهود توتو، فى حين حفظت المسيحية بقاياه[٢]، وقد كان صعود المسيحية ممكنا فقد بسبب هذه الحرية النسبية المرتبطة بالمجتمعات اليهودية خارج المركزين.

وكانت تجربة الحوارى بولص مميزة فى هذا السياق: ففى كورنثيوس، عندما اتهم المجتمع اليهودى المحلى بولص بالهرطقة، فإن الحاكم الرومانى غاليو، رفض النظر فى الدعوة معترضا على أن يكون «قاضى فى مثل هذه المشاكل[٣]»، ولكن فى يهودا، شعر الحاكم فيستوس، بضرورة الالتزام بالنظر فى الدعوى التى كانت نزاع دينى داخلى خاص باليهود[٤]، وفى حوالى ٢٠٠ ب.م، كان هذا التسامح قد وصل إلى مداه، عندما فرض الدينى اليهودى، الذى كان فى هذا العصر متطورا ومتوسعا فى فلسطين، من قبل السلطات الرومانية على جميع يهود الإمبراطورية[٥].

٣- المرحلة التى حددناها بأنها اليهودية الكلاسيكية، وسوف تناقش فيما بعد[٦].

---

(١) راجع: W.F. Albright, Recent Discoveris In Bible Lands, Funk and Waghall, Nes York, 1955, p.103.

(٢) من الملاحظ أيضاً، أنه بالإضافة إلى هذه المجموعات الأدبية، فإن جميع الكتب التاريخية التى وضعها اليهود بعد حوالى ٤٠٠ ق.م، كانت أيضاً تمنع من قبل اليهود. وفى القرن التاسع عشر، ظل اليهود جاهلين تماما بقصة المسادا وشخصيات مثل يهود المكابى، الذى يعتبرها الكثيرون «خاصة من المسيحيين»، تنتمى إلى الجوهر الخالص لليهودية.

(٣) الأعمال ١٨ ـ ١٥.

(٤) راجع نفس المصدر ٢٥.

(٥) أنظر الملاحظة رقم ٢ من هوامش الفصل الثانى

(٦) بالنسبة لليهودية الكلاسيكية، راجع الملاحظات رقم ١ فى الفصل الثانى ورقم ١ فى الفصل الثالث.

٤ـ المرحلة الحديثة، التى تتميز بانهيار المجتمع اليهودى الديكتاتورى وسلطته، وبمحاولات لإعادة فرضه، والتى كانت من أبرز نتائجها ظهور الصهيونية فى القرن السابع عشرة فى فرنسا والنمسا «باستثناء هنغاريا» فى نهاية القرن الثامن عشر، وفى معظم الدول الأوروبية الأخرى فى منتصف القرن التاسع عشر، وفى بعض البلدان الإسلامية فى القرن العشرين «كان يهود اليمازالوا يعيشون المرحلة الكلاسيكية القروسطية فى عام ١٩٤٨»، وسوف نذكر بعضاً من الأشياء التى تخص هذه التطورات فيما بعد.

بين المرحلة الثانية والثالثة من اليهودية الكلاسيكية، كانت هناك فجوة زمنية استمرت لعدة قرون، ومعرفتنا الحالية بيهودها والمجتمع اليهودى فيها شديد السطحية، والمعلومات الشحيحة التى لدينا جميعها مأخوذة من مصادر خارجية غير يهودية. وفى عالم المسيحية اللاتينية، لا توجد لدينا إطلاقاً أى تسجيلات يهودية مكتوبة حتى منتصف القرن العاشر، تصبح المعلومات اليهودية الداخلية، متاحة بغزارة فقط فى القرن الحادى عشر، وغالباً من الأدب الدينى، قبل هذا، نعتمد تماما أولا على الرومان ثم الأدلة المسيحية أما فى البلدان الإسلامية فلا نجد تلك الفجوة المعلوماتية كبيرة بهذا القدر، ومع هذا، فإن القليل جدا يعرف عن المجتمع اليهود مستقبل ٨٠٠ ب.م، وحول التغيرات التى لابد أنه خضع لها خلال القرون الثلاثة السابقة.

الملامح الرئيسية لليهودية الكلاسيكية

دعونا إذن نتجاهل تلك «العصور المظلمة» ونبدأ بالقرنين العاشر والحادى عشر، حيث تتوافر عنهما معلومات غزيرة متاحة من مصادر داخلية وخارجية حول جميع المراكز اليهودية المهمة، شرقا وغربا، فاليهودية الكلاسيكية التى كانت بوضوح قابلة للتميز فى هذه الفترة، خضعت لتغيرات محدودة جداً منذ هذا الوقت مازالت فى هيئة اليهودية الأرثوذكسية» تشكل قوة مؤثرة حتى اليوم.

كيف يمكن تحديد صفات هذه الكلاسيكية اليهودية؟

وما هى الاختلافات الاجتماعية التى ميزتها عن المراحل المبكرة لليهودية؟

أعتقد أن هناك ثلاثة ملامح أساسية:

١ـ المجتمع اليهودى الكلاسيكى لم يكن به فلاحون، وهو بهذا مختلف تماما

عن المجتمعات اليهودية السابقة فى المركزين فلسطين وبلاد الرافدين. ومن الصعب علينا، من العصور الحالية أن نفهم ما الذى يعنيه هذا تماما، لذا فإن علينا أن نبذل جهدا فى تصور كيف كانت القنانة، والاختلاف الكبير فى معرفة القراءة والكتابة، إذا تجاوزنا عن ذكر التعليم، وبين القرية والمدنية خلال هذه الفترة، الحرية الكبيرة غير المسبوقة التى تتمتع بها جميع الأقليات الصغيرة، التى لم تكن مكونة من فلاحين لإدراك هذا الأمر، خلال طول فترة اليهودية الكلاسيكية، لقد شكل اليهود على الرغم من جميع أشكال الاضطهاد التى تعرضوا لها جزءا لا يتجزأ من الطبقات الثرية ذات الامتياز. والتأريخ اليهودى، خاصة فى انجلترا، مضلل فى هذه النقطة، بقدر ما ينزع إلى التركيز على الفقر اليهودى والتمييز العنصرى ضدهم، وكلاهما كان صحيحين فى هذه الأوقات، ولكن أفقر حرفى يهودى أو بائع متجول، أو وكيل صاحب أرض أو رجل دين مسكين، جميعهم كانوا أفضل بشكل لا جدال فيه من أن يكونوا مجرد قن «عبد أرض». وكان هذا صحيحا بصفة خاصة فى البلدان الأوروبية التى استمرت فيها القنانة حتى القرن التاسع عشر، سواء جزئياً أو كليا: بروسيا، النمسا «بما فى ذلك هنغاريا»، بولندا أو الأراضى البولندية التى أخذتها روسيا ومما له مغزى أن الغالبية العظمى من اليهود، قبل بداية الهجرة اليهودية الكبرى فى العصور الحديثة «حوالى ١٨٨٠، كانوا يعيشون فى هذه المناطق وأن من أهم أعمالهم هناك «كانت تتم عن طريق التوسط» ممارسة الاضطهاد على الفلاحين لصالح النبلاء والتاج.

فى كل مكان، أظهرت اليهودية الكلاسيكية كراهية ورفضا للزراعة كعمل وللفلاحين كطبقة، حتى أكثر من كراهيتها للأغاير، كراهية على حد علمى لم يوجد لها مثيل فى المجتمعات الأخرى. ويتضح هذا فورا لأى شخص على علم بالأدب اليديشى أو العبرى فى القرنين التاسع عشر والعشرين[١].

إن معظم الاشتراكيين اليهود فى أوروبا الشرقية «الذين هم أعضاء

---

(١) عجنون وباشيفيس الذين منحا جائزة نوبل، مثالين على هذا الأمر، وهناك مثال خاصة بياليك، الشاعر العبرى القومى، ففى قصيدته الشهيرة «أبى» يصف أبيه الذى يبيع الفودكا للفلاحين السكارى، الذين وصفهم بالحيوانات، وهذه القصدة تدرس فى جميع المدارس الإسرائيلية، وهى وسيلة لإبراز الموقف المعادى للفلاحين.

مهيمنون على الأحزاب والفرقة اليهودية» متهمون بأنهم لم يشيروا أبداً لهذه الحقيقة. وبالتأكيد فإن الكثير منهم كانوا ملطخين بمواقف عدائية ضارية ضد الفلاحين ورشوها من اليهودية الكلاسيكية. وبالطبع فإن «الاشتراكيين» الصهاينة، كانوا هم الأسوأ في هذه القضية، وآخرين مثل «البوند» لم يكونوا أيضاً أفضل كثيرا، وأفضل مثال على ذلك مقاومتهم لتشكيل تعاونيات للفلاحين، التي كان يروج لها رجال الدين الكاثوليك، مدعين أن هذا «عمل معاد للسامية»، وهذا الموقف الذي بلا أي معنى مازال ساريا حتى الآن، ويمكن بوضوح رؤية الآراء العنصرية التي يحملها العديد من اليهود «المنشقين» في الاتحاد السوفيتي تجاه الشعب الروسي، وأيضاً غياب بحث هذه الخلفية من قبل العديد من الاشتراكيين اليهود، مثل إسحق دويتشر.

إن الدعاية العنصرية بكاملها مرتكزة على أساس السمو المفترض للمبادىء الأخلاقية والذكاء اليهودي «التي أسهم فيها كثير من الاشتراكيين اليهود»، وقد اقترنت بضعف في الحساسية والمشاعر تجاه هذا الجزء الرئيسي من البشر، الذين كانوا بصفة خاصة، مضطهدين خلال الألف عام الماضية.

٢ـ المجتمع اليهودي الكلاسيكي، كان يعتمد على وجه الخصوص على الملوك أو النبلاء ذوي السلطة.

في الفصل التالي سوف نناقش قوانين يهودية مختلفة موجهة ضد الأغيار، خاصة التي تأمر اليهود بشتم الأغيار والإحجام عن مدحهم أو مدح عاداتهم، وتسمح هذه القوانين فقط باستثناء وحيد هو: الملك غير اليهودي أو القطب المحلي غير اليهودي صاحب النفوذ «بالعبرية paritz وباليديشية pooretzy إذا يمتدح الملك ويصلي من أجله وهو مطاع ليس فقط فيما يخص الشئون المدنية ولكن في بعض الشئون الدينية أيضاً، وكما سنرى فإن الأطباء اليهود، الذين كانوا بشكل عام محرماً عليهم إنقاذ حياة الأغيار العاديين في السبت، أمروا أن يبذلوا قصارى جهدهم من أجل علاج الحكام وأصحاب السلطة، وقد يفسر جزئيا، لماذا كان وظف الملوك والنبلاء والباباوات، والمطارنة، الأطباء اليهود، وليس فقط الأطباء بل جامعي الضرائب والفروض من اليهود، أو «في أوروبا الشرقية» اعتمد على وكلاء أصحاب المزارع في بذل قصارى جهدهم من أجل صالح الملك أو البارون، بطريقة لم يكن متاحا دائما أن يقوم بها المسيحي.

كان الوضع القانونى للمجتمع اليهودى فى عصر اليهودية الكلاسيكية مرتكزا على «الامتياز»، براءة بحقوق وامتيازات تمنح من ملك أو أمير «أو فى بولندا بعد القرن السادس عشر، من نبيل ذى سلطة»، للمجتمع اليهودى ومعها منح بحقوق الحكم الذاتى، كان هذا يمح الحاخامات سلطة إملاء الأوامر على اليهود الآخرين، وقد تسبب جزء مهم من هذه الامتيازات - التى تعود إلى عصور موغلة القدم فى عهد الإمبراطورية الرومانية المتأخرة، فى ابتكار إكليروس يهودى معفى، مثل رجال الدين المسيحيين فى العصور الوسطى، مستثنى من دفع الضرائب للملك ومسموح له بفرض ضرائب على من هم تحت سيطرته - اليهود - لصالحه الشخصى.

ومن المثير أن نذكر أن هذا الاتفاق بين الامبراطورية الرومانية والحاخامات، يعود إلى زمن سابق على الأقل بمئة سنة، من نفس الامتيازات التى منحت من قبل قستنطين الأكبر وخلفائه إلى الإكليروسى المسيحى.

ومنذ حوالى عام ٢٠٠ ب.م وحتى القرن الخامس، فإن الوضع القانونى لليهود فى الإمبراطورية الرومانية المتأخرة، كان كالتالى، بطريرك يهودى وراثى «متمركز فى طبريا بفلسطين» تميز بكونه صاحب مقام رفيع فى التسلسل الهرمى الرسمى فى سلم الوظائف الإمبراطورية، ورئيس أعلى لجميع اليهود فى الإمبراطورية[١٠]، أما من ناحية مركزه كموظف رومانى فإن البطريرك كان فى الواقع منتميا لنفس الطبقة الرسمية العليا التى تضم القناصل(*)، وأعلى القادة العسكريين لـ «الإمبراطورية» وجميع كبار الوزراء المحيطين بالعرش «المجتمع المقدس» ولا يفوقه من حيث الأهمية سوى الأسرة الإمبراطورية -pa triarch وفى الواقع فإن البطريرك اللامع Illystrious «كما كان يتم وضعه دائما فى المراسيم الإمبراطورية» وقد أعدم ثيودوسيوس الأول الأكبر،(*) وكان مسيحى أرثوذكسيا ورعاً، حاكم فلسطين لأنه أهان البطريرك.

(١) فيما يتعلق بالسلطة المركزية للبطريركية اليهودية، ألغيت الصفقة من جانب ثيود وسيوس الثانى عبر سلسلة من القوانين بلغت ذروتها عام ٢٤٩م، ولكن ظلت العديد من الترتيبات المحلية الأخرى سارية.

(*) القنصل أحد الحاكمين الرئيسيين فى جمهورية روما القديمة.

(*) ثيودوسيوس الأول الأكبر ٣٤٧ - ٣٩٥م امبراطور رومانى قسم الإمبراطورية إلى شرقية وغربية «المترجمة».

في نفس الوقت، فإن جميع الحاخامات الذين كان يجب تعيينهم من قبل البطريرك، كانوا أيضاً معفين من معظم الضرائب الرومانية الجائرة ويحصلون على العديد من الامتيازات الرسمية، مثل الإعفاء من الخدمة في مجالس الدولة «أحد أوائل الامتيازات التي منحت لرجال الدين المسيحيين فيما بعد»، في المقابل كان للبطريرك سلطة فرض الضرائب على اليهود وحفظ الأمن بينهم بفرض غرامات مالية والجلد وأشكال أخرى من العقاب، وقد استخدم البطريرك هذه السلطة من أجل قمع الهرطقة اليهودية. و«كما نعرف من التلمود» من أجل مضايقة «الوعاظ اليهود الذين كانوا يتهمونه بفرض ضرائب على فقراء اليهود من أجل مصالحه الشخصية».

ونعرف من مصادر يهودية، أن الحاخامات المعففيين من الضرائب، قد استخدموا الحرمان الديني ووسائل أخرى، من أجل تقوية السيطرة الدينية للبطريرك، ونسمع أيضاً بشكل غير مباشر غالبا، عن الكراهية والازدراء التي كانت تعتمل في صدور الكثير من الفلاحين اليهود والفقراء في فلسطين ضد الحاخامات، وكذلك ازدراء الحاخامات للفلاحين اليهود «الذين كانوا يبرزونه عادة على أنه ازدراء للجهلة» ومع هذا فإن هذا الترتيب الكولونيالي تماما، قد استمر بفعل مساندة قوية من الإمبراطورية الرومانية، وقد وجدت ترتيبات مشابهة في كل المدن خلال فترة اليهودية الكلاسيكية، وقد تنوعت تأثيراتها الاجتماعية على المجتمعات اليهودية، نظرا لحجم كل مجتمع، ففي أماكن تواجد قلة من اليهود، كان هناك بشكل مساو تمايزات اجتماعية أقل داخل المجتمع، الذي كان أميل لتشكل من يهود أثرياء ويهود الطبقة الوسطى، ومعظمهم لديهم معرفة جيدة بالتلمود - الحاخامي، ولكن في البلدان التي كانت بها أعداد اليهود كبيرة، حيث تظهر الطبقة الفقيرة من اليهود، كان نفس يفرض نفسه، ذلك الذي ذكرناه من قبل، ونلاحظ أن الطبقة الحاخامية، كانت تتحالف مع اليهود الأثرياء في اضطهاد اليهود الفقراء من أجل مصالحهم الشخصية، إضافة إلى مصالح الدولة - التي هي التاج والنبلاء.

وكان هذا هو الوضع، بصفة خاصة، في بولندا قبل عام ١٧٩٣ وسوف تشرح الظروف الخاصة باليهود البولنديين فيما بعد، ولكن هنا، أود فقط أن أشير إلى أنه بسبب تشكل مجتمع يهودي كبير في بولندا، فإن حالة من الانقسام العميق

بين الطبقة العليا اليهودية «الحاخامات والأثرياء» والجماهير اليهودية، قد تتطورت منذ القرن الثامن عشر واستمرت خلال القرن التاسع عشر. وبقدر ما كانت الطائفة اليهودية تتمتع بسلطة على اعضائها، فإن تم قمع الاحتجاجات الأولية لفقراء اليهود، الذين كان عليهم تحمل الوطأة الكبرى من الضرائب، وقد تم استخدام قوة مزدوجة لسلطة الإكراه الكامنة فى «الحكم الذاتى» اليهودى والوازع الدينى.

لهذا كله، فإن عبر الفترة الكلاسيكية «وأيضاً خلال العصور الحديثة» كان الحاخامات الأكثر ولاء وتحمسا للسلطة القائمة، وكلما ازداد النظام رجعية، زاد الدعم الحاخامى له.

٣ـ لقد عارض المجتمع اليهودى الكلاسيكى تماما المجتمع المحيط به من غير اليهود، ما عدا الملك «أو النبلاء عندما يتولون السيطرة على الدولة» وهذا سوف يوصف بإسهاب فى الفصل الخامس.

نتائج هذه الملامح الاجتماعية الثلاث، إذ جمعت معا تسهم إلى حد كبير فى تفسير تاريخ المجتمعات اليهودية الكلاسيكية سواء فى البلدان المسيحية أو الإسلامية.

لقد كان وضع اليهود أفضل دائماً، فى ظل أنظمة قوية حافظت على شكلها الإقطاعى، ولم يتطور لديها الوعى القومى، ولو حتى بمستوى بدائى، وقد كان أفضل كثيرا فى دول مثل بولندا قبل ١٧٩٥ أو الممالك الأيبيرية قبل النصف الثانى من القرن الخامس عشر، حيث قمعت عملية قيام أنظمة ملكية إقطاعية قوية، تستند إلى مرجع قومى، بصورة مؤقتة. فى الواقع فقد ازدهرت اليهودية الكلاسيكية بصورة أفضل، تحت حكم أنظمة قوية منفصلة فى معظم فئات المجتمع، وفى مثل هذه الأنظمة، كان اليهود يلعبون أحد أدوار الطبقة الوسطى، ولكن فى صورة مستقلة دائماً. لهذا السبب، فإنهم لم يعارضهم الفلاحين «الذين كانت معارضتهم فى هذا الوقت بلا قيمة»، إلا فى حالات حدوث ثورات، وذلك كان نادرا، ولكن وهذا الأهم، عارضتهم الطبقة المتوسطة غير اليهودية «التى كانت فى طور الصعود فى أوروبا» ومن القطاع الشعبى من رجال الدين، الذين كانوا محميين من قبل رجال الدين الأعلى والنبلاء.

ولكن فى هذه البلدان حيث، كان يتم كبح الثورات الفوضوية فإن النبلاء

دخلوا فى شراكة مع الملك «ومع جزء من البرجوازية على الأقل» فى حكم الدولة، التى اتخذت صورة قومية أو مناصرة للقومية، وهنا كانت مكانة اليهود تتدهور. يسرى هذا التصور على البلدان المسيحية والإسلامية على حد سواء، والآن سنورد بعض النماذج.

إنجلترا وفرنسا وإيطاليا

حيث إن الفترة الأولى لإقامة اليهود فى انجلترا كانت محدودة جدا، وارتبطت بتطور الحكومة الملكية الإقطاعية القومية، فإن هذا البلد يصلح للاستخدام كأفضل نموذج للتصور السابق. لقد جاء اليهود إلى انجلترا على يد ويليام الفاتح، كجزء من الطبقة الحاكمة النورماندية المتحدثة بالفرنسية، وللقيام بواجب أساسى هو منح القروض لهؤلاء الحكام الروحيين والمدنيين، الذين كانوا غير قادرين على دفع ديونهم الإقطاعية «التى كانت ثقيلة بصفة خاصة فى انجلترا، كما كانت تنتزع بطريقة أكثر عنفا من أى ملكية أوروبية أخرى فى هذا العصر»، وكان أعظم نموذج ملكى لهم هو هنرى الثانى، وشكلت «الماغناكارتا» بداية أفولهم، الذى استمر خلال أزمة البارونات مع هنرى الثالث. وقد جاء الحل المؤقت لهذه الأزمة من قبل إدوارد الثانى مع تشكيل برلمان ووضع نظام ثابت وعادى للضرائب، مع طرد اليهود.

بنفس القدر، ازدهر اليهود فى فرنسا خلال تشكل الإمارات الإقطاعية الكبرى فى القرن الحادى عشر والثانى عشر، بما فى ذلك الملكية التامة للأرض، وكان أبرز المؤيدين لها وسط الملوك الكابتن لويس «١١٣٧ ـ ١١٨٠» وعلى الرغم من شفقة المسيحية العميقة والمخلصة، فقد اعتبر يهود فرنسا فرساأن «بالعبرية parashimå، وقد حذرهم رابينوناتم، أعلى سلطة يهودية فى فرنسا، من قبول أى دعوة من حاكم إقطاعى للإقامة فى أراضيه، إلا إذا حصلوا على امتيازات شبيهة بتلك الخاصة ببقية الفرسان الآخرين، وبدأ وضعهم فى التدهور مع ظهور فيليب الثانى أغسطس، المنظم للتحالف السياسى والعسكرى بين التاج وحركة العوام المدنية الصاعدة،(*) وهبط هبوطا مريعا فى عهد فيليب

(*) حركة ثورة كوميون باريس: لجنة ثورية حلت محل بلدية باريس فى الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ وما لبثت أن استولت على السلطة العليا فى الدولة «المترجمة».

الرابع، الوسيم، الذى دعا لأول اجتماع للطبقات العامة فى فرنسا للحصول على دعم ضد البابا، وقد ارتبط العداء النهائى لليهود من فرنسا بأجمعها، بإنشاء النظام الملكى لجباية الضرائب، وظهور الشخصية القومية للنظام الملكى.

يمكن إعطاء أمثلة شبيهة من بلدان أوروبية أخرى، حيث كان اليهود يعيشون فى هذه الفترة، وسوف نحتفظ بأسبانيا المسيحية، وبولندا، من أجل دراسة أكثر تفصيلاً، نلاحظ أنه فى إيطاليا حيث الكثير من المدن التى كان لديها صورة من السلطة الجمهورية، كان يمكن إدراك نفس الوضع المذكور، فقد ازدهر اليهود خاصة فى الدول الباباوية، وفى الممالك الإقطاعية مثل التوءم صقلية ونابولى «حتى طردهم بأوامر أسبانية ١٥٠٠» وفى الجيوب الإقطاعية فى بيدمونت. ولكن فى المدن التجارية الكبرى والمستقلة مثل فلورنسا، كانت أعدادهم ضئيلة ودورهم الاجتماعى ثانويا.

العالم الإسلامى:

ينطبق نفس التصور على المجتمعات اليهودية خلال الفترة الكلاسيكية فى البلدان الإسلامية أيضاً، باستثناء حقيقة مهمة، هى أن طرد اليهود، كان يتعارض مع الشريعة الإسلامية لذا لم يكن الطرد معروفا هناك. «الشريعة الكاثوليكية لم تسمح أيضاً بطرد اليهود فى القرون الوسطى، ولكنها لم تمنع ذلك أيضاً».

لقد ازدهرت المجتمعات اليهودية خلال عصرها الذهبى الذائع الصيت، والذى يفسر اجتماعيا بطريقة خاطئة، لقد جاء العصر الذهبى اليهودى فى البدان الإسلامية تحت حكم أنظمة كانت معزولة عن الغالبية العظمى من الشعوب التى تحكمها وترتكز سلطتها على القوة السافرة وجيش من المرتزقة. وأفضل مثال على ذلك أسبانيا الإسلامية، التى كان فيها بصدق العصر الذهبى لليهود «فى الشعر العبرى والنحو والفلسفة.. إلخ»، ومع سقوط الخلافة الأموية فى أسبانيا بعد موت الحاكم الفعلى، المنصور عام ١٠٠٢، وإنشاء زمرة الطوائف المتعددة، التى اعتمدت جميعها على القوة الساخرة، برز نجم القائد اليهودى الشهير والوزير الأول لمملكة غرناطة صموئيل الرئيس «شموئيل هانغيد، المتوفى عام ١٠٥٦»، الذى كان أيضاً واحدا من أعظم شعراء العبرية على مر العصور، وقد اعتمد فى المقام الأول على حقيقة أن المملكة التى خدمها كانت استبدادية وذات

نظام يعتمد على القوة العسكرية البربرية الصغيرة التى تسيطر على المواطنين المتحدثين بالعربية.

وقد ساد وضع مشابه فى ممالك الطوائف العربية ـ الأسبانية الأخرى. وقد انحدر وقتها وضع اليهود إلى حد ما مع نشوء نظام المرابطبين «فى ١٠٨٦ ـ ١٠٩٠» وأصبح شديد التقلقل تحت حكم النظام القوى والشهير للموحدين الشعبى «بعد ١١٤٧» عندما نزح اليهود نتيجة للاضطهاد إلى الممالك الأسبانية المسيحية، حيث كانت قوة الملوك لاتزال سطحية.

ويمكن إبراز نفس الملاحظات، على دول الشرق الإسلامى، حيث كانت أول دولة يحقق فيها المجتمع اليهودى قدراً من التأثير السياسى العام، هى الإمبراطورية الفاطمية، خاصة بعد فتح مصر ٩٦٩، لأنها ارتكزت على حكم الأقلية الدينية الشيعية ـ الإسماعيلية. ويمكن ملاحظة نفس الظاهرة فى الدولة السلجوقية، التى اعتمدت على جيوش ذات نماذج إقطاعية قوات مرتزقة، وبشكل متزايد على العبيد «المماليك» وفى الدول التى أعقبتها.

إن فضل صلاح الدين على المجتمعات اليهودية، أو لا فى مصر، ثم فى أجزاء أخرى من هذه الإمبراطورية المتسعة، لا تعود فقط على صفاته الشخصية التسامح والإحسان والحكمة السياسية العميقة، ولكن أيضاً إلى ارتفاع سلطته كقائد ثورى لجيوش مرتزقة حديثة العهد فى مصر، ثم بعد ذلك كمنتزع لسلطة الأسرة التى خدمها هو ووالده وعمه من قبل.

ولكن ربما كان أفضل النماذج الإسلامية ـ حيث كان وضع اليهود أفضل مما هو عليه فى أي مكان آخر فى الشرق، منذ سقوط الإمبراطورية الفارسية القديمة ـ هو الإمبراطورية العثمانية، خاصة خلال أوج ازدهارها فى القرن السادس عشر[١]، وكما هو معروف تماما، فإن النظام العثمانى قد اعتمد كليا تقريبا على إقصاء تام للأتراك أنفسهم «ناهيك عن ذكر المسلمين الآخرين» من مواقع السلطة السياسية، ومن أهم قطاعات الجيش، أى القوات الانكشارية التى كانت تتكون من عبيد السلطان المولودين، أصلا كمسيحيين، والذين كان

(١) ربما كان هناك مثال آخر هو الامبراطورية البارثية «حتى ٢٢٥م» والتى لا يعرف الكثير عنها، ولكننا نعرف أن إقامة الإمبراطورية الساسانية الإيرانية القومية أدت إلى تدهور سريع لوضع اليهود.

يتم اختطافهم فى الطفولة وتعليمهم فى مدارس خاصة، وحتى نهاية القرن السادس عشر، لم يكن بإمكان أى تركى حر المولد أن يصبح جنديا انكشاريا، أو أن يتولى أى منصب حكومى هام. فى ظل هذا النظام فإن دور اليهود فى عالمهم كان شديد الشبه بهذا الدور الذى يلعبه الانكشارون فى مجتمعاتهم: وعلى هذا فإن وضع اليهود كان أفضل تحت حكم نظام منعزل سياسيا عن الشعب المحكوم. ومع دخول الأتراك أنفسهم «إضافة إلى بعض الشعوب الإسلامية الأخرى مثل الألبان» إلى الطبقة الحاكمة فى الإمبراطورية العثمانية، فإن وضع اليهود قد انحدر، ولكن ذلك الانحدار لم يكن حادا جدا، نتيجة لاستمرار الروح غير القومية والاستبدادية للنظام العثمانى.

وفى رأيى، فإن هذه النقطة فى غاية الأهمية لأن الوضع الجيد الذى حظى به اليهود بالقياس، تحت الحكم الإسلامى بصفة عامة، وتحت حكم بعض الأنظمة السياسية الإسلامية بصفة خاصة، قد استخدم من قبل الكثير من الدعايات العربية والفلسطينية بطريقة شديدة الجهل، على الرغم من احتمالية حسن مقصدها.

فأولاً التعميم وتقليص القضايا السياسية والتاريخية المهمة إلى مجرد شعارت والتسليم بأن وضع اليهود كان بصفة عامة أفضل كثيرا تحت الحكم الإسلامى من الذى كان عليه تحت الحكم المسيحى - السؤال الهام الذى يطرح نفسه، تحت أى نظام كان وضع اليهود أفضل وتحت أى نظام كان وضعهم أسوأ؟ وقد رأينا بالفعل إلى أين يقودنا هذا التحليل، ثانيا، والعنصر الأكثر أهمية، فى حالة الدولة السابقة للدولة الحديثة فإن وضعا أفضل للمجتمع اليهودى، قد استلزم وجود درجة أكبر من الاستبداد الذى مورس أيضاً من خلال الحاخامات على اليهود، ويمكننا استخدام نموذج واحد كمثال: بالتأكيد أن صورة صلاح الدين فى عصره، قد حظيت باحترام عميق، ولكن مع هذا الاحترام، لا أنسى أنا نفسى أن أشير إلى الامتيازات القوية التى منحها للمجتمع اليهودى فى مصر وتنصيبه لابن ميمون كقائد لهم (Nagid) قد أدت على الفور إلى إطلاق العنان للممارسة اضطهاد دينى لليهود «الآثمين» على يد الحاخامات، فعلى سبيل المثال، كان محظوراً على «الكهنة» اليهود «الذين يفترض أنهم ينحدرون من

نسل الكهنة القدامى الذين خدموا الهيكل» أن يتزوجوا من الفاسدات[1] وأيضاً من المطلقات. وهذا التحريم الأخير، الذى سبب دائما مشاكل، قد انتهك الحظر عليه، خلال فترة الفوضى فى عهد آواخر الحكام الفاطميين «حوالى ١١٣٠ ـ ١١٨٠» من جانب أولئك «الكهنة» الذين على النقيض من الشريعة الدينية اليهودية، تزوجوا من مطلقات يهوديات على يد قضاة فى محاكم إسلامية «التى هى أساسا مختصة بزواج غير المسلمين» وقد أتاح التسامح العظيم، الذى أبداه صلاح الدين تجاه «اليهود» عند تولية الحكم، إلى تعاظم سلطة ابن ميمون التى مكنته من إصدار أوامر إلى المحاكم الحاخامية فى مصر لإلقاء القبض على جميع اليهود، الذين تزوجوا هذه الزيجات المحرمة وجلدهم حتى «يوافقوا» على تطليق زوجاتهم[2].

وعلى نفس القدر، كانت سلطات المحاكم الحاخامية، فى ظل الإمبراطورية العثمانية كبيرة جدا، وبالتالى أكثر قسوة. لهذا فإنه يجب عدم استخدام وضع اليهود فى البلدان الإسلامية فى الماضى، كجدل سياسى فى القرائن المعاصرة «أو المستقبلية».

أسبانيا المسيحية

لقد تركت حتى النهاية مناقشة الدولتين اللتين كان فيهما وضع المجتمع اليهودى والتطور الداخلى لليهودية الكلاسيكية بالغ الأهمية: أسبانيا المسيحية[3] «أو على الأحرى شبه الجزيرة الإيبيرية بما فيها البرتغال» وبولندا قبل عام ١٧٩٥ سياسيا، كان وضع اليهود فى الممالك الأسبانية المسيحية أعلى

---

(١) هذا التحريم يمتد أيضاً إلى الزواج من امرأة تحولت إلى اليهودية. فطبقاً للهالاكاه، مفترض أن جميع النساء غير اليهوديات فاسدات.

(٢) الزواج المحرم لا يلغى بشكل عام إلا بعد حدوث الطلاق، والطلاق عمل طوعى من جانب الزوج، ولكن يظل ظروف خاصة تجبره المحكمة الحاخامية على «إرادة القيام» (Kopin oto 'ad Sheyyomar rotzeh ani)

(٣) على الرغم من الإنجازات التى حققها اليهود خلال عصرهم الذهبى فى أسبانيا الإسلامية «١٠٠٢ ـ ١١٤٧» كانت أكثر تألقاً، إلا أنها لم تستمر. فعلى سبيل المثال، لقد نسى اليهود معظم الشعر العبرى الرائع فى هذا العصر، ولم يعد للحياة إلا فى القرنين التاسع عشر والعشرين.

مما وصلوا إليه في أي بلد آخر «باستثناء بعض دول الطوائف وتحت حكم الفاطميين، قبل القرن التاسع عشر، فالعديد من اليهود عملوا بصفة رسمية وزراء للمال لدى ملوك قشتالة وجباة عامين وإقليميين للضرائب، وديبلوماسيين «يمثلون ملكهم لدى الملوك الأجانب المسيحيين والمسلمين حتى خارج أسبانيا» ورجال في الحاشية الملكية، ومستشارين للحكام وكبار النبلاء. ولم يحدث في أي دولة أخرى سوى بولندا، أن وصل المجتمع اليهودي إلى مثل هذه السلطات الشرعية العظيمة على اليهود أو استخدموها بهذا القدر من التوسع والعلانية، بما في ذلك فرض العقوبة القصوى «الإعدام» كما كان الشأن في أسبانيا، ومن القرن الحادي عشر، كان شائعاً في قشتالة أن يمارس اضطهاد للقرائيين(*) وجلدهم حتى الموت إذا لم يتوبوا كما أن نساء اليهود اللاتي كن يتعايشن مع غير اليهود «عيشة الأزواج» كانت تقطع أنوفهن من قبل الحاخامات، الذين كان يبررون ذلك «أنها بهذه الطريقة سوف تفقد جمالها وسوف يكرهها لذلك عشيقها غير اليهودي»، وأيضاً كانت تقطع يد اليهودي الذي يهاجم قاضياً يهودياً، وفي النزاعات الدينية، كان يتم قطع ألسنة اليهود الذين يعتقد أنهم من المهرطقين.

تاريخياً، تزامن كل هذا مع فوضى الإقطاعية، ومحاولة قلة من «الملوك الأقوياء» الحكم عبر سلطة مطلقة مع تجاهل المؤسسات النيابية، والمحاكم التي ظهرت بالفعل إلى الوجود في هذا الوقت.

وفي هذا الصراع، لم تكن السلطة السياسية والمالية لليهود على قدر كبير من الأهمية فحسب، ولكن كانت أيضاً قوتهم العسكرية «على الأقل في أهم مملكة، قشتالة» مميزة جداً، ومثال واحد سوف يفي بالغرض: لقد بلغ كل من سوء الحكم الإقطاعي والتأثير اليهودي السياسي في قشتالة، ذروتيهما في عهد بيدرو، الأول، الذي يسمى عن حق بالوحش. والمجتمعات اليهودية على طوليدو وبورغوس ومدن أخرى عديدة، خدمت فعليا كحاميات عسكرية تابعة له في الحرب الأهلية الطويلة التي كانت بينه وبين أخيه غير الشقيق هنري، حاكم

(*) القرائية: مذهب يهودي مهرطق نشأ في بغداد في القرن الثامن وقوامه رفض التمسك بالتلمود. «المترجمة»

تراستمارا، الذى أصبح بعد انتصاره هنرى الثانى « ١٣٦٩ ـ ١٣٦٩ »، [١]، وبدرو الأول هذا أعطى يهود قشتالة الحق فى إنشاء محاكم التفتيش فى طول البلاد وعرضها ضد اليهود المنحرفين دينيا ـ قبل مائة عام من إنشاء أشهر محكمة تفتيش كاثولية «التى نشطت بشكل خاص فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ومهمتها كانت اكتشاف الهرطقة ومعاقبة الهراطقة عبر استجوابات تعسفية».

وكما فى بلدان غربية أخرى، فإن الصعود التدريجى للوعى القومى الملتف حول الملكيات، والذى بدأ تحت حكم أسرة تراستمارا، وبعد مسيرة متعثرة وصل ذروته تحت حكم الملكين الكاثوليكين فردينا ندو وإيزابيلا، فى البداية صاحبه انحدار فى وضع اليهود، ثم ظهور حركات شعبية وضغوط ضدهم، مما نتج عنه فى النهاية طردهم.

بصفة عامة، كان اليهود تحت حماية النبلاء والفئات العليا من رجال الدين، بينما كانت أكثر الفئات عدائية ضدهم هى الشعبية أو الأقرب للشعب، خاصة طرق الرهبان المتسولين الذين يعيشون على الصدقات، والذين كانوا أكثر قربا للطبقات الدنيا، كما كان أكبر عدوين لليهودى، توركومادا والكاردينال كسيمنس، وهما من أكبر مصلحى الكنيسة الأسبانية، الذين جعلوا أقل فسادا وأكثر اعتمادا على النظام الملكى بدلاً من استغلالها لصالح الارستقراطية الإقطاعية.

بولندا

بولندا القديمة قبل ١٧٩٥ ـ جمهورية إقطاعية ذات ملك منتخب ـ هى المثال المضاد، فهى تصور كيف أنه قبل ميلاد الدولة الحديثة كان وضع اليهود اجتماعيا أكثر أهمية، وكانت هيمنتهم الداخلية أعظم تحت نظام كان معاق بالكامل إلى حد الانحلال التام.

ونتيجة لعدة أسباب فإن بولندا فى القرون الوسطى تلكأت فى تطورها

(١) فى هذه الحرب، استخدم هنرى حاكم تراستمار دعاية معادية لليهود، على الرغم من أن أمه ليونور دى غوزمان، وهى من أسرة قشتالية نبيلة عالية المقام، كانت جزئياً من أصل يهودى. «فقط فى أسبانيا كان أعلى النبلاء مقاما يتزوجون زيجات مختلطة، مع اليهود» ولكنه بعد انتصاره استخدم اليهود فى أعلى المناصب المالية.

فكانت خلف دول مثل انجلترا وفرنسا، حيث كانت فيها ملكية ذات طراز إقطاعي قوي، ولكن دون أي مؤسسات نيابية - وفي القرن الرابع عشر فقط، خاصة تحت حكم كازمير الأكبر ١٣٣٣ - ١٣٧٠ - وبعد وفاته على الفور أسفرت التغيرات في السلالة الحاكمة وعوامل أخرى، عن تطور سريع في سلطة أقطاب النبلاء ثم النبلاء الثانويين أيضاً، حتى أنه ما إن جاء عام ١٥٧٢ كانت عملية تقليص دور الملك إلى مجرد شخصية رمزية، وإقصاء جميع المقاطعات غير النبيلة عن السلطة السياسية، قد اكتملت.

وفي القرنين التاليين، تحول ضعف الحكومة إلى فوضوية معترف بها من الشعب، إلى درجة أن قرار المحكمة في قضية تخص نبيل، كان يستلزم تصريحاً قانونياً بشن حرب داخلية من أجل الإجبار على الالتزام بالحكم «لأنه لم تكن هناك وسيلة أخرى»، وقد شاركت في نزاعات البيوت النبيلة الكبرى في القرن الثامن عشر، جيوش خاصة مكونة من عشرات الآلاف، التي كانت أكبرحجما بكثير من تلك القوات الباعثة للسخرية لدى الجيش النظامي للجمهورية.

وقد صاحب هذه العملية انحطاط في قدر الفلاحيين البولنديين «الذين كانوا أحرارا في القرون الوسطى الأولى» إلى درجة القنانة الكاملة، وهي بالتأكيد الأسوأ من أوروبا. وقد لعبت رغبة النبلاء في الدول المجاورة من أجل التمتع بسلطة مثل سلطة النبيل البولندي على فلاحيه «بما في ذلك سلطة الحياة والموت دون الحق في أي شكوى» دورا أساسيا في التوسع البولندي، وكان الوضع في الأراضي «الشرقية» لبولندا «بيلوروسيا وأوكرانيا» التي استعمرت واستوطنت من الفلاحين الذين تم تحويلهم حديثا إلى أقنان، أكثرها سوءاً على الإطلاق[1].

ويبدو أن عدداً قليلاً من اليهود «وإن كانوا في مناصب مهمة» كانوا يعيشون في بولندا منذ إقامة الدولة البولندية، وفي القرن الثالث عشر بدأت هجرة يهودية كبيرة، وتزايدت في عهد كازمير الأكبر، بعد انحطاط وضع اليهود في أوروبا الغربية والوسطى.

(١) حتى القرن الثاني عشر كان وضع الأقنان في بولندا، أسوأ بشكل عام من وضعهم في روسيا. في هذا القرن، فإن ملامح القنانة الروسية قد تحددت، مثل البيع العلني لهم، وأصبحت أكثر سوءاً من بولندا، ولكن الحكومة القيصرية المركزية، كانت عادة تحتفظ بسلطات معينة على الفلاحين المستعبدين، مثلا الحق في تجنيدهم في الجيش الوطني.

ولا يعرف الكثير حول اليهود البولنديين خلال هذه الفترة، ولكن مع انحدار الملكية في القرن السادس عشر - خاصة تحت حكم سيغموند الأول، العجوز ١٥٠٦ - ١٥٤٨ وابنه سيغموند الثاني أوغسطس «١٥٤٨ - ١٥٧٢» فإن اليهود البولنديين ظهروا ككيان مهيمن سياسيا واجتماعيا، وقد صاحب ذلك في العادة درجة عالية من الحكم الذاتي، وفي ذلك الوقت تحديدا حظى يهود بولندا بأفضل الامتيازات، وبلغوا أوجهم مع إنشاء اللجنة الشهيرة «للمقاطعات الأربع»، التي كانت هيئة يهودية للإدارة الذاتية في غاية الفعالية من الحكم والسلطة القضائية على جميع اليهود في المقاطعات البولندية الأربع، وقد كان واحدا من أهم فعاليتها هو جمع الضرائب من اليهود، من استقطاع جزء منها لفائدتها ولفائدة المجتمعات اليهودية المحلية، ثم تمرير الباقي لخزينة الدولة.

ماذا كان الدور الاجتماعي لليهود البولنديين منذ بداية القرن السادس عشر وحتى ١٧٩٥؟

مع تدهور السلطة الملكية، أخذ النبلاء بسرعة الدور الاعتيادي للملك في علاقته مع اليهود - مع نتائج مأساوية دائمة على كل من اليهود أنفسهم وشعب الجمهورية البولندية - لقد استخدم النبلاء في جميع أنحاء بولندا، اليهود كوكلاء لهم في زعزعة السلطة المالية للمدن الملكية، والتي كانت ضعيفة على أية حال، ومن بين جميع الدول المسيحية الغربية، في بولندا فقط، كانت الممتلكات التي تخص النبيل داخل المدن الملكية، معفاة من قوانين المدينة وتنظيمات النقابات التجارية وفي معظم الحالات، نصب النبلاء وكلاءهم اليهود على هذه الممتلكات، مما تسبب في أزمات مستمرة، كان اليهود عادة هم «المنتصرون»، إلى درجة أن المدن لم تكن تستطيع أن تخضعهم ولا أن تخرجهم منها، ولكن في الانتفاضات الشعبية المتكررة، فإن حياة اليهود و«أكثر من ذلك ممتلكاتهم» كانت تتعرض للخطر، رغم ذلك استمر النبلاء في الحصول على فوائدهم. وقد نتج عن هذا نتائج سيئة للاستخدام الدائم والمعتاد لليهود كوكلاء تجاريين للنبلاء، الذين فازوا باستثناءات من معظم التعريفات والضرائب البولندية، على حساب فقدان الطبقة البورجوازية المحلية.

ولكن النتائج الأكثر استمرارا ومأساوية، كانت تلك التي حدثت في المقاطعات البولندية الشرقية - تقريبا، المنطقة الشرقية للحدود السوفياتية

الحالية، بما فى ذلك معظم أوكرانيا الحالية حتى التخم العظيم للغة الروسية «حتى عام ١٦٦٧ الحدود البولندية كانت أبعد إلى الشرق من نهر الدينبر»، ولهذا فإن بولتافا، كانت مثلا داخل بولندا» فى هذه المقاطعات الشاسعة لم تكن هناك مدن ملكية، وقد أنشأ النبلاء مدنا تابعة لهم - كانت مستوطنة تقريبا بشكل حصرى من اليهود حتى عام ١٩٣٩» وكان اليهود يشكلون حوالى ٩٠٪ من تعداد سكان العديد من المدن البولندية شرقى نهر بوغ، وكانت هذه الظاهرة الديموغرافية أكثر شيوعا فى المنطقة التى ضمتها روسيا القيصرية من بولندا، والتى كانت تعرف بمقاطعة اليهود، خارج المدن كان هناك الكثير من اليهود فى جميع أرجاء بولندا، ولكن بصفة خاصة فى المناطق الشرقية، وكانوا يعملون كمراقبين مباشرين ومضطهدين للفلاحين المستبعدين - وكوكلاء مزارع لجميع ملاك المزارع «وقد منحوا مع ملاك الأراضى سلطات إجبارية» أو كمستأجرين للمحتكرات الإقطاعية الخاصة مثل مطاحن الذرة، ومعامل تقطير المشروبات الكحولية والحانات «مع الحق فى التفتيش المسلح على بيوت الفلاحين بحثا عن وجود معامل تقطير محظورة أو مخابز»، وكجامعين للرسوم الإقطاعية المعتادة من كل الأنواع، وباختصار فإن اليهود فى بولندا الشرقية، تحت حكم النبلاء، «والكنيسة الإقطاعية، التى تشكلت على وجه الحصر من النبلاء» كانوا المستغلين المباشرين للفلاحين، وبشكل واضح الغالبية العظمى من سكان المدن.

وبلا شك، فإن معظم الفائدة التى كانوا يستقطعونها من الفلاحين، كانت تسلم لملاك الأراضى، بطريقة أو بأخرى، وبلا شك أيضا فإن إضطهاد وإخضاع اليهود من جانب النبلاء، كان أيضاً يحدث وبشكل حاد، ويروى لنا التاريخ العديد من الروايات المروعة عن الجور والإهانة التى مارسها النبلاء على «يهودهم»، ولكن كما لاحظنا من قبل، فإن الفلاحين كانوا هم الأشد معاناة من الاضطهاد على أيدى كل من ملاك الأراضى واليهود، وقد افترض أنه باستثناء فترات ثورات الفلاحين، فإن النقل الكامل لشرائع الدين اليهودى ضد غير اليهود، كان يقع على الفلاحين، وكما سوف نرى فى الفصل التالى، فإن هذه الشرائع قد خففت فقط فى الحالات التى كان يخشى فيها من ارتفاع مشاعر عدائية لتمثل خطرا على اليهود، ولكن كان يتم تجاهل عدائية الفلاحين

تجاههم، باعتبارهم غير مؤثرين، طالما أن وكلاء المزارع اليهود، بإمكانهم دوما الاحتماء في كنف المالك الأكبر.

وقد ظل الموقف راكدا حتى حلول الدولة الحديثة، وفي هذه الأثناء كانت بولندا ممزقة، لذلك كانت هي الدولة الكبيرة الوحيدة في البلدان المسيحية الغربية التي لم يطرد منها اليهود أبداً. ولم يكن هناك فرصة لظهور طبقة وسطى جديدة من بين الفلاحين المستعبدين تماما، في الوقت الذى كانت فيه البورجوازية القديمة محدودة جغرافيا وضعيفة اقتصاديا، ولذا فهي بلا نفوذ، وبشكل إجمالي، فإن الأحوال ظلت تتحرك بثبات نحو الأسوأ ولكن دون أي تغيرات جوهرية.

وقد تحركت الأوضاع الداخلية للمجتمع اليهودي في طرق مشابهة ففي الفترة ما بين ١٥٠٠ - ١٧٩٥، كانت أعظم أشكال استحواذ الخرافة في تاريخ اليهودية، فلقد كان اليهود البولنديون أكثر المجتمعات اليهودية إيمانا بالخرافات والتعصب الديني، وقد استخدمت سلطة الاستقلالية اليهودية كقوة كبرى ومتزايدة من أجل إخماد جميع أشكال الفكر الإبداعي والأصيل، من أجل الترويج لاستغلال أكثر بشاعة على فقراء اليهود، على يد اليهود الأثرياء بتحالف مع الحاخامات، ومن أجل تبرير دور اليهود في اضطهاد الفلاحين من أجل خدمة النبلاء. وهنا أيضاً لم تكن هناك وسيلة للنجاة إلا من خلال التحرر من الخارج، إن بولندا قبل ١٧٩٥ تمثل أفضل تصوير للوضع الاجتماعي لليهود الأكثر أهمية مما كان عليه في أي دياسبورة كلاسيكية أخرى، وأيضاً تصور كحالة الإفلاس الكامل لليهودية الكلاسيكية أكثر من أي تصوير آخر في أي دولة أخرى.

اضطهاد اليهود

تعرض اليهود خلال فترة اليهودية الكلاسيكية بكاملها إلى الإضطهاد(١٧) في أغلب الأحيان - وهذه الحقيقة تستخدم الآن كجدل أساسي في مبررات الدين

(١٧) خلال الفترات السابقة كان اضطهاد اليهود نادر الحدوث، وهذا ينطبق أيضاً على الإمبراطورية الرومانية حتى بعد تمرد اليهود الخطير، وغيبون على حق في امتداحه لتسامح أنطونيوس بيوس «وماركوس أوريليوس» مع اليهود، بعد تمر باركوخيا عام ١٣٢ - ١٣٥ ق.م.

اليهودى فى شرائعه المعادية للأغيار وخاصة فى الصهيونية. وبالطبع فإن الإبادة النازية لخمسة أو ستة ملايين يهودى أوروبى من المفترض أن تكون قمة هذه المبررات فى هذا الإطار، لذا فإنه ينبغى علينا أن نراعى هذه الظاهرة وجانبها المعاصر، وهذا مهم بصفة خاصة فى رؤية حقيقة أن السلالات اليهودية المنحدرة من أصلاب يهود بولندا قبل ١٧٩٥ «عادة يطلق عليهم يهود أوروبا» الشرقية كتمييز لهم عن يهود المقاطعات الواقعة تحت التأثيرات الثقافية الألمانية فى أوائل القرن التاسع عشر بما فيها النمسا الحالية، وبوهيميا، ومورافيا، يتمتعون الآن بسلطة سياسية واسعة الهيمنة فى إسرائيل وأيضاً فى المجتمعات اليهودية فى الولايات المتحدة والدول الأخرى الناطقة بالإنجليزية وبسبب رؤيتهم التاريخية هذه، فإن هذا النمط من التفكير قد ترسخ لديهم بطريقة خاصة، أكثر من أى يهود آخرين.

علينا أولا، أن نرسم علامة فارقة واضحة بين إضطهاد اليهود خلال الفترة الكلاسيكية من جهة، وبين الإبادة النازية من جهة أخرى، فالأولى كانت حركات شعبية جاءت من الأسفل، فى حين أن الثانية قد انتشرت ونظمت وطبقت من أعلى، وبالتأكيد على يد موظفى الدولة.

إن أعمال الإبادة النازية هذه التى مارستها الدولة النازية هى بالقياس نادرة فى التاريخ البشرى، على الرغم من وجود حالات أخرى «لإبادة شعب تسمانيا وشعوب مستعمرة أخرى» إضافة إلى هذا فإن النازية قد عزمت على إبادة شعوب أخرى غير اليهود، فقد تم إبادة الغجر مثل اليهود، وإبادة السلافيين أيضاً فى الطريق، مع مذابح منظمة لملايين المدنيين وأسرى الحرب، رغم ذلك فإن الاضطهاد المتكرر لليهود فى العديد من الدول خلال الفترة الكلاسيكية هو النموذج و«المبرر» الذى يستخدمه الساسة الصهاينة فى اضطهادهم للفلسطينيين، إضافة إلى الذرائع المستخدمة من المدافعين عن العقيدة اليهودية بشكل عام، وهى الظاهرة التى سنوليها العناية الآن.

يجب الإشارة إلى أنه فى كل أسوأ أشكال الإضطهاد التى تعرض لها اليهود، أى التى كان يقتل فيها اليهود، فإن الطبقة الحاكمة العليا ـ الإمبراطورية، والبابا، والملوك والطبقة الارستقراطية العليا، وكبار رجال الدين، وأيضاً البورجوازية الثرية فى المدن ذات الحكم الذاتى ـ كانت دائما فى صف

اليهود. أما الذين ناصبوهم العداء فكانوا ينتمون إلى الطبقات المضطهدة والأكثر استغلالاً من غيرها وأولئك القريبون منهم مثل طرق الرهبان المتسولين[1]، وصحيح أنه فى أغلب الأحوال «ولا أعتقد فى جميعها» حمت طبقة النخبة اليهود ودافعت عنهم ليس لاعتبارات إنسانية ولا تعاطف مجرد مع اليهود، ولكن للسبب الذى يستخدمه الحكام بشكل عام من أجل تحقيق مصالحهم، حقيقة أن اليهود كانوا ذوى فائدة وربح «لهم»، والدفاع عن استتباب «القانون والنظام» وكراهية الطبقات الدنيا، والخوف من أن تتحول حالات الشغب المعادية لليهود إلى ثورة عامة شعبية، ولكن تبقى أنهم حموا اليهود، ولهذا السبب فإن جميع المجازر، التى تعرض لها اليهود خلال الفترة الكلاسيكية كانت جزءاً من ثورات الفلاحين أو حركات شعبية أخرى، فى أوقات كانت الحكومة فيها، لسبب ما، فى غاية الضعف، ويصدق هذا حتى فى الحالة الاسثنائية جزئيا لروسيا القيصرية.

فقلد كانت الحكومة القيصرية تتحرك بشكل خفى من خلال البوليس السرى، وقد دبرت مذابح منظمة ضد اليهود، ولكنها فعلت هذا فقط عندما كانت فى فترة ضعف استثنائية «بعد اغتيال إلسكندر الثانى ١٨٨١، والفترة التى سبقت وتلت ثورة ١٩٠٥»، وحتى وقتها عملت على احتواء عملية انهيار «القانون والنظام» وخلال فترات قوتها العظمى - على سبيل المثال تحت حكم نيقولا الأول، أو فى الجزء الأخير من حكم السكندر الثالث، عندما انتشرت المقاومة - فإن المذابح المنظمة ضد اليهود لم يسمح بها النظام القيصرى، على الرغم من أن التمييز القانونى ضد اليهود كان أكثر حدة.

وكحكم عام يمكن استخلاصه، فإن جميع المذابح الكبرى التى تعرض لها اليهود فى أوروبا المسيحية، خلال موجة الغزوات الصليبية الأولى، لم تكن جيوش الفرسان النظامية تحت قيادة الدوقات والكونتات الكبار، هى التى تحرشت باليهود، ولكن ا لجماهير الشعبية العفوية المكونة على وجه الحصر من الفلاحين والفقراء الذين جاءوا فى أعقاب بطرس الناسك.

(١) يمكن التحقق من هذا بسهولة من خلال فحص تفاصيل حالات الإضطهاد، التى أهمل الإشارة إليها كحقيقة الغالبية من المؤرخين فى العصور الحديثة. ولكن أحد أبرز الأمثلة كان كتاب «نشوء أوروبا المسيحية» لهوج تريفور وبر «١٩٥٦ thames and hndwon، ص ١٧٣ - ١٧٤.

وفى جميع المدن عارض المطران أو ممثلو الإمبراطور هذه الجيوش أو يحاول ـ عادة بشكل غير مجد ـ حماية اليهود[١].

وكانت الإضطرابات المعادية لليهود فى انجلترا التى صاحبت الحملة الصليبية الثالثة، جزءاً من حركة شعبية وجهت أيضاً ضد المسئولين الملكيين. وقد عاقب ريتشارد الأول بعضا من ميثرى هذه الإضطرابات، والمذابح التى تعرض لها اليهود خلال تفشى الطاعون الأسود، حدثت على الرغم من الأوامر المشددة من البابا والإمبراطور، والمطارنة، والأمراء الألمان. وفى المدن الحرة، على سبيل المثال فى ستراسبورغ، كانت المذابح تحدث بعد ثورة شعبية ثم خلال الإطاحة بمجلس المدينة الأوليغاركى [*] الذى حمى اليهود، واستبدل فيما بعد بمجلس آخر أكثر شعبية، والمذابح الكبرى التى حدثت عام ١٣٩١ لليهود فى أسبانيا، وقعت فى ظل حكومة ضعيفة كانت تلعب دور الوصاية على العرش، وفى الوقت الذى كانت فيه البابوية التى أضعفها الانقسام بين الباباوات المتنافسين، غير قادرة على التحكم فى الرهبان المتسولين.

وربما كانت أكثر الأمثلة وضوحا هى المذبحة الكبرى لليهود خلال ثورة خميلينكى فى أوكرانيا «١٦٤٨»، التى بدأت كتمرد للضباط القوقاز، ولكنها سرعان ما تحولت إلى حركة شعبية واسعة النطاق للأقنان المضطهدين، حيث ثار المحرومون، والمواطنون، والأوكرانيون، والأرثوذكس «الذين كانوا مضطهدين من الكنيسة الكاثوليكية البولندية» ضد ساداتهم البولنديين الكاثوليك، خاصة ضد وكلاء المزارع أسيادهم، ورجال الدين، واليهود[٢]، هذا التمرد الريفى الخالص ضد الاضطهاد المتطرف، كان تمردا صاحبه، ليس فقط مذابح ارتكبها المتمردون ولكن أيضاً أعمالاً وحشية مروعة وإرهاباً مضاداً للأشخاص ذوى المكانة أو السلطة والجيوش الخاصة[٣].

---

(١) يمكن العثور على أمثلة من تاريخ أى حملات صليبية ويمكن مراجعة بصفة خاصة S.runciman A Histtory of the Crusades book3, Chap1, The Germans Crusade. نتائج هزيمة الحملة الألمانية والهزيمة التالية لهذا الجيش على يد الجيش الهنغارى «بدت لغالبية المسيحيين كعقاب عادل على قتله اليهود».

(*) حكومة تهيمن عليها جماعة صغيرة همها الاستغلال وتحقيق المنافع الذاتية. «المترجمة»

(٢) John Stoyd, Europe ungokding 1648-88, Fontana, London. P.46

(٣) بالطبع لا تنكر هذه الصفة ففى التواريخ اليهودية الرسمية التى لدينا، وقد كانت العقوبة المعتادة للفلاح المتمرد هى الموت على الخازوق.

وقد ظل هذا التمرد مشتعلاً فى وجدان يهود أوروبا الشرقية حتى اليوم - ليس باعتباره تمرداً ريفيا، وثورة على القمع، من قبل بائسين ومسحوقين، ولا حتى كثأر وقع على جميع خدام النبلاء البولنديين، ولكن كعمل معاد للسامية موجه ضد اليهود بلا مبرر، وفى الواقع، فإنه يتم تفسير تصويت الوفد الأوكرانى فى الأمم المتحدة، بشكل أعم، السياسات السوفيتية فى الشرق الأوسط، فى الصحافة، الإسرائيلية بأنها «ميراث ثورة خميلينكى» أو «خلفائه».

معاداة السامية الحديثة

لقد تعرضت صفة الاضطهاد المعادى لليهود إلى تغير جذرى فى العصور الحديثة، مع ظهور الدولة الحديثة، فإن إلغاء الاسترقاق والوصول إلى الحد الأدنى من الحقوق الفردية، والدور الاجتماعى - الاقتصادى لليهود، واختفاء سلطات المجتمع اليهودى على أعضائه، أيضا بالضرورة: حيث ينال الأفراد اليهود بأعداد كبيرة حريتهم بدخولهم المجتمع العام للدول التى وجدوا فيها. وكان من الطبيعى أن يثير هذا التحول رد فعل عدوانى من جانب اليهود «خاصة حاخاماتهم»، وتلك العناصر فى المجتمع الأوروبى التى تعارض فكرة المجتمع المفتوح، والتى نظرت إلى كل عملية تحرر فردية بكراهية كبيرة.

لقد ظهرت معاداة السامية الحديثة أولاً فى فرنسا وألمانيا، ثم فى روسيا، بعد حوالى ١٨٧٠، وعلى عكس الرأى المسيطر على الاشتراكيين اليهود، لا أعتقد أن بداياتها وتطورها التالى حتى يومنا هذا يمكن أن يوصف بأنه «الرأسمالية» بل على النقيض، أرى أن الرأسماليين الناجحين فى جميع الأحوال كانوا أحراراً، تماما من معاداة السامية، والدول التى نشأت فيها الرأسمالية فى البداية وبأكثر أشكالها شمولا واتساعاً مثل انجلترا وبلجيكا - كانت أيضاً فيها معاداة السامية أقل من أى دولة أخرى(٢).

كانت معاداة السامية المبكرة الحديثة « ١٨٨٠ - ١٩٠٠ » رد فعل من قبل رجال حائرين، كرهوا بعمق المجتمع الحديث بجميع مظاهره، سواء الجيدة أو السيئة، وكانوا مؤمنين متحمسين بنظرية المؤامرة التاريخية. ووضع اليهود فى

(٢) يمكن ملاحظة نفس الوضع فى مناطق مختلفة، ففى ألمانيا، مثلاً، كانت بافاريا الزراعية أكثر معاداة للسامية من المناطق الصناعية.

دور كبش فداء بسبب انهيار المجتمع القديم الذى يتخيل هؤلاء المعادين السامية التواقين إلى استعادة وضع يتعذر استرداداً أن الماضى كان أكثر انغلاقا وتنظيماً مما كان عليه فى الواقع، ووجود كل هذا التخبط فى العصور الحديثة. ولكن منذ البداية واجه معادى السامية ما كان يبدو أمامهم مشكلة عويصة، وهو كيف يتعرفون على كبش الفداء هذا ؟ وبأى مصطلحات شائعة؟ وما هو القاسم المشترك بين اليهودى الموسيقى، أو المحاسب، أو الحرفى، أو المتسول، خاصة بعد ذوبان الملامح الدينية العامة المشتركة، على الأقل خارجيا ؟

وكانت نظرية العرق اليهودى هى الجواب المعادى للسامية الحديثة عن هذه المشكلة.

بالمقابل كانت المعارضة المسيحية القديمة، وحتى الإسلامية بدرجة أكبر، لليهودية الكلاسيكية متحررة تماماً من العنصرية. ولا شك أن هذا يرجع إلى حد ما، إلى الصفة الكونية للمسيحية والإسلام، ولعلاقتهما الأصلية باليهودية «وبخ القديس توماس مورمرارا امرأة اعترضت على أن مريم العذراء كانت يهوية» ولكن فى رأيى أن السبب الأكثر أهمية، كان الدور الاجتماعى لليهود كجزء متمم للطبقات العليا. وفى العديد من البلدان كان اليهود يعاملون كنبلاء رسميين، ومن خلال التحول الدينى، كانوا قادرين فورا على الزواج من أعلى الأسرة النبيلة. ولم يكن بإمكان طبقة النبلاء فى القرن الخامس عشر فى قشتالة وآراغون، أو ارستقراطية بولندا فى القرن الثامن عشر - إذا نظرنا إلى الحالتين كان التزاوج من اليهود منتشرا على نطاق واسع - المتحولين دينيا - وكان من الصعوبة حدوث زواج من الفلاحين الأسبان أو الأقنان البولنديين، على الرغم من الثناء الذين جاء فى العهد الجديد على الفقراء.

إنها الخرافة الحديثة عن «العرق» اليهودى - التى تختفى ظاهرياً - ولكن يفترض أنها المميزات المسيطرة داخل «اليهود» بعيداً عن التاريخ، أو الدور الاجتماعى، أو أى شىء آخر - التى تشكل أهم علامة خارقة تميز معاداة السامية الحديثة. وقد أدرك هذا فى الواقع بعض زعامات الكنيسة عندما ظهرت معاداة السامية الحديثة أولاً كحركة على قدر كبير من القوة، فقد عارض الزعماء الفرنسيون، مثلاً، المذهب العنصرى الجديد الذى قدمه دورمونت أول معادى للسامية فرنسى سىء الصيت، ومؤلف الكتاب الشهير «يهود فرنسا»

« ١٨٨٨ » والذى حقق انتشاراً واسعاً[١] كما تم معارضة معاداة السامية الألمانية المبكرة معارضة شبيهة أيضاً.

ويجب أن نذكر أن بعض الجماعات الأوروبية المهمة من المحافظين، كانت مستعدة تماماً للعب على المعاداة الحديثة للسامية، واستخدامها من أجل فرض نهايات خاصة، بما يخدم أهدافها ، فحين كانت الحركات المعادية للسامية، على نفس القدر من الاستعداد لاستغلال المحافظين عندما تسنح الفرصة على الرغم من وجود أوجه تشابه ضئيلة بين الحزبين. فإن الضحايا الذين هوجموا بأكبر قدر من العنف «على يد دورمونت المذكور» لم يكونوا من أبناء روتشلد، بل نبلاء كبار تودد إليهم دورمونت ولم يستثن الأسرة الملكية، أو المطارنة أو حتى البابا[٢] ، ورغم ذلك، فإن كثيراً من كبار النبلاء الفرنسيين والمطارنة والمحافظين على وجه العموم كانوا فى غاية السعادة من استخدام دورمونت ومعاداة السامية خلال أزمة قضية درايفوس، فى محاولة لإسقاط النظام الجمهورى.

هذا النوع من التحالف الانتهازى، يعاود الظهور عدة مرات فى البلدان الأوروبية المختلفة وحتى هزيمة النازية، لقد أعمت كراهية العديد من المحافظين للراديكاليين، وخاصة جميع أشكال الاشتراكية، عن طبيعة رفقائهم السياسيين. وفى كثير من الأحوال كانوا على استعداد بالمعنى الحرفى للكلمة، للتحالف مع الشيطان، متناسين الحكمة التى تقول إن الإنسان يحتاج إلى ملعقة طويلة جدا لتناول العشاء معه.

لقد اعتمدت فاعلية معاداة السامية الحديثة وتحالفاتها مع المحافظين على عدة محاور:

أولا - استخدام المذهب القديم للديانة المسيحية المعارض لليهود، الذى ظهر

---

(٢٣) تسبب رفض الكنيسة الاعتراف بأن يهودى يظل يهوديا، فى ألم ككا ثوليكى شديد التفاخر مثل دورمونت. وقد وصف أحد تلامذته الرئيسيين، جوليس غورين، شعوره بالإزدراء عندما احتج عليه الأب اليسوعى الشهير دولوك، بسبب مهاجمته لبعض معتنقى المسيحية من اليهود الذين يحملون اسم درايفوس.

D.W. Borgan.the aevelopment of modern france, vol1mharper torch-books, new york, 1966,p,227.

(٢٤) نفس المصدر السابق.

فى العديد من البلدان الأوروبية «وليس كلها» فى الحصول على تأييد من جانب رجال الدين، أو على الأقل عدم معارضة للانضمام إلى الجوقة المعادية للسامية. وقد تحددت إلى حد كبير، الاستجابة الواقعية لرجال الدين فى كل بلد على حدة، من خلال الظروف الملموسة تاريخياً واجتماعياً على المستوى المحلى.

وفى الكنيسة الكاثوليكية، كانت النزعة لتحالف انتهازى مع معادى السامية، قوية فى فرنسا، ولكن ليس فى إيطاليا، وكانت قوية فى بولندا أوسلوفاكيا، ولكن ليست كذلك فى بوهيميا. وكانت الكنيسة الأرثوذكسية الإغريقية ذات نزعات شهيرة معادية للسامية فى رومانيا، ولكنها أخذت نهجا مضادا فى بلغاريا. ومن ضمن الكنائس البروتستانتية، كانت الألمانية منقسمة انقساما عميقا فى هذا الاتجاه، ففى حين مالت كنائس مثل «اللاتفية والاستونية» نحو معاداة السامية كان الكثير منها «مثل الهولندية والسويسرية والسكندنافية» من أوائل من رفضوا معاداة السامية.

ثانيا ـ كانت معاداة السامية بشكل كبير، تعبيراً عاماً عن كراهية الأجانب، ورغبة فى إيجاد مجتمع متآلف تماما من أفراد متجانسين عرقيا، ولكن اليهودى فى الكثير من البلدان الأوروبية حوالى عام ١٩٠٠ «ومن الواقع حتى وقت قريب» كان ظاهرياً هو «الأجنبى» الوحيد، وكان هذا واضحاً جدا فى ألمانيا، فمن حيث المبدأ العنصريون الألمان كرهوا وازدروا السود تماما، كما كرهوا اليهود، ولكن لم يكن هناك سود فى ألمانيا وقتها. ومن السهل طبعا التركيز على كراهية الحاضر وليس الغائب، خاصة وفق ظروف ذلك العصر، عندما لم يكن هناك رحلات جماعية أو سياحة، ولم يغادر معظم الأوروبيين بلدانهم أبدا فى أوقات السلم.

ثالثا ـ إن نجاحات التحالف المتذبذب بين المحافظين ومعادى السامية، كانت متناسبة عكسيا مع قوة وقدرات المعارضين لهذا التحالف. حيث كانت المعارضة الفاعلة والثابتة المعادية للسامية فى أوروبا. من خلال القوى السياسية الليبرالية والاشتراكية ـ وتاريخيا نفس تلك القوى استمرت بأساليب مختلفة، فيما عرف بحرب الاستقلال الهولندية «١٥٦٦ ـ ١٦٤٨»، الثورة الإنجليزية، والثورة الفرنسية الكبرى. الثورة الفرنسية هى المقياس فى القارة الأوروبية فمن يؤيدها يكون ضد معاداة السامية، ومن يقبلها للأسف ميال للتحالف مع

معادي السامية، والذى كرهها سوف يكون مفضلاً لعدم الاعتراف بإنجازتها، وتلك هى البيئة التى ظهر فيها معاديون السامية.

ورغم ذلك، فإن ملاحظة مهمة يجب أن نذكرها على المحافظين وحتى الرجعيين من جهة، والعنصريين الفعليين ومعاديى السامية من الجهة الأخرى، العنصرية الحديثة «التى تشكل معاداة السامية جزءاً منها» على الرغم من أنها كانت بسبب ظروف اجتماعية محددة إلا أنها أصبحت عندما حصلت على قوتها، فى رأيى قوة لا يمكن أن توصف إلا بأنها قوة شيطانية بعد أن وصلت للسلطة، وبسببها أعتقد أنها تستعصى على التحليل من جانب أى نظرية اجتماعية معروفة فى الوقت الحالى، أو أى مجموعة من الملاحظات الاجتماعية الدقيقة - وبصفة خاصة لأى نظرية معروفة جديرة بالاهتمام، لطبيعتها أو لأهميتها، أو أى شكل آخر من الاهتمامات السيكولوجية الخالصة، أو من أى طريقة أخرى يمكن أن تحدد على أنها معرفة إنسانية ولكن ما أقوم به لا يعنى أن مثل هذه القوى غير معروفة كمبدأ على العكس، يجب أن نأمل أنه مع نمو المعرفة الإنسانية، سوف تكون قابلة للفهم، ولكن حالياً هى غير مفهومة وغير قابلة لأن يتم التنبؤ بها بشكل منطقى - وهذا ينطبق على جميع أشكال العنصرية فى جميع المجتمعات[1].

(١) سأقدم ثلاثة أمثلة اعتباطية لهذه السمات اللاعقلانية التى تتخذها العنصرية أحيانا. لقد وقع الجزء الأكبر من إبادة اليهود فى أوروبا عام ١٩٤٢ وأوئل ١٩٤٣، خلال هجوم النازيين على روسيا، الذى وصل أوجه بهزيمتهم فى ستالينغراد. وعلى مدار ثمانية أشهر من يونيو ١٩٢٢ وحتى فبراير ١٩٤٣، ربما يكون النازيون قد استخدموا عدداً أكبر من عربات السكة الحديد فى فى نقل اليهود إلى غرف الغاز أكثر من التى استخدموها لنقل الإمدادات إلى الجيش. وقبل سوقهم إلى الموت، كان معظم اليهود، فى بولندا على الأقل يعملون بفاعلية كبيرة فى إنتاج معدات الجيش الألمانى.

والمثال الثانى رغم كونه بعيداً إلى حد ما، يأتى من وصف «النواقيس الصقلية» عام ١٢٨٢ حيث كان يتم قتل كل رجل فرنسى يعثرون عليه، لقد انطلقوا نحو الحانات التى يرتادها الفرنسيون والبيوت، التى يسكنونها، ولم يتركوا رجلا أو امرأة أو طفلاً.

وقد انطلق المتظاهرون إلى الأديرة الدومينيكية والفرانسكانية حيث أخرج جميع الرهبان، الأجانب وأجبروا على نطق كلمة سيسيرى، التى لا يستطيع الفرنسيون نطقها، وكانوا يقتلون كل من يفشل فى نطقها.

(S.runciman, the Sicilian Vespers Cambridge up. 1958, p215).

والمثل الثالث حديث جدا، ففى صيف عام ١٩٨٠ - بعد محاول إرهابيين يهود لاغتيال بسام الشكعة رئيس بلدية نابلس والتى نجم عنها فقدانه لرجليه الإثنتين وفقدان كريم خلف رئيس بلدية رام الله لإحدى قدمية - تجمعت جماعة من النازيين اليهود فى حرم جامعة تل أبيب، وشوت بعض القطط وقدمت لحمها للمارة باعتباره «شيش كباب» من أجل رؤساء البلديات العرب، وأى إنسان شهد تلك الطقوس الشنيعة - كما فعلت - سيعترف بأن بعض أنواع الإرهاب تستعصى على التفسير من الوضع الحالى للمعرفة الإنسانية.

في الحقيقة، لا توجد شخصية سياسية أو جماعة، أو أي لون سياسي في أي دولة قد تنبأ حتى ولو بشكل مبهم، بمدى وحشية النازية، ولكن فقط الفنانون والشعراء أمثال هين كانوا قادرين على إلقاء نظرة خاطفة على ما حمله المستقبل في جعبته. إننا لا نعرف كيف قاموا بذلك، وإن كانت الكثير من أحاسيسهم الأخرى الباطنية خاطئة.

رد الفعل الصهيوني

تاريخياً، كانت الصهيونية رد فعل أمام معاداة السامية أو تحالف محافظ معها، على الرغم من أن الصهاينة، مثلهم مثل المحافظين الأوروبيين الآخرين، لم يدركوا بشكل كامل مع من كانوا يتحالفون. وحتى ظهور معاداة السامية الحديثة، كانت مشاعر اليهود الأوروبيين متفائلة بل شديدة التفاؤل. وكان هذا واضحاً ليس فقط لدى الأعداد الضخمة من اليهود، خاصة في البلدان الغربية الذين تخلوا عن اليهودية الكلاسيكية، دون أي ندم حقيقي، في الجيل الأول أو الثاني بعد أن أصبح ذلك ممكنا بل ومن خلال تشكيل حركة ثقافية قوية، حركة التنوير اليهودي «هاسكلاه» التي بدأت في ألمانيا والنمسا حوالي ١٧٨٠، وانتشرت بعد ذلك في أوروبا الشرقية حوالي ١٨٥٠ - ١٨٧٠ جاعلة من نفسها قوة اجتماعية ذات تأثير واضح، ولا يمكنني الدخول هنا في مناقشة لإنجازات الحركة الثقافية، مثل إنعاش الأدب العبري وابتكار أدب رائع باللغة اليديشية. ولكن جدير بالذكر أنه على الرغم من كثرة الاختلافات الداخلية، فإن الحركة بشكل عام قد تميزت بمعتقدين أساسيين:

الإيمان بالحاجة إلى نقد جذري للمجتمع اليهودي، وخاصة الدور الاجتماعي للديانة اليهودية في شكلها الكلاسيكي، والأمل المخلص بانتصار «قوى الخير» في المجتمعات الأوروبية، تلك القوى السابقة التي كانت تعرف على نحو طبيعي بأنها المعيار الوحيد الفيصل في تأييد التحرير اليهودي.

وجاء نمو معاداة السامية كحركة شعبية، والتحالفات العديدة للقوى المحافظة معها، كلطمة حادة لحركة التنوير اليهودي، وكان وقع هذه اللطمة مدمرا على نحو خاص، لأنه واقعيا جاء صعود معاداة السامية مباشرة بعد أن تم تحرير اليهود في بعض البلدان الأوروبية، وقبل تحررهم في بلدان أخرى، لقد حصل يهود الإمبراطورية النمساوية على حقوق المساواة الكاملة فقط عام ١٨٦٧،

وفى ألمانيا، حررت بعض المقاطعات المستقلة يهودها فى مرحلة مبكرة جدا، بينما لم تفعل ذلك مقاطعات أخرى خاصة بروسيا التى كانت بطيئة وناكرة لهذا الشأن. ولم يتم منح التحرير النهائى لليهود فى الإمبراطورية الألمانية بشكل عام إلا على يد بسمارك عام ١٨٧١، وفى الامبراطورية العثمانية كان اليهود موضع تمييز رسمى حتى عام ١٩٠٩، وفى روسيا (كما فى رومانيا) حتى عام ١٩١٧، وهكذا فإن معاداة السامية الحديثة بدأت خلال عقد من التحرر لليهود فى أوروبا الوسطى وقبل فترة طويلة من تحرير أكبر المجتمعات اليهودية فى ذلك الوقت، وذلك كان فى روسيا القيصرية.

لهذا من السهل على الصهاينة أن يتجاهلوا نصف الحقائق وثيقة الصلة بالموضوع، التى تعود إلى الموقف الانعزالى لليهودية الكلاسيكية، وبالادعاء بأنه حيث إن جميع الأغيار، كانوا دائماً يكرهون ويضطهدون جميع اليهود، فإن الحل الوحيد يكمن فى إزالة جميع اليهود جملة وفى وقت واحد وحشدهم فى فلسطين أو أوغندا أو أى مكان أخر[(١)]، وقد سارع بعض النقاد اليهود الأوائل للصهيونية إلى الإشارة إلى أنه إذا افترض وجود تنافر دائم وتاريخى بين اليهود والأغيار - وهو إفتراض يؤيده كل من الصهاينة ومعاديى السامية - إذن فإن حشد اليهود فى مكان واحد سوف يجلب ببساطة كراهية الأغيار لهم فى هذا الجزء من العالم (كما حدث بالتأكيد، ولكن لأسباب مختلفة تماماً) ولكن، على حد علمى، فإن هذه الحجة المنطقية، لم تترك أى انطباع، تماماً كما أن جميع الحجج المنطقية والواقعية ضد خرافة "العرق اليهودى "لم تقدم أى فرق ولو طفيف فى موقف المعادين للسامية.

فى الواقع، كانت هناك دائماً علاقة وثيقة بين الصهاينة ومعاديى السامية تماماً مثل بعض المحافظين الأوروبيين، ظن الصهاينة أن بإمكانهم تجاهل الصفة "الشيطانية "لمعاداة السامية واستخدام معاديى السامية فى خدمة أغراضهم الخاصة، والكثير من هذه الأمثلة من التحالف معروفة تماماً، لقد تحالف هرتسل نفسه مع الكونت سئ الصيت "فون بليهف"، الكاهن المعادى للسامية فى عهد

(١) كانت واحدة من مراوغات جابوتنسكى المبكرة، أنه اقترح عام ١٩١٢ إنشاء دولتين يهويتين، واحدة فى فلسطين والأخرى فى أنجولا، حيث تعتمد الأولى الفقيرة فى مصادرها الطبيعية على مصادر الثانية.

القيصر «نيقولا الثانى[١]»، وعقد "جابوتنسكى "معاهدة مع "بيتليورا"، الزعيم الأوكرانى الرجعى الذى ذبحت قواته ١٠٠ألف يهودى فى الأعوام ١٩٨١-١٩٢١، وتحالفات "بن جوريون "مع اليمين المتطرف الفرنسى خلال الحرب الجزائرية كانت تضم أشهر معاديى السامية الذين مع هذا كانوا حريصين على توضيح أنهم فقط ضد اليهود فى فرنسا، وليس فى إسرائيل.

وربما كانت أكثر الأمثلة صدمة فى هذا السياق، هى تلك البهجة التى استقبل بها زعماء الصهيونية فى ألمانيا، صعود هتلر إلى السلطة، لأنهم شاركوه إيمانه فى تفوق "الهدف "وعدائيته نحو فكرة اندماج اليهود بين أبناء «العرق الآرى» لقد هنأوا هتلر على فوزه على عدوهم المشترك، قوى الليبرالية، لقد نشر الدكتور "يواقيم برنز "الحاخام الصهيونى، الذى هاجر فيما بعد إلى الولايات المتحدة، وهناك نصب نائباً لرئيس المؤتمر الصهيونى العالمى، كما أصبح بعد ذلك قطباً لامعاً فى المنظمة الصهيونية العالمية (إضافة إلى كونه صديقاً حميماً لجولدا مائير) فى عام ١٩٣٤، كتاب خاص بعنوان (Wirjuden نحن اليهود) من أجل الاحتفاء بمأساة هتلر، الثورة الألمانية وهزيمة الليبرالية.

سوف يتضح مغزى الثورة الألمانية للأمة الألمانية فى النهاية أمام هؤلاء الذين صنعوها وشكلوا صورتها، إن معناها بالنسبة لنا يجب أن يوضح هنا :لقد فقدت الليبرالية نجاحاتها، الليبرالية تلك الصيغة الوحيدة للحياة السياسية التى ساعدت على اندماج اليهود قد إنهارت الآن[٢].

إن انتصار النازية يعلن أنه غير وارد تماماً فكرة اندماج اليهود، أو الزواج المختلط كخيار أمام اليهود "ولا نشعر بالتعاسة حيال ذلك "كما يقول الدكتور "برنز "الذى يرفض حقيقة إرغام اليهود على تعريف أنفسهم كيهود "تحقيقاً

(٢٧) ذهب هرتسل إلى روسيا فى أغسطس ١٩٠٣ لمقابلة فون بليهف، بعد أقل من أربعة أشهر على وقوع مذبحة كيتشيف المروعة، التى انتشر أن المسئول عنها بليهف نفسه، واقترح هرتسل إقامة تحالف يقوم على الرغبة المشتركة بإخراج غالبية اليهود من روسيا، وفى المدى القصير إبعاد التأييد اليهودى عن الحركة الاشتراكية، وقد بدأ الوزير العنصرى أول مقابلة (٨ أغسطس) بالقول أنه يعتبر نفسه «مؤيد متحمس الصهيونية» وعندما استغرق هرتسل فى وصف الصهيونية، قاطعه بليهف قائلاً: «أنك تحاول إقناع المقتنع بالفعل». بالعبرية AMOS ELON, HERZL, AM OVED, 1976 PP.415-9

(٢٨) DR JEACHIM PRINZ, WIR JUDEN, BERLIN,1934,PP.150-1.

لرغباتنا "ويضيف" :نريد أن يحل قانون جديد بدلاً من الاندماج "إعلان الانتماء إلى الأمة اليهودية والعرق اليهودى، إن دولة تبنى على مبدأ نقاء الأمة والعرق جديرة باحترام وتقدير اليهودى الذى يعلن الانتماء لبنى جلدته، وعرقه هو الوحيد القادر على احترام الإرادة القومية للأمم الأخرى[١].

إن الكتاب بأكمله ملئ بأمثلة على هذا التملق الفج للأيديولوجية النازية، والابتهاج بهزيمة الليبرالية، وبصفة خاصة لأفكار الثورة الفرنسية[٢] مع أمال عريضة بأنه فى ظل جو موائم من خرافة العرق الآرى، فإن الصهيونية وخرافة العرق اليهودى سوف تزدهر، وبالطبع فإن الدكتور "برنز "مثله مثل العديد من المتعاطفين الأوائل والمتحالفين مع النازية، لم يدرك إلى أين يمكن أن تقود هذه الحركة (وكذلك إلى أين تقود معاداة السامية الحديثة بشكل عام).

وبنفس القدر من عدم الإدراك، فإن الكثيرين فى وقتنا الحالى لا يدركون إلى أين تقود الصهيونية ـ الحركة التى كان الدكتور "برنز "أحد رموزها البارزة ـ إنما تفضى إلى تزاوج ما بين جميع أشكال الكراهية القديمة التى حملتها اليهودية الكلاسيكية تجاه غير اليهود، والاستخدام التعسفى واللاتاريخى لكل اضطهادات اليهود عبر التاريخ لتبرير الاضطهاد الصهيونى للفلسطينيين.

وعلى الرغم من أن الفكرة تبدو لا عقلانية، فإنها مع ذلك واضحة من خلال الفحص الدقيق للمبررات الحقيقية للصهاينة، إن أحد أعمق المصادر الأيديولوجية المتأصلة لعداء المؤسسة الصهيونية المتواصل للفلسطينيين إنما يصدر عن حقيقة أن الفلسطينيين يتماثلون فى أذهان الكثير من يهود أوروبا الشرقية المتمردين، الذين شاركوا فى ثورة خميلينسكى والثورات المشابهة كما تجرى مماثلة الفلاحين بطريقة لا تاريخية بمعاداة السامية الحديثة والنازية.

مواجهة الماضى

يجب على جميع اليهود الذين يريدون تخليص أنفسهم من طغيان الماضى اليهودى الاستبدادى الصارم، أن يواجهوا موقفهم الخاص من المظاهر الشعبية المعادية لليهود فى الماضى، خاصة تلك التى ارتبطت بتمردات الفلاحين الأقنان، ومن ناحية أخرى فإن جميع المدافعين عن الديانة اليهودية والعزل العرقى

---

(١) نفس المصدر السابق pp.154-5

(٢) راجع نفس المصدر p.136

والشوفينية اليهودية، أخذوا موقفهم استناداً إلى نفس المسألة، سواء بشكلها الجوهرى أم فى المناقشات الجارية الآن، حيث استخدموا الحقيقة التى لا تقبل الشك بأن الفلاحين الثوار الذين ارتكبوا مذابح وحشية ضد اليهود، (وكذلك ضد مضطهديهم الآخرين) بنفس الطريقة التى استخدموا بها الإرهاب الفلسطينى لتبرير إنكارهم لعدالة القضية الفلسطينية.

إن إجابتنا يجب أن تكون إجابة شاملة، قابلة للتطبيق من حيث المبدأ على جميع الحالات المشابهة، وبالنسبة لليهود الذين يبحثون حقاً عن التحرر من الاصطفائية(*) اليهودية والعنصرية ومن السيطرة الجامدة للديانة اليهودية، فإن إجابة كهذه ليست عسيرة المنال.

ومهما يكن، فإن ثورات الفلاحين المضطهدين ضد أسيادهم ومساعدى أسيادهم، كانت شائعة فى التاريخ.

فقد ثار الفلاحون الروس بقيادة "ستنكاريازين "بعد جيل واحد من ثورة الفلاحين الأوكرانيين بقيادة "خميلينسكى "وثاروا مرة أخرى بعد مائة عام، فى ثورة بزعامة "بوغاتشيف "وفى ألمانيا كانت هناك حرب الفلاحين عام ١٥٢٥، وفى فرنسا كانت ثورة جاكوار من ١٣٥٧ حتى ١٣٥٨، إضافة إلى الكثير من الثورات الشعبية الأخرى، ناهيك عن ذكر العديد من انتفاضات العبيد فى مختلف أنحاء العالم، وجميعها ـ وقد تعمدت اختيار أمثلة لم يكن اليهود طرفاً فيها ـ كانت مليئة بالمجازر الوحشية مثل الثورة الفرنسية الكبرى التى صاحبتها أعمال إرهابية مروعة.

ما موقف التقدميين الحقيقيين والغالبية العظمى من المتعلمين المهذبين فى وقتنا الحاضر سواء كانوا روساً أو ألماناً أو فرنسيين من تلك الثورات؟

هل يدين المؤرخون البريطانيون المحترمون عند ذكر المجازر التى تعرض لها رجال إنجليز على يد الفلاحين الإيرلنديين، أولئك الفلاحين بأنهم "عنصريين معادين للإنجليزية"؟ ما موقف المؤرخين الفرنسيين التقدميين من ثورة العبيد الكبرى فى سان دومينغو، حيث ذبح العديد من النساء والأطفال الفرنسيين؟

إن طرح السؤال يحمل الإجابة عليه، لكن طرح هذا السؤال على العديد من

(*) الإصطفائية: نظرية لاهوتية تقول بأن الخلاص بالمسيح مقصور على النخبة فقط. (المترجمة).

"التقدميين "أو حتى "الاشتراكيين "حيث هنا يحول الفلاح المستعبد إلى وحش عنصرى، رغم استفادة اليهود من عبوديته واستغلاله.

ولعلها قاعدة، أن من لا يتعلمون من التاريخ فإنهم محكوم عليهم بإعادته، وتنطبق هذه القاعدة على اليهود الذين رفضوا أن يصفوا حسابهم مع الماضى اليهودى، لقد أصبحوا عبيداً له ويكررونه فى السياسات الإسرائيلية والصهيونية، إن ما تقوم به دولة إسرائيل الآن ليس فى الشرق الأوسط فحسب بل خارجه أيضاً، من دور تجاه الفلاحين المضطهدين فى العديد من البلدان لا يختلف عن دور يهود بولندا قبل عام ١٧٩٨، أى دور مساعد للاضطهاد والقمع الإمبريالى.

ولابد أن هناك دلالة ما فى أن دور إسرائيل الأساسى فى تسليح قوات نظام سوموزا، فى نيكاراجوا، والآن قوات أنظمة جواتيمالا، والسلفادور، وتشيلى، لم يثر أى نقاش أو جدل عام واسع فى إسرائيل أو بين المجتمعات اليهودية "المنظمة "فى الداسبورة، وحتى السوء اللا محدد، حول مدى النفعية، فى بيع الأسلحة لدكتاتور يذبح المدافعين عن الحرية والفلاحين، على المدى البعيد لليهود - إن هذا السوء نادراً ما يطرح، والدلالة الأكبر وراء الدور الضخم الذى يقوم به اليهود المتدينون فى هذه التجارة، والصمت التام من جانب الحاخامات (الذين هم شديد الصراحة فى التحريض على الكراهية الموجهة ضد العرب) يبدو أن إسرائيل والصهيونية إلى ارتداد لصفات ودور اليهودية الكلاسيكية.

إن الإجابة الوحيدة المحتملة تجاه كل هذا، من جانب اليهود يجب أن تكون هى تلك الإجابة التى تمنح من جانب جميع المدافعين الحقيقيين من الحرية والإنسانية فى جميع البلدان إجابة جميع البشر وجميع الفلاسفة الكبار - رغم محدوديتهم أحياناً بسبب محدودية الوضع الإنسانى نفسه - يجب علينا أن نواجه الماضى اليهودى وملامح الحاضر التى اعتمدت على الكذب بشأن هذا الماضى وعبادته، أما المشروط المسبقة لهذا الأمر، فهى أولاً الأمانة التامة حول ذكر الحقائق، وثانياً الإيمان (الذى يقود إلى الفعل، قدر الإمكان) بشمولية المبادئ الإنسانية فى السياسة والأخلاق.

وقد كتب الحكيم الصينى «مينشيوس» (القرن الرابع قبل الميلاد) والذى تأثر به "فولتير "جداً:

"لهذا أقول إن على جميع البشر التحلى بمشاعر الشفقة :إذا شاهد رجل، فجأة طفلاً على وشك السقوط فى بئر، فمما لا شك فيه أنه سوف يشعر بنوع من الخطر والشفقة، وذلك ليس سعياً وراء مكافأة أو استحسان من والدى الطفل، أو بحثاً عن استحسان جيران، أو خوفاً من اللوم الذى سوف يقع عليه إذا لم ينقذ الطفل، لذلك نرى أنه لا يوجد إنسان دون شعور بالشفقة، أو إحساس بالخجل، أو الكياسة أو الصواب والخطأ، إن الشعور بالشفقة هو بداية الإنسانية، والشعور بالخجل هو بداية الذوق، والشعور بالصواب والخطأ هو بداية الحكمة، وتوجد بداخل كل إنسان هذه البدايات الأربع، تماماً كما لديه أطراف أربع ، وبما أن كل إنسان لديه هذه البدايات الأربع داخله، فإن الإنسان الذى يعجز عن ممارستها يحطم ذاته."

وكما رأينا، وسوف نستعرض بالتفصيل فى الفصل التالى، مدى ابتعاد المفاهيم، التى سممت بها الديانة اليهودية فى صيغتها التلمودية والكلاسيكية الأذهان والقلوب عن المبادئ المذكورة.

إن الطريق نحو ثورة أصيلة فى اليهودية ـ لجعلها إنسانية، تسمح لليهود أن يفهموا ماضيهم، وبهذا يعيدون تربية أنفسهم بعيداً عن استبداد وكذب الدين اليهودى ـ من خلال نقد صارم لليهودية دون خوف أو تحيز، علينا أن نتكلم جهاراً وبحرية رأى ضد ما ينتمى إلى ماضينا كما تحدث "فولتير "ضد ماضية "Ecrasez L'infamel أزيلوا الأشياء المشينة.

الفصل الخامس
الشرائع ضد الأغيار

كما شرحنا فى الفصل الثالث، فإن جميع اليهود تقريباً، قد مارسوا واقعياً الهالاكاه (أى المنظومة التشريعية لليهودية الكلاسيكية) منذ القرن التاسع وحتى نهاية القرن الثامن عشر، واستمرت هذه الممارسة حتى يومنا هذا من خلال اليهودية الأرثوذكسية التى تعتمد بشكل أساسى على التلمود البابلى، ولكن نظراً للتعقيدات غير العملية للمناظرات التشريعية التى سجلت فى التلمود، كانت هناك حاجة ضرورية إلى تجميع الشرائع التلمودية وتنسيقها بشكل طيع، وبالتأكيد فقد قام بهذا العمل الأجيال المتعاقبة من العلماء الحاخاميين، وقد نالت بعضاً منها سلطة عظمى فى الاستخدام العام المستمر حتى الآن، لهذه الأسباب علينا الرجوع إلى هذه الأعمال (وأشهر التعليقات عليها) بدلاً من الإشارة مباشرة إلى التلمود، ويصح الافتراض هنا إلى أن تلك الأعمال أعادت إنتاج معنى النص التلمودى بإخلاص، كما استندت الإضافات التى قدمها العلماء التاليون على أسس هذا المعنى.

أقدم تلخيص للشريعة التلمودية، والذى مازال له أهمية كبرى، هو كتاب "مشناه توراه "الذى وضعه موسى بن ميمون فى أواخر القرن الثانى عشر وأكثر هذه الكتب جزماً حتى اليوم، تعرف بكتيب "شولحان عاروخ "الذى وضعه الحاخام يوسف كارو فى أواخر القرن السادس عشر كنسخة شعبية موجزة عن كتابه الضخم "بيت يوسف "الذى كان أكثر ضخامة وموجها إلى العلماء المتقدمين فى الدراسات التلمودية، وقد حظى "شولحان عاروخ "بقسط أكبر من التعليقات، بالإضافة إلى تلك التى يرجع تاريخها إلى القرن السابع عشر، وهناك تعليق مهم من القرن العشرين وهو كتاب "ميشناه بيروره."

وأخيراً هناك الموسوعة التلمودية وهى عمل حديث نشر فى إسرائيل منذ الخمسينيات ووضعه أهم العلماء الحاخاميون الأرثوذكس فى إسرائيل، وهو خلاصة وافية جيدة لجميع الأدب التلمودى.

طبقاً إلى الديانة اليهودية، فإن قتل اليهودى معصية كبرى وواحدة من ثلاث خطايا شنيعة (الخطيئتان الآخرتان هما الوثنية والزنا) وتؤمر المحاكم الدينية اليهودية السلطات المدنية بإنزال العقوبة، حتى التى تتجاوز الأحكام التقليدية للعدالة، فيما يخص أى شخص مذنب بقتل يهودى، أما اليهودى الذى دون عمد يتسبب فى قتل يهودى أخر، فإنه مذنب فقط بما تسميه الشريعة التلمودية خطيئة ضد "شرائع السماء "ولذلك فإن الرب يعاقبه بدلاً من الإنسان، ولكن عندما تكون الضحية من غير اليهود فإن الموقف يختلف تماماً، اليهودى الذى يقتل غير يهودى مذنب فقط بخطيئة ضد شرائع السماء التى لا تعاقب عليها المحكمة[١] أما التسبب فى موت غير اليهودى بطريقة غير مباشرة، لا تعد إثماً على الإطلاق[٢].

وعلى هذا، فإن واحداً من أهم التعليقات على "شولحان عاروخ "أنه عندما يتعلق الأمر بغير اليهودى، فلا يجب على اليهودى أن يرفع يديه ليؤذيه، ولكنه قد يؤذيه بشكل غير مباشر، على سبيل المثال، بإزاحة سلم، بعد سقوطه فى حفرة عميقة، ولا يوجد تحريم على عمل كهذا لأنه يتم بطريقة غير مباشرة[٣] ومع هذا يحظر من ناحية أخرى أى عمل يؤدى بطريقة غير مباشرة إلى موت غير اليهودى، إذا كان سينتج عن ذلك انتشار العداء لليهود[٤].

إذا وقع القاتل غير اليهودى تحت نطاق سلطة يهودية، يجب أن يعدم سواء كانت الضحية يهودية أم لا، ولكن إذا لم تكن الضحية يهودية، وكان القاتل قد تحول إلى اليهودية، فلا يعاقب[٥].

(١) Maimonides, Mishneh Torah, "Laws on Murderer" 2,11, Talmudic Enyclopedia."Goy".

(٢) الحاخام يونيل سيركيس «بيت حادامش» تعليق على «بيت يوسف» عيوريه ديعاه ١٥٦، تنطبق القاعدتان السابقتين حتى لو كان غير اليهودى «جيرتوشان» أى (أجنبي مقيم) وتعهد أمام ثلاثة شهور يهود باحترام المبادىء التوراتية السبعة، التى تعتبر الشريعة التلمودية أنها موجهة إلى الاغيار.

(٣) الحاخام ديفيد حالاوى (بولندا فى القرن السابع عشر) توريه زاهاف على شولحان عاروخ (عيوريه ديعا) ١٥٨.

(٤) مفهوم «العداء»، سيناقش فيما بعد.

(٥) دائرة المعارف التلمودية «جير» (معتنق الديانة اليهودية).

كل هذا وثيق الصلة بشكل مباشر وعملي بما يجرى في دولة إسرائيل، على الرغم من أن قوانين الدولة الجنائية لا تضع فرقاً بين اليهود وغير اليهود، فإن مثل هذا التمييز يصنع بالتأكيد من جانب الحاخامات الأرثوذكس، الذين يدعون أتباعهم إلى الالتزام بالهالاكاه، وبصفة خاصة من خلال النصائح التى يمنحونها إلى الجنود المتدينين.

وحيث إن مبدأ تحريم قتل غير اليهودى ينطبق فقط على "غير اليهود الذين نحن (اليهود) لسنا فى حالة حرب معهم "فقد استخلص العديد من المعلقين الحاخاميين فى الماضى النتيجة المنطقية، بأن إمكانية قتل جميع غير اليهود المنتمين إلى شعب عدو، أو حتى ضرورة قتلهم[(١)] ومنذ عام ١٩٧٣، يجرى الترويج لهذا المبدأ علانية من أجل إرشاد الجنود الإسرائيليين المتدينين.

وأول نصيحة رسمية من هذا النوع تضمنها كتيبت نشرته قيادة المنطقة الوسطى فى الجيش الإسرائيلى، التى تضم منطقة الضفة الغربية، فى هذا الكتيب يقول الحاخام المسئول" :فى حالة مرور قواتنا بالمصادفة أو خلال مطاردة حامية أو غارة، خلال الحرب بمدنيين، إذا لم يتوافر دليل كافٍ على أن هؤلاء المدنيين غير مؤهلين بإلحاق الأذى بقواتنا، فإنه طبقاً للهالاكاه يجب قتلهم، تحت أى ظروف لا يجب الثقة فى عربى، حتى ولو أظهر انطباعات بأنه متحضر، فى الحرب، عندما تنقض قواتنا على العدو، فمسموح لها بل هى مأمورة طبقاً للهالاكاه، بأن تقتل حتى المدنيين الأبرياء، وهذا يعنى المدنيين الذين يتظاهرون بأنهم أبرياء[(٢)].

(١) على سبيل المثال، الحاخام شبتاى كوهن (منتصف القرن السابع عشر، «فتى كوهن» على «شوكان عاروخ» عيورية ديعاه ١٥٦، يقول: «ولكن فى أوقات الحرب من المعتاد قتلهم بالأيدى، لأنه قيل: «أفضل الأغيار أقتلوه Siptey Kohen, Tarey zahav (راجع املاحظة ٣) هما الكتابان الكلاسيكيان من التعليقات والتفاسير لـ «شولحان عاروخ».

(٢) الحاخام العقيد أ.افيدان (زميل) Tohar hannesheq leor hahalakhah تعنى (طهارة السلاح على ضوء الهالاكاة) فى Beiqvot milhemet yom hakkippurim-pirqey hagut. halakhah umehqar تعنى (فى أعقاب حرب يوم الغفران - فصول التأمل، والهالاكاة وابحث، قيادة المنطقة الوسطى ١٩٧٣، تم ذكره فى «هعولام هازيه» ٥ يناير ١٩٧٤، وذكره أيضاً ويدفد شاهام، فصل فى التأمل، حوتام ٢٨ مارس ١٩٧٤، وكذلك أمنون روبنشتاين، من يزيف الهالاكاة، فى معاريف ١٣ أكتوبر ١٩٧٣، ويشير روبنشتاين أن الكتيب سحب فيما بعد من التداول بأمر رئيس الأركان، ربما لأنه كان يشجع الجنود على عصيان أوامره ولكنه يذكر محتجاً أن الحاخام افيدان لم يقدم للمحكمة العسكرية، ولم يعترض أى حخام عسكرى أو مدنى على ما كتبه.

نفس العظة تظهر من خلال رسائل متبادلة بين جندى إسرائيلى صغير وحاخامه، نشرت فى الكتاب السنوى لكلية Midrashiyyat Noam وهى واحدة من أكثر المعاهد الدينية احتراماً فى إسرائيل، والتى تدرس فيها العديد من قيادات ونشطاء الحزب القومى الدينى وغوش ايمونيم[1].

خطاب من الجندى موشى إلى الحاخام شمعون وايزر:

"بمساعدة الرب،

إلى صاحب المقام الرفيع حاخامى العزيز:

"أولاً أود أن أسأل عنك وعن أسرتك، آمل أن تكونوا جميعاً بخير، أنا بحمد الرب بخير، وأرجو المعذرة لأننى لم أكتب منذ وقت طويل، وأحياناً استدعى أية متى سوف آتى وأظهر أمام الرب[2] آمل دون يقين، أننى سوف آتى خلال واحدة من الإجازات، يجب على أن أفعل هذا.

فى واحدة من نقاشات جماعتنا، كان هناك جدال حول "طهارة السلاح "وما إذا كان من الجائز قتل العربى الأعزل من السلاح، أو النساء والأطفال، أو حتى ما إذا كان علينا الانتقام من العرب؟ ووقتها أجاب كل واحد وفق فهمه، ولكننى لم أتمكن من الوصول إلى قرار واضح، ما إذا كان يجب معاملة العرب مثل العماليق، أى نقتلهم حتى نستأصل ذكراهم من الأرض[10]، أم نقوم بما يحدث فى الحرب العادلة التى يقتل فيها الإنسان الجنود فقط.

المشكلة التى أواجهها هى، هل مسموح لى بأن أعرض نفسى للخطر من أجل انقاذ امرأة من الموت؟ لأن هناك حالات تلقى بها النساء قنابل يدوية أو هل مسموح لى أن أعطى عربياً ماء إذا رفع يديه مستسلماً؟ لأنه قد يكون هناك ما يدعو للخوف من أنه فقط يقصد خداعى وسوف يقتلنى، وهذه الأشياء حدثت بالفعل.

(١) الحاخام شمعون وايزر «طهارة السلاح رسائل متبادلة» فى «نيف هامدراشياه» الكتاب السنوى لـ Midrashiyuat Noam P.30-29 1974 الذى نشر بالعبرية والإنجليزية والفرنسية، ولكن الرسائل المذكورة هنا هى التى نشرت بالعبرية فقط.

(٢) المزامير ٤٢ و ٢

(٣) «ولتمح ذكرى العماليق من تحت السماء» تثنية ٢٥ و ١٩ وأيضاً شموئيل الأول ١٥ : ٣ «إذهب الآن واضرب العماليق، دمرهم جميعاً، ولا تبق أحداً منهم، بل أذبح الرجل والمرأة والطفل والرضيع والثور والماعز والجمل والحمار».

"اختم خطابى بتحية حارة إلى الحاخام وأفراد أسرته"

موشى

رد الحاخام شمعون وايزر

"بعون السماء،

عزيزى موشى، أطيب تحياتى

"ابدأ رسالتى هذا المساء على الرغم من علمى بأننى لن أنهيها هذا المساء، لأننى مشغول ولأننى أود أن أكتب رسالة مسهبة، للإجابة عن أسئلتك، لذلك سأنقل لك بعض أقوال حكمائنا، طيب الله ذكراهم وسوف أفسرها[1].

إن الحرب لدى الأمم غير اليهودية، لها قوانين خاصة مثل قوانين اللعب، مثلاً كرة القدم أو السلة، لكن الحرب كما يقول حكماؤنا، طيب الله ذكراهم، لا تعني بالنسبة لنا لعبة ولكنها ضرورة أساسية، ومن هذا المنطلق فقط علينا أن نقرر كيف نشن الحرب (.....) ويبدو أن علينا أن نتعلم أنه إذا قتل اليهودى غير اليهودى يعتبر قاتلاً، باستثناء حقيقة أنه لا توجد محكمة تملك حق عقابه، إن وطأة هذا الفعل تقع على كاهله مثل أى جريمة قتل أخرى، لكننا نجد لدى نفس المراجع فى مكان آخر (......) أن الحاخام شمعون اعتاد القول: «أفضل غير يهودى ـ اقتلوه ـ أفضل الأفاعى سحق رؤسها».

وقد يجادل البعض فى أن تعبير «اقتلوا» فى قول الحاخام شمعون هو فقط مجازى ولا يجب آن يؤخذ بمعناه الحرفي، ولكن بمعنى «يقمع» أو شيئاً من هذا القبيل، وعلى هذا النحو يجب تجنب التناقض فى المراجع التى أشرنا إليها، وقد نجادل أن هذا القول، مع أخذه بمعناه الحرضى، يعبر فقط عن الرأى الشخصى للحاخام شمعون، الذى فند من خلال حكماء آخرين (أشرنا إليهم من قبل) لكننا نعثر على التفسير الحقيقى فى «توسافوت»[2] (Tosafot).

هناك (.....) نعرف أن التعليق التالى على الحكم التلمودى بعدم مساعدة غير اليهود الذين يسقطون فى بئر للخروج منها، مع عدم دفعهم إليها أو

---

(١) أعفى القارىء من معظم هذه الإشارات المعقدة والاستشهادات من التلمود والمراجع الحاخامية، والمحذوفات هنا سوف يشار إليها (........) لكن خلاصات الحاخام نفسه سوف ترد بالكامل.

(٢) المعنى الحرفى للتوسافوت، نوع من الكتابة حول التلمود يرجع تاريخها إلى القرنين الحادى عشر والثالث عشر.

قتلهم، مما يعنى أيضاً أنهم لا يجب إنقاذهم ولا قتلهم مباشرة، فى « توسافوت» مايلى: «وإذا كان هناك شك (لأنه) فى موضع آخر قيل أفضل غير اليهود - اقتلوه، عندئذ فالإجابة آن هذا القول يعنى زمن الحرب» وطبقاً إلى مفسرى الـ « توسافوت» فإنه يجب التمييز بين زمن الحرب والسلم، على الرغم من أنه خلال زمن السلم من المحرم قتل غير اليهود، فإنه فى زمن الحرب يعد قتلهم (واجباً دينياً) Mitzvah.

وهذا هو الفارق بين اليهودى وغير اليهودى: على الرغم من أن قاعدة «من يأتى لقتلك أقتله أولاً.. تنطبق على اليهودى أيضاً، كما جاء فى رسالة السندرين (فى التلمود) صفحة ٩٧٢، فإنها تنطبق عليه فقط إذا كان هناك مبرر (فعلى) للخوف من أنه جاء لقتلك، ولكن ينبغى عادة الافتراض، بأن غير اليهودى يأتى لقتلك فى زمن الحرب، ما لم يتضح تماماً أنه لا يحمل تجاهك نية آثمة، هذه هى قاعدة «طهارة السلاح» وفقاً للهالاكاه، وليس حسب المفهوم الأجنبى المقبول الآن فى الجيش الإسرائيلى، والذى تسبب في الكثير من الضحايا (اليهود).

أرفق لك هنا، قصاصة من صحيفة، بها الخطاب الذى ألقاه الأسبوع الماضى الحاخام كالمان كاهانا فى الكنيست، حيث يوضح بأسلوب بالغ الحيوية والألم، كيف أن تطبيق قاعدة «طهارة الأسلحة» قد تسببت بحسب المفهوم الأجنبى، فى وقوع ضحايا.

اختتم هنا رسالتى، أملاً ألا تجد طول هذه الرسالة مضجراً، هذا الموضوع جدير بالنقاش حتى دون أن تكتب عنه فى رسالتك، ولكنها دفعتنى إلى أن أكتب عن الأمر برمته.

«كن فى سلام، أنت وجميع اليهود، و(آمل أن) آراك قريباً، وكما تقول .. فى خدمتك» ... (شمعون)

رد موشى إلى الحاخام شمعون وايزر

«صاحب المقام الرفيع ... حاخامى العزيز

أولاً آمل أن تكون وأسرتك فى صحة وجميعكم بخير، لقد تلقيت رسالتك المطولة، وأنا سعيد لرعايتك الشخصية لى، حيث افترض أنك استقطعت من وقتك الثمين الموجه لدراساتك فى برنامجك الخاص، للكتابة لى، لهذا فإن

شكرى لك عميق للغاية، بالنسبة للخطاب نفسه فقد فهمته كالتالى، لا يسمح لى فقط فى زمن الحرب بقتل كل عربى رجل أو امرأة كلما سنحت لى الفرصة، بل من واجبى أيضاً القيام بذلك، إذا كان هناك ما يدعو للشك فى أنهم يساعدون فى الحرب ضدنا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وإذا تحدثت عن نفسى فإن من واجبى قتلهم حتى إذا نتج عن ذلك تعرضى لمشكلة مع القانون العسكرى، وأعتقد أن فكرة «طهارة السلاح» هذه يجب تعميمها على المعاهد التعليمية، الدينية منها على الأقل، التى يجب أن يكون لديها موقف من هذا الأمر وبهذا سوف لن يضلوا فى الدروب الفسيحة «للمنطق» خاصة فى هذه القضية التى آسف أن أقول إننى قد رأيت أشكالاً مختلفة من «المنطق» لدى رفقائى من الجنود المتدينين، لذا أرجو أن تنشط فى هذا الموضوع، حتى يعرف جنودنا موقف أسلافهم بوضوح ودون لبس.

أنهى خطابى هنا، آملاً أنه مع انتهاء دورتى التدريبية، فى غضون شهر، سوف أكون قادراً على المجيء إلى الكلية التلمودية، تحياتى.... (موشى)

لا تتناقض هذه القاعدة للهالاكاه مبدئياً، مع القانون الجنائى الإسرائيلى فحسب، ولكن أيضاً كما هو متضمن فى الخطابات التى أوردناها سابقاً، تتناقض مع قوانين الجيش الرسمية أيضاً، ورغم هذا لا يساورنا شك فى أنها تؤثر على التطبيق الفعلى للعدالة خاصة من جانب السلطات العسكرية، ففى جميع الحالات التى قتل فيها يهود من الجيش، أو منظمات شبه عسكرية، عرباً غير محاربين، بما فى ذلك حالات القتل الجماعى مثل تلك التى حدثت فى كفر قاسم ١٩٥٦، أطلق سراح القتلة أو تعرضوا لأحكام بالغة الرفق، أو فازوا بأحكام غالباً ما كان يفرج عنهم قبل نفادها مما يجعل هذه الأحكام وكأنها لم تصدر تقريباً[١].

(١) لقد سمح للأشخاص المتهمين بهذه الجرائم، بأن يرتقوا حتى أعلى المناصب العامة، وكمثال على ذلك فإن شموئيل لاهيس المسئول عن قتل حوالى من ٥٠ إلى ٧٥ من الفلاحين العرب كانوا معتقلين فى أحد المساجد بعد أن احتل الجيش الإسرائيلى قريتهم أثناء حرب ١٩٤٦-١٩٤٩ منح عفو تام بعد محاكمة صورية بسبب تدخل بن غوريون وبعدها أصبح محامياً بارزاً وفي أواخر السبعينيات أختير مديراً عاماً للوكالة اليهودية (أى الفرع الإسرائيلى للحركة الصهيونية) وفى أوائل عام ١٩٧٦ نوقشت الحقائق الخاصة بماضيه فى الصحافة الإسرائيلية، ولم يعترض أى حاخام علي العفو الصادر تجاهه.

لهذا المفهوم والقيمة العليا للحياة الإنسانية والتزام الإنسان ببذل أقصى ما في وسعه من أجل إنقاذ حياة أخيه الإنسان، أهمية واضحة فى حد ذاتها، وهى أيضاً لها وضع خاص فى الرؤية اليهودية، نظراً لأن الرأى العام اليهودى قد أدان منذ الحرب العالمية الثانية، بعدل فى بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى بلا عدل، العالم أجمع، أو على الأقل أوروبا كلها لأنها وقفت موقف المتفرج بينما كان اليهود يذبحون، لهذا دعونا نتفحص ما تذكره الهالاكاه فى هذه القضية.

طبقاً إلى الهالاكاه، فإن واجب إنقاذ حياة اليهودى أعظم واجب[1] أما بالنسبة لغير اليهود فإن المبدأ التلمودى الأساسى ينص على عدم انقاذهم، على الرغم من أنه محرم قتلهم صراحة، ويعبر التلمود[2] نفسه عن هذا كمبدأ أساسى لا يجب إخراج غير اليهود من بئر أو رفعهم (من البئر) ويشرح ابن ميمون[3] هذا الأمر بالنسبة لغير اليهود الذين لسنا معهم فى حرب يجب ألا نتسبب في قتلهم، ولكن محرم إنقاذ حياتهم إذا كانوا علي مشارف الموت، إذا شوهد أحدهم يسقط فى البحر مثلاً، لايجب إنقاذه لأن الشريعة تقول «لا تهمل دم أخيك وغير اليهودى ليس أخاً»[4].

وبصفة خاصة، لا يجب على الطبيب اليهودى أن يعالج مريضاً غير يهودى، ابن ميمون نفسه كان طبيباً لامعاً كان شديد الوضوح فى هذا الأمر، وفى نص آخر يكرر[5] الفرق بين «أخيك» وغير اليهودى ويختتم، ومن هذا نتعلم أنه محرم علاج غير اليهودى حتى ولو مقابل أجر» لكن رفض اليهودى، أو بالأحرى الطبيب اليهودى، إنقاذ حياة غير اليهود قد يثير عداء أصحاب النفوذ منهم،وبهذا يكون اليهودى فى خطر، إذا شاع هذا الأمر وانتشر بين الناس، ومع احتمال وجود خطر كهذا فإن واجب تجنبه يتجاوز تحريم مديد العون لغير اليهود، لذلك يواصل ابن ميمون، ولكن إذا خفت عداوته عالجه مقابل أجر، فإنه محرم

(١) شولحان عاروخ «هوشين مشبات» ٤٢٦.

(٢) "Tnacate Avoda Zarah" P.266

(٣) ابن ميمون، نفس المصدر الذى سبق ذكره «حكم القاتل» ٤ : ١١.

(٤) سفر اللاويين ١٩ و ١٦

(٥) ابن ميمون، نفس المصدر السابق ١٠ و ٢-١

أن تفعل ذلك دون أجر، وقد كان ابن ميمون نفسه، فى الواقع الطبيب الخاص لصلاح الدين، ويبدو إصراره على العلاج بأجر، ربما لتثبيت فكرة أن عمله لم يكن فى إطار الإحسان الإنسانى، ولكنه كان واجباً لا سبيل إلي اجتنابه، ليس قاطعاً لأنه فى نص آخر يسمح بعلاج غير اليهودى الذى يخشى عدم القدرة على مواجهة عداوته حتى مجاناً، إذا لم تكن هناك وسيلة لاجتناب هذا.

تتكرر نفس القاعدة ـ تحريم إنقاذ حياة غير اليهودى أو علاجه، وتعطيل هذا التحريم فى وجود حالة من خشية العداوة، (حرفياً تقريباً) من جانب مراجع أخرى، بما فى ذلك الكتاب المنشور فى القرن الرابع عشر، «أربع توريم» وكتاب كارد «بيت يوسف» و«شولحان عاروخ»[1] ويضيف «بيت يوسف» مستشهد بابن ميمون» وهو مباح تجربة عقار على وثنى إذا كان هذا لخدمة غرض، كما تتكرر نفس القاعدة لدى الحاخام الشهير موسى أسيرليس.

وتجمع كل المراجع الهالاكية، على أن مصطلح «الأغيار» فى القاعدة السابقة تشير إلى جميع غير اليهود، صوت وحيد فقط خالف هذه القاعدة هو صوت الحاخام، موسى ريفكيس، صاحب تعليق ضئيل الأهمية على «شولحان عاروخ» الذى ذكر[2] لقد قال حكماؤنا هذا فقط على الوثنيين، الذين كانوا فى زمانهم يعبدون الأوثان ولم يؤمنوا بخروج اليهود من مصر أو خلق الكون من العدم، لكن الأغيار الذين نعيش، نحن شعب إسرائيل (في كنفهم) فى المنفى، والذين ننتشر بينهم يؤمنون بخلق العالم من العدم وبالخروج، وبالعديد من مبادىء ديانتنا ويصلون لخالق السموات والأرض، ولا يوجد اعتراض على مساعدتهم، بل من واجبنا أيضاً الصلاة من أجل أمانهم وسلامتهم.

هذا النص، يعود تاريخه إلى النصف الثانى من القرن السابع عشر، هو المفضل لدى العلماء المدافعين عن اليهودية[3] لكن من الناحية العملية ليس

(١) فى الحالتين المذكورتين فى المدخل «يوريه ديعاه» ١٥٨ يكرر «شولحان عاروخ» نفس النظرة.
(٢) موسى ديفيكس تعليق «بئير هاغولاه» على «شولحان عاروخ» ٤٢٥.
(٣) هكذا يستشهد الدكتور جاكوب كاتز، فى كتابه الصادر بالعبرية، «بين اليهود والأغيار» وأيضاً نسخته الأكثر تبريراً الصادرة بالإنجليزية تحت عنوان «الحصرية التسامح» بهذا المقطع حرفياً ويستخلص نتيجة مذهلة «بالنسبة لواجب إنقاذ حياة الإنسان لا يجب أن يكون هناك تمييز بين اليهود والمسيحيين، ولا يستشهد بأى من الآراء ذات المرجعية المهمة التى ذكرها سابقاً، أو فى القسم التالى.

كما يدعى المدافعون عنه، إذ يدعون لإلغاء التحريم على إنقاذ حياة غير اليهودى، بدلاً من الحث على ذلك لجعله إجبارياً كما هو الحال بالنسبة لإنقاذ حياة اليهودى، وحتى هذا القدر من التسامح يمتد فقط ليشمل المسيحيين والمسلمين وليس غالبية البشر، وربما كان وجوده يدل على محاولات من أجل جعل عقيدة الهالاكاه القاسية أكثر تسامحاً، لكن معظم علماء الهالاكاه اللاحقين لم يمدو من نطاق تسامح ريفيكس ليشمل جماعات إنسانية أخرى، بل رفضوها تماماً.

انتهاك قدسية السبت لإنقاذ حياة إنسان

انتهاك قدسية السبت التى هى عبارة عن القيام بعمل يمكن بطريقة أو بأخرى أن يكون محرم فى السبت، يصبح واجباً دينياً، عندما تكون هناك حاجة لإنقاذ حياة يهودى.

إن معضلة إنقاذ حياة غير يهودى فى السبت لم تظهر فى التلمود كقضية أساسية، حيث إنه تحت أى وضع محرم حتى فى أيام الأسبوع العادية، ومع هذا فإنها تظهر كعنصر معقد فى حالتين:

أولاً: فلنفترض أن هناك جماعة من البشر فى خطر، ومحتمل (وليس مؤكد) أن هناك بينهم على الأقل واحداً يهودياً، فهل يجب أن تنتهك قدسية السبت من أجل إنقاذهم؟ إن هناك جدلاً متسعاً فى هذه الحالة، بالتتبع للمراجع الأولى، بما فى ذلك التى وضعها ابن ميمون، والتلمود نفسه، فإن «شولحان عاروخ»[(١)] يقرر هذه الأمور وفقاً لحجم الاحتمالات، مثلاً إذا افترضنا أن تسعاً من غير اليهو وواحداً يهودياً يعيشون في نفس البيت وذات سبت إنهار المنزل وواحد من التسع، غير معروف منهم قد نجا، ولكن التسعة الآخرون محاصرون تحت الأنقاض، فهل يجب إزالة الإنقاض، وبالتالى انتهاك السبت، مع وجود احتمال بألا يكون اليهودى تحتها، فقد يكون الشخص الذى نجا؟ «شولحان عاروخ» يقول أنه يجب افتراض وجود احتمال أن اليهوى تحت الإنقاض بنسبة (تسعة إلى واحد) ولكن الآن لنفترض أن التسعة نجوا وواحد فقط ـ مرة أخرى، غير معروف أيمنهم ـ محاصر، هنا يوجد إلزام بإزالة الإنقاض، لأن الاحتمال بوجود

(١) ابن ميمون، نفس المصدر السابق ذكره «السبت» ٢١-٢٢ وشولحان عاروخ، أوراد حاييم ٣٢٩.

يهوى هذه المرة بعيدة (تسعة إلى واحد) ضد أن يكون اليهوى تحت الإنقاض، وعلى نفس المنوال، إذا كان هناك قارب يضم بعض اليهود معرضاً للخطر فى البحر، فإنه واجب إلزامى على جميع اليهود انتهاك قدسية السبت من أجل إنقاذهم، ورغم هذا فإن الحاخام الأعظم عكيفا ايفر (المتوفى عام ١٨٣٧) يفسر أن هذا فقط ينطبق عندما يكون معلوماً على وجه اليقين أن هناك يهوداً فى القارب ولكن، إذا لم يكن معلوم علي وجه اليقين أى شيء حول هوية هؤلاء المجودين فى القارب فإن (السبت) لا يجب أن ينتهك، بأى عمل طبقاً إلى حجم الاحتمالات، وأن غالبية البشر فى العالم من غير اليهود[1] وبذلك، وحيث إن الاحتمالات بعيدة جداً فيما يخص أياً من الركاب من اليهود، فإنهم يجب أن يتركوا للغرق، بالإضافة إلى ذلك، فإن هناك تدبيراً احتياطياً فى حالة إنقاذ غير اليهود إذا كانت من أجل درء خطر العداوة ولكنه مقتضب فى السبت، اليهودى الذى يستنجد به لمساعدة غير اليهودى فى أيام الأسبوع، يمكن أن يذعن لأنه مسموح له، إنقاذ غير اليهودى، فى حالة إذا كان عدم القيام بذلك سيجلب العداء، ولكن من السبت يمكن لليهودى أن يستخدم عذر التقيد بشعيرة السبت بشكل مقبول.

وقد نوقشت حالة نموذجية بشكل مطول فى التلمود وهى تتعلق بالقابلة اليهودية، إذا طلب منها مساعدة امرأة غير يهودية فى الولادة باختصار النتيجة الجوهرية لهذه المجادلات، أن القابلة مسموح لها فقط أن تساعد فى أيام الأسبوع «خوفاً من العداوة» ولكنها محرم عليها فى السبت، لأن بإمكانها التعلل بأن تقول: «إنه مسموح لنا فقط أن ننتهك قدسية السبت لصالحنا، نحن الذين نتقيد بتعاليم السبت، ولكن بالنسبة لكم، الذين لا تتقيدون بالسبت، فمحرم علينا انتهاكه من أجلكم، هل هذا المبرر أصيل أم أنه مجرد عذر؟ ابن ميمون يرى بوضح أنه مجرد عذر، يمكن أن يستخدم حتى إذا كانت المهمة التى دعيت القابلة للقيام بها لا تستوجب فى الواقع أى انتهاك لقدسية السبت، يفترض أن العذر يمكن أيضاً أن ينجح في مثل هذه الحالة، لأنه من المعروف

(١) الحاخام عكيفا أيفر، تعليق على شولحان عاروخ، نفس المصدر السابق ويضيف أيضاً عشر على طفل متروك فى مدينة تسكنه غالبية من غير اليهود يجد استشارة الحاخام، ما إذا كان من الواجب إنقاذه.

بشكل عام أن غير اليهود من الجهل بحيث إنهم لا يعرفون تحديداً ما هى أنواع الأعمال المحرمة على اليهود فى السبت.

وعلى أى حال، يصدر الحكم: «لا يجب أن تساعد المرأة غير اليهودية (من الأغيار) فى الولادة يوم السبت حتى لقاء أجر، ولا يجب الخوف من العدائية، حتى عندما (يكون مثل هذا العمل) لا ينطوى على انتهاك لقدسية السبت» وشولحان عاروخ يقتضى نفس الحكم[(١)].

ومع هذا فإن هذا النوع من الأعذار، لا يمكن دائماً التعويل عليه، فى القيام بالخدعة وتجنب عداوة غير اليهود، لهذا فإن بعضاً من المراجع الحاخامية المهمة كان عليها أن تخفف من قيود السبت إلى حد ما وتسمح لأطباء اليهود بمعالجة غير اليهود من السبت حتى ولو انطوى هذا على القيام ببعض الأعمال التى هى بشكل طبيعى محرمة فى هذا اليوم، هذا التخفيف الجزئى ينطبق بصفة خاصة، على المرضى غير اليهود الأثرياء وأصحاب السلطة، الذين لا يمكن مماطلتهم بسهولة أو الذين يحتمل أن تتسبب عداوتهم فى خطر على اليهود.

وعلى هذا الأساس فإن الحاخام يوئيل سركيس، مولف «بيت حداش» وواحد من أهم الحاخامات فى عصره (بولندا، القرن السابع عشر) يقرر أن رؤساء البلدان والنبلاء والارستقراطيين، يجب أن يعالجوا فى السبت، خوفاً من عداوتهم التى قد تتسبب فى (بعض الخطر) ولكن فى حالات أخرى، خاصة عندما يكون هناك إمكانية لمماطلة غير اليهودى باستخدام أعذار مراوغة، فإن الطبيباليهودى سوف يرتكب «إثماً لا يغتفر» إذا عالجه فى السبت، وفيما بعد، فى نفس القرن، فإن حكماً شبيهاً قد صدر في مدينة ميتز الفرنسية، حيث كان يربط بين شطريها جسر عائم، وفى المعتاد لم يكن مجاز لليهود عبور هذا الجسر فى السبت، ولكن حاخام ميتز قرر أن الطبيب اليهودى يمكنه القيام بذلك، إذا استدعاه الحاكم الأعلى، حيث إنه يعرف أن الطبيب يعبر الجسر من أجل مرضاه

(١) ابن ميمون المصدر السابق ذكره، السبت ٢ و ١٢ شولحان عاروخ «أوراه حاييم» ٢٣٠ يستخدم النص الثانى «وثنى بدلاً من غيرى، لكن بعض التعليقات مثل تورى زاحاف، تؤكد أن هذه القاعدة تنطبق حتى على الإسماعيليين أى المسلمين وهم غير وثنيين ولا يذكر المسيحيون بشكل صريح فى هذا الإطار، لكن القاعدة تطبق بالضرورة عليهم لأن الإسلام كما سنرى يعامل بطريقة أفضل من المسيحية، أنظر أيضاً «فتوى» حاخام سوقير المذكورة أدناه.

اليهود، إن عداوة الحاكم يمكم أن تستنبط إذا رفض الطبيب أن يقوم بذلك من أجله. أثناء الحكم الفاشستى للويس الرابع عشر، كان من المهم بشكل واضح الحصول على رضى حكامه فى المقاطعة (فى ظل الأنظمة، الملكية الفرنسية) وكان الاهتمام بغير اليهود الأقل شأناً، قضية تستوجب اهتماماً ضئيلاً(١).

ويذكر كتاب (هوخمات شنومو) أحد تفاسير شولحان عاروخ» ويعود تاريخه إلى القرن التاسع عشر أن التفسير الجازم لمفهوم العدائية، بالنسبة للقرائيين (طائفة يهودية صغيرة مهرطقة) وطبقاً إلى هذه الرؤية، فإن أرواحهم لا يجب تنقذ إذا كان ذلك يعني انتهاكاً للسبت «لأن» العدائية تنطبق فقط على الوثنيين، الذين هم أغلبية ضدنا، ونحن ملقون بين أيديهم، (لهذا) فإن الخوف من العدائية لا ينطبق عليهم إطلاقاً(٢) وفى الواقع فإن التحريم الكلى من انتهاك حرمة السبت من أجل إنقاذ حياة قرائى مازالت مطبقة حتى اليوم كما سوف نرى لاحقاً.

وقد نوقشت القضية برمتها في فتوى الحاخام موشى سوفير المعروف أكثر بحاتام سوفير - حاخام برسبرغ الشهير المتوفى عام ١٨٣٢، أن استنتاجاته لها أكثر من أهمية تاريخية، حيث إنه فى عام ١٩٦٦، أحد فتاويه قد صدق عليها

(١) يذكر الحاخام ز. كاهانا، المثالين من بولندا وفرنسا في «الطب فى الأدب المعالاكى ما بعد التلمودى» سيناى المجلد ٢٧ (١٩٥٠) ص ٢٢١ ويذكر أيضاً الحالة التالية من إيطاليا القرن التاسع عشر، فحتى عام ١٨٤٦، حرم قانون خاص من المقاطعات البابوية، الأطباء اليهود من علاج غير اليهود، ألغت الجمهورية الرومانية المقامة عام ٨٤٨ هذا القانون إضافة إلى القوانين الأخرى التمييزية ضد اليهود، ولكن فى ١٨٤٩، حزمت حملة عسكرية أرسلها رئيس فرنسا لويس نابليون (الذى أصبح فيما بعد الإمبراطور نابليون الثالث) الجمهورية وأعادت البابا بيوس، الذى أعاد القوانين المعادية لليهود عام ١٨٥٠، وقد تجاهل قادة الحملة الفرنسية نتيجة لامتعاضهم من القانون البابوى، واستخدموا بعض الأطباء اليهود لعلاج جنودهم وقد أجاب كبير حاخامات روما، موشى حازان، الذى كان طبيباً أيضاً على سؤال حول إمكانية أن يعمل أحد تلاميذه الأطباء في المستشفى العسكرى الفرنسى رغم خطورة انتهاك قدسية السبت بأنه إذا تضمنت شروط الوظيفة صراحة العمل فى السبت، فعلى تلميذه الرفض وإذا لم تتطلب ذلك فيمكنه القيام بالعمل واستخدام المهارة العظيمة لليهود الذين يخافون الله. تمكنه على سبيل المثال، أن يعيد يوم السبت الوضعة التى أعطاها يوم الجمعة، ومقالة الحاخام كاهانا الصريحة تتضمن العديد من الأمثلة المذكورة فى بيدلوغرافيا كتاب لكبير حاخامات بريطانيا فى الوقت الحاضر، الحاخام عمانويل كاكوبفيتش «الأخلاق الطبية اليهودية» بلوك، نيويورك ١٩٦٢.

(٢) هوخمان شلومو (تعليق على شولحان عاروخ، أوراه حاييم، ٣٣ - ٢.

الحاخام الأعظم فى هذا الوقت لإسرائيل باعتبارها أحدالقوانين الأساسية للهالاكاه[28].

وكانت المسألة الأساسية التى طرحها حاتام سوفير، تخص الوضع فى تركيا، حيث صدر مرسوماً خلال أحد الحروب ينص على أنه يجب أن يكون فى كل قرية أو ناحية، قابلات مستعدات للعمل لدى أى امرأة فى حالة وضع، وبعض القابلات كن يهوديات، فهل يجب أن يقبلن القيام بمساعدة النساء غير اليهوديات فى أيام الأسبوع وفى السبت؟

استنتج حاتام سوفير فى «فتواه»[2] أولاً بعد تحر دقيق، أن الأغيار المعنيين - هم من المسيحيين والمسلمين العثمانيين - وهم ليسوا فقط وثنيين الذين بلا شك يعبدون أرباباً آخرين، ولهذا يجب ألا يرفعوا من النهر وألا يدفعوا إليه، ولكنهم أيضاً يشبهون العماليق، ولهذا فإن حكم التلمود أنه محرم مضاعفة بذرة العماليق، ينطبق عليهم، ولهذا، كقاعدة أساسية، لا يجب أن يعاونوا حتى فى أيام الأسبوع، وبالرغم من هذا فإنه «مرخص» معالجة غير اليهوديات، ومساعدتهن على الولادة، إذا كان لهن قابلات وأطباء خاصين بهن، ويمكن استدعاؤهم بدلاً من اليهود، لأنه إذا الأطباء والقابلات اليهود رفضوا الاستجابة لغير اليهود، فإن النتيجة الوحيدة سوف تكون فقدان دخل سيدخل في جيوب الآخرين، الذى هو بالطبع أمر غير مستحب، وينطبق هذا الأمر بالتساوى على السبت وبقية أيام الأسبوع، رغم هذا، فقد يمثل الخوف من انتهاك قدسية السبت ذريعة، لخداع المرأة الوثنية وإخبارها أن مساعدتها تؤدى إلى انتهاك قدسية السبت.

وبهذا الصدد ومع الحالات التى لا تؤدى فعلياً إلى انتهاك السبت، فإن حاتام سوفير - مثل مراجع أخرى - يضع فرقاً واضحاً بين نوعين من الأعمال المحرمة فى السبت، أولاً هناك عمل محرم من خلال التوراة، والنص التوراتى (كما شرح فى التلمود) ومثل هذا العمل يمكن فقط القيام به في حالات

(١) الحاخام انترمان، هارتس ٤ أبريل ١٩٦٦، ويعطى تفسير وصد لذلك بعد أن تعرض لضغط كبير، فى أوقاتنا هذه رفض تقديم مساعدة طبية لغير اليهودى لا تسبب عداوة أو تعرض حياة اليهودى لخطر.

(٢) حاخام سوفير، «فتوى» شولحان عاروخ» يوريه دعاه، ١٣١.

استثنائية، إذا كان عدم القيام به سوف يتسبب فى خطر هائل من العداوة ضد اليهود ، فتوى أخرى لحاتام سوفير(٣٠) حول مسألة ما إذا كان مرخصاً للطبيب اليهودى السفر بعربة فى السبت من أجل علاج غير يهودى، بعد الإشارة إلى أنه تحت ظروف خاصة يكون السفر بعربة يجرها حصان فى السبت، فقط انتهاك للتحريم الذى وضعه الحكماء، أكثر منه التحريم الذى ورد فى التوراة، وينصب إلى الاستشهاد ببيان ابن ميمون أن النساء غير اليهوديات فى حالات الوضع لا يجب أن تتم مساعدتهن فى السبت، حتي إذا لم يكن هناك انتهاك متضمن لقدسية السبت ويشرح أن نفس القاعدة تنطبق على جميع الأعمال الطبية وليس فقط القبالة.

ولكن بعد ذلك يعلن عن خشية من أن هذا إذا طبق قد يحدث عدائية غير مرغوب فيها، لأن (غير اليهود قد لا يقبلون بعذر انتهاك السبت) وسوف يقولون إن دماء الوثنى لا قيمة لها فى أعيننا، أيضاً، وربما كان هذا أكثر أهمية، فإن الأطباء غير اليهود قد يثأرون من مرضاهم اليهود، ولهذا يجب إيجاد أعذار أفضل، ينصح الطبيب اليهوى الذى يستدعى لعلاج مريض غير يهودى خارج المدينة فى السبت أن يتحجج بأنه مطالب بالبقاء فى المدينة من أجل رعاية مرضاه الآخرين، لأنه يمكن استخدام هذا فى القول، لا يمكننى التحرك لأن هناك خطراً على هذا المريض أو ذاك، الذى يحتاج إلى الطبيب أولاً، وربما لن أستطيع التخلى عن واجبى تجاهه» بمثل هذا العذر لا يوجد هناك خوف من خطر، لأنها ذريعة معقولة، تمنح عادة من قبل الأطباء الذين يصلون متأخرين بسبب مريض آخر كان يحتاج إليهم أولاً «فقط إذا كان متعذراً تقديم أى حجة» يجاز للطبيب أن يسافر بالعربة فى السبت لعلاج غير اليهودى.

النقاش بأجمعه يركز على قضية أساسية هى الأعذار التى يجب أن تقدم، وليس العلاج الفعلى أو صالح المريض، ويؤخذ كأمر مسلم به، أنه لا بأس من خداع غير اليهو بدلاً من علاجهم، طالما كان ممكناً تجنب عدواتهم(٣٠) بالطبع فى العصور الحالية، فإن معظم الأطباء اليهود غير متدينين، ولا يعرفون حتى بهذه القواعد، علاوة عى أنهم بشكل واضح يعطون الأولوية، وهذا يحسب لهم

(١) مصدر سبق ذكره «شولحان عاروخ» هوشين شيات ١٩٤.
(٢) R.B. Knobelovitz "The Jewish Reveiw ٨ يونيه ١٩٦٦.

ليمين أبقراط(*) بدلاً من الولاء لوصايا حاخاماتهم المتعصبين(١) بالرغم من ذلك، فإن إرشادات الحاخامات لا تفشل فى إحداث بعض التأثير على بعض الأطباء، وهناك بالتأكيد العديد من الذين لا يتبعون فعلياً هذه الإرشادات ويختارون عدم الاحتجاج عليها علانية.

لا يمكن النظر إلى هذه القضية كشىء قديم مهجور، إن أحدث مواقف الهالاكاه بهذا الصدد قد احتواها كتاب حديث موجز صادر عن سلطة مختصة وموثق، نشر بالإنجليزية تحت عنوان «قانون الطب اليهودى»(٢) هذا الكتاب، الذى قدمته دار نشرإسرائيلية محترمة Mossad Harav Koop، يعتمد على «فتوى» الحاخام اليعازر يهودا والدنيبرغ كبير قضاة محكمة الناحية القضائية فى القدس، وتستحق عدة نصوص من هذا الكتاب ذكر خاصاً، أولاً «محرم انتهاك السبت من أجل القرائيين»(٣) ومذكور هذا بشكل فظ، واضح ودون أى سبب، من المفترض أن عدائية هذه الطائفة الصغيرة لا تشكل أى أهمية، لذا فإنه يجب أن يتركوا للموت بدلاً من العلاج فى السبت.

بالنسبة لغير اليهود: طبقاً للمبادىء المنصوص عليها في التلمود، ومفاهيم الشريعة اليهودية، يحظر انتهاك السبت ـ الشريعة التوراتية أو الحاخامية ـ لإنقاذ حياة مريض من الأغيار فى حالة بالغة الخطورة، ويحظر توليد المرأة غير اليهودية يوم السبت(٤).

(*) يمين أبقراط، نسبة إلى أبقراط (٤٦٠ ـ ٣٧٧ ت .م الطبيب اليونانى الذى يعد أب الطب، وهو يمين يقسم الأطباء فى حفلات تخرجهم (المترجمة).

(١) الحاخام يسرائيل مثير كاغان المعروف باسم «حافيتز حاييم» يحتج فى «مشناه بروراه» المكتوب فى بولندا ١٩٠٧: «وهل تعلم أن معظم الأطباء لا يراغون هذا القانون لأنهم يعملون فى السبت ويسافرون عدة أميال لعلاج وثنى ويطحنون الأدوية بأيديهم، تعلي على شولحان عاروخ، أوراه حاييم ٣٣٠.

(٢) Avraham Steinberg MDCed, Jewish Medical Law, Compiled From Tzitz Eliezer (Responsq of R Eliezer Yehuda Waldenberg) Tnanslated by David B.Simons MD.Gefen and Mossad Harav Kook, Jerusalemand California, 1980.

(٣) مصدر سبق ذكره، ص ٣.

(٤) نفس المصدر السابق ص ٤١.

ولكن هناك «تخريجاً» ومع ذلك، فإن اليوم مرخص بإنتهاك قدسية السبت والقيام بأعمال تحظرها الشريعة الحاخامية، من أجل أحد الأغبار، لأن ذلك يمنع المشاعر السلبية من التصاعد بين اليهود وغير اليهود(١).

ولكن هذا «التخريج» لا تيتم الاستفاضة فيه، لأن العلاج الطبي يتضمن عادة أعمالاً محرمة في السبت من قبل التوراة نفسها، التي لم يغطها «التخريج» وهناك، كما قيل لنا «بعض» النصوص في الهالاكاه التي وسعت «التخريج» ليشمل أعمالاً كهذه، ولكن هذه فقط وسيلة أخرى للقول بأن غالبية المراجع الهالاكية، والتي يعتد بها، أخذت وجهة نظر معاكسة - ورغم ذلك، فإن الكتاب يقدم حلاً مثيراً حقاً لهذا الوضع الصعب.

هذا الحل يرتكز علي نقطة جيدة في الشريعة التلمودية.فالتحريم الذي فرضه التوراة على القيام بعمل في السبت من المفترض أنه يطبق فقط عندما تكون النية الأصلية في تأديته هي النتاج الفعلي للعمل (مثلاً، طحن القمح من المفترض أنه محرم من قبل التوراة فقط إذا كانت النية الفعلية هي الحصول على دقيق ولكن من الناحية الأخرى إذا كان القيام بنفس العمل تصادفي تماماً من أجل غرض آخر melakah seh'eynah tzrikhah legafah وقتها تغير حالة الفعل - إنه مازال، بالتأكيد، محرما، ولكن فقط من قبل الحكماء وليس من قبل التوراة نفسها، لهذا: من أجل تفادي أي انتهاك للشريعة، فإن هناك وسيلة مقبول شرعاً من آداء العلاج للمريض غير اليهودي، حتى عندما يكون في ذلك انتهاك للشريعة التوراتية تقترح أنه في الوقت الذي يقدم فيه الطبيب العلاج المطلوب، فإن نواياه لا يجب أن تكون في الأصل علاج المريض، ولكن حماية نفسه والشعب اليهودي من الاتهام بالتفرقة الدينية مما قد يعرضه للخطر بصفة خاصة، أو الشعب اليهوى بصفة عامة، مع هذه النية، فإن أي عمل من جانب الطبيب يصبح عملاً نتائجه الفعلية ليست هي الغرض الأصلي من القيام به الذي هو محرم في السبت فقط من خلال الشريعة الحاخامية(٢) البديل الرباني ليمين أبقراط، قدم أيضاً في كتاب عبري حديث صادر عن سلطة مختصة

(١) نفس المصدر السابق ص ٤١ عبارة «المبين اليهودي وغير اليهودي» عبارة ملطفة حيث أن التخريج يقصد منع عداوة الأغيار تجاه اليهود وليس العكس.
(٢) نفس المصدر السابق ص ٤١ و ٤٢ التشديد من جانبي.

موثقة[1] وعلى الرغم من أن هذه الحقائق قد ذكرت على الأقل مرتين فى الصحافة الإسرائيلية، فإن الجمعية الطبية الإسرائيلية، ظلت صامتة.

وكما عالجنا ببعض التفصيل القضية شديدة الأهمية من موقف الهالاكاه تجاه حياة غير اليهودى، فسوف نتجه بمزيد من الاختصار نحو قواعد هالاكية أخرى تحمل تمييزاً ضد الأغيار، وبما أن عدد هذه القواعد ضخم جداً، فإننا سوف نذكر فقط أكثرها أهمية.

الخطايا التى تخص العلاقات الزوجية

العلاقة بين امرأة يهودية متزوجة وأى رجل آخر غير زوجها هى خطيئة كبرى لكل من الطرفين وهى واحدة من أكثر الخطايا شناعة، إن الوضع الشرعى للنساء غير اليهوديات مختلف تماماً، فالهالاكاه تفرض أن الأغيار جميعاً على درجة عالية من الانحلال، وتنطبق عليهم الآية «الذى لحمه مثل لحم الحمير ونطفته كنطفة الخيل[2] ولا فرق سواء كانت المرأة غير اليهودية متزوجة أم لا، حيث يعتقد اليهود أن مفهوم الزواج نفسه لا ينطبق على الأغيار (لا يوجد زواج للوثنيين) لهذا، فإن مفهوم الخيانة الزوجية لا ينطبق أيضاً على العلاقة بين الرجل اليهودى والمرأة غير اليهودية بل إن التلمود[3] يساوى بين هذا الفعل والانغماس فى الملذات (لهذا السبب ينظر إلى الأغيار عموماً على أنهم بلا نسب معروف) وطبقاً إلى الموسوعة التلمودية[4] هذا الذى لديه علاقة غير شرعية بزوجة غير يهودى لاتطبق عليه عقوبة الموت لأنه مكتوب، زوجة أخيك، وليس زوجة الغريب[5] وحتى وصية أن الرجل يجب أن يخلص لزوجته[6] موجهة لليهود ولا تطبق على الأغيار، حيث إنه لا زواج لوثني، وعلى الرغم من أن المرأة المتزوجة غير اليهودية محرمة على اليهودى، فإنه فى جميع الأحوال يعفى اليهودى من العقاب، ويقع بشكل أساسى على المرأة غير اليهودية حيث يجب أن تشنق.

(١) معهد الدكتور فالك شليزنجر لأبحاث الهالاكاة الطبية فى مستشفى شعارية تساريك، «سيفرايسيا» (كتاب الطبيب) روبن ماس القدس ١٩٧٩.

(٢) حزقيل ٢٠: ٢٣

(٣) Tnactate Bera Khot- P 78 a.

(٤) دائرة المعارف التلمودية (المرأة المتزوجة)

(٥) سفر الخروج ١٧: ٢٠

(٦) سفر التكوين ٢ : ٢٤

طبقاً إلى الهالاكاه، فإنه لا يجب أن يسمح اليهود (إن أمكنهم ذلك) لغير اليهود بتولى أى مركز سلطة، مهما كان بسيطاً على اليهود، (أبرز الأمثلة المعتادة هى .. قائد لما يزيد على عشرة جنود فى الجيش اليهودى، ومراقب قناة رى» وهذا يحمل دلالات غاية فى الأهمية، حيث إأن نفس القاعدة تنطبق بصفة خاصة، على الذين تحولوا إلى الديانة اليهودية أيضاً، وأبنانهم (من خلال نسب الأم)، لمدة عشرة أجيال أو حتى يعرف النسب.

الأغيار يفترض أنهم كاذبون بالفطرة، لذا فإنهم غير مؤهلين للشهادة فى المحكمة الحاخامية، وهم فى هذا لهم نفس وضع المرأة اليهودية، والعبيد والقاصرين، وهذا نظرياً لكن عملياً وضعهم أسوأ فالمرأة اليهودية اليوم يعترف بها كشاهدة فى بعض الحالات، علي واقعة «إذا صدقتها» المحكمة الحاخامية، أما الأغيار، فلا يشهدون أبداً.

لذا، تكون مشكلة عندما تستلزم الحاجة وجود شاهد على واقعة من غير اليهود فى محكمة حاخامية، وأحد الأمثلة المهمة على ذلك فى القضايا التى تخص الأرامل: حيث إنه طبقاً للشريعة اليهودية فإن المرأة لا تنال صفة الأرملة - وتصبح حرة فى الزواج مرة أخرى - إلا إذا ثبت موت زوجها من خلال شهود عيان على وفاته، لذلك تقبل المحكمة الحاخامية شهادة يهودى أمامها بأنه سمع من شخص غير يهودى (شاهد عيان) بالوفاة، على شرط أن تقتنع بأن غير اليهودى ذكر الأمر بطريقة غير مباشرة، وليس رداً على سؤال مباشر لأن غير اليهودى إذا أجاب إجابة مباشرة على سؤال مباشر ليهودى، فمن المفترض أن إجابته كاذبة[١].

وإذا اقتضت الضرورة، فعلى اليهودى التعهد)يفضل أن يكون حاخاماً(بإجراء حوار عرضى بلا كلفة مع شاهد العيان غير اليهودى، دون طرح أسئلة مباشرة، ويستخلص منه إجابة عرضية على الواقعة الخاصة بالقضية.

---

(١) هناك حالات استثنائية لهذا التعميم منها غير اليهود الذين يتولون وظائف قانونية خاصة بالصفقات التجارية وكتاب العدل، ووكلاء ملاك الأراضى، ولا لكن لا يوجد استثناء مشابه يخص الأغيار العادين، حتى لو كانت علاقاتهم ودية مع اليهود.

١- الهدايا :التلمود يحرم بشكل فظ واضح على اليهود ، منح هدايا لغير اليهود ، ومع ذلك فإن التشريعات الحاخامية الكلاسيكية خففت هذه القاعدة. لأنه من المعتاد وسط رجال الأعمال تبادل الهدايا فى المعاملات التجارية، ولهذا فقد أكدت أن اليهودى يمكن أن يمنح هدية لغير اليهودى إذا كان يعرفه معرفة شخصية، كنوع من الاستثمار، لأن هناك عائداً متوقعاً وليست هدية حقيقية.

أما تقديم الهدايا "للأغيار الغرباء "فتظل ممنوعة، ونفس القاعدة تنطبق على تقديم الصدقات، فمنح الصدقات إلى اليهود المتسولين واجب دينى مهم، أما الصدقات للمتسولين الأغيار فهى مجازة فقط من أجل السلام، رغم أن هناك الكثير من التحذيرات الحاخامية ضد السماح للأغيار الفقراء بأن "يعتادوا "الحصول على صدقات من اليهود ، حيث يجب منع هذه الصدقات دون إيقاظ روح عدائية لا داعى لها.

٢.الفوائد

أصبح التمييز ضد غير اليهود فى هذا الأمر نظرياً إلى حد كبير، من خلال "التخريجات) "التى شرحت فى الفصل الثالث (التى هى فى الواقع تسمح بأخذ فائدة حتى من المقترض اليهوى ومع ذلك فإن تقديم قرض ليهودى بلا فائدة يعد من أعمال الإحسان، ولكن بالنسبة للمقترض غير اليهودى ,فإن هناك الزاماً بأخذ فوائد منه، وفى الواقع، فإن العديد من المراجع الحاخامية، بما فيها ابن ميمون، تعد أخذ فائدة كبيرة قدر الإمكان على قرض منح لغير اليهودى عملاً إلزامياً من الناحية الدينية.

٣.الأشياء المفقودة

إذا وجد يهودى شيئاً مفترضاً أن صاحبه يهودى، فإنه ملزم تماماً ببذل جهد حقيقى فى إعادة ما وجده إليه، والإعلان عما وجده أمام الجميع، وفى المقابل، فإن التلمود وجميع المراجع الحاخامية المبكرة، تجيز لليهودى الذى وجد شيئاً مفقوداً، ليس فقط الاستيلاء عليه، ولكنها تمنعه فعلياً من إعادته[1] وفى

(١) بعض الحاخامات فى فترة مبكرة، فى القرن الميلادى الأول أطلقوا على هذا التشريع تسمية «بربرى» وفعلياً أعاد والأشياء المفقودة إلى أصحابها من الأغيار، ولكن هذا التشريع لم يبق سارى المفعول.

أوقات لاحقة، فرضت قوانين تجعل إعادة الأشياء المفقودة أمراً إلزامياً فى جميع البلدان، ولذلك أمرت السلطات الحاخامية اليهود بأن يقوموا بما تأمرهم به هذه القوانين، كنوع من الإذعان المدنى للدولة، ولكن ليس كواجب دينى، دون بذل جهد حقيقى فى اكتشاف المالك إذا لم يكن محتمل أن يكون يهودى.

٤.الغش فى التجارة

إنها خطيئة كبرى، ممارسة أى نوع من أشكال الغش أو الخداع مهما كان ضد اليهودى، ولكنه محرم فقط ممارسة هذا الغش بصورة مباشرة ضد غير اليهودى، إلا إذا كان من المحتمل أن يتسبب فى إثارة العداء ضد اليهود، أو إهانة الديانة اليهودية، والمثال النموذجى على هذا هو الوقوع فى خطأ عد النقود خلال عمليات الشراء، فإذا أخطأ اليهودى دون قصد منه فى ذلك، فإنه واجب دينى على اليهودى الآخر إرشاده، أما إذا شوهد غير اليهودى وقد ارتكب نفس الخطأ، فلا ينبغى على اليهودى تنبيهه، ولكن يقول له "أنا اعتمد على حسابك ..وذلك لتفادى عداوته إذا اكتشف خطأه فى وقت لاحق.

٥.الاحتيال

إنه محرم الاحتيال على يهودى خلال عمليات البيع أو الشراء بسعر غير مناسب، ومع ذلك فإن الاحتيال لا ينطبق على غير اليهودى، لأنه مكتوب ولا يسلب الإنسان أخيه[(١)] وإذا احتال غير اليهودى على يهودى فيجب أن يجبر على إعادة ما أخذه منه، مع عدم معاقبته بصورة أشد من عقاب اليهودى فى نفس القضية[(٢)].

٦.السرقة والسطو

السرقة (دون عنف) محرمة تماماً كما يعبر عن ذلك "شولحان عاروخ" :"حتى من غير اليهودى "أما السطو مع استخدام العنف فهو محظور بشدة إذا كان الضحية يهودياً، ومع ذلك، فإن السطو اليهودى على غير اليهودى ليس محرماً

(١) سفر اللاويين ١٤-٢٥ وهذه ترجمة حرفية للجملة العبرية طبعة الملك جيمس الإنجليزية، لا يقمع أحدكم الآخر، لكن يقمع غير واضحة، فى حين أن أحدكم الآخر هى ترجمة واضحة وصحيحة للمصطلح التولاتى كل إنسان شقيقه، وكما وضحنا من قبل فإن تفسير الهالاكاة لكل هذه المصطلحات جاء على أنه يخص اليهود فقط.

(٢) «شولحان عاروخ» هوشين مشبات ٢٢٧.

تماماً، بل يحظر فقط فى ظروف خاصة مثل" :عندما لا يكون الأغيار تحت سلطتنا "ولكنه مباح "عندما يكون الأغيار تحت سلطتنا"، وتختلف المراجع الحاخامية فيما بينها حول التفاصيل المحددة لهذه الظروف التى يمكن لليهودى أن يسطو على غير اليهودى، ولكن الجدال بأكمله اهتم فقط بالسلطة بالنسبة لليهود، وغير اليهود، أكثر من اهتمامه بالاعتبارات الكونية من العدالة والإنسانية وربما يفسر هذا، لماذا لم يحتج سوى قلة من الحاخامات ضد السطو على أملاك حوالى نصف الطريق بين سوريا ولبنان، على خط حمص وقد نالت هذه الرؤية تأييد بن جوريون، ومع ذلك فإن حتى هؤلاء الذين على الرغم من استثنائهم لأجزاء من سوريا ـ لبنان، قد وافقوا على بعض التشريعات التمييزية وإن كانت أقل وطأة من تلك التى تطبق فى أرض إسرائيل الداخلية، تطبق على غير اليهود فى هذه الأجزاء، لأن هذه المنطقة كانت تضم مملكة داود، وفى كافة تفاسير التلمود، فإن أرض إسرائيل تضم قبرص أيضاً.

والأن سوف أضع قائمة بالتشريعات الخاصة بغير اليهود فى أرض إسرائيل، وارتباطها بالممارسات الصهيونية الفعلية فى الوقت الحاضر الواضحة للعيان:

الهالاكاه تحرم على اليهود بيع العقارات غير المنقولة ـ الحقول والبيوت ـ فى أرض إسرائيل إلى غير اليهود، وتسمح ببيع البيوت فى سوريا وليس الحقول/تأجير بيت فى أرض إسرائيل لغير اليهودى مباح ولكن تحت شرطين، أولاً ألا يستخدم هذا المنزل فى السكن ولكن لأغراض أخرى مثل التخزين، ثانياً ألا تؤجر ثلاثة بيوت متجاورة أو أكثر من البيت المعنى.

هذه الشرائع وأخرى غيرها، تفسر كالتالى:

حتى لا يسمح لهم بالإقامة فى الأرض، لأنهم الفلسطينيون فى إسرائيل، فلقد تم السطو اعتماداً على مدى سلطة اليهود الساحقة.

غير اليهود فى أرض إسرائيل

بالإضافة إلى الشرائع العامة المعادية لغير اليهود، فإن فى الهالاكاه أيضاً تشريعات خاصة ضد غير اليهود الذين يعيشون فى أرض إسرائيل (Eretz Yisrael) وفى بعض الأحيان، ضد الذين يعبرونها فحسب، هذه التشريعات قد صممت من أجل الترويج للسيادة اليهودية فى هذه الدولة.

إن التعريف الجغرافى الدقيق لمصطلح "أرض إسرائيل "قد تمت مناقشته

كثيراً في التلمود وفي الأدب التلمودي، وقد استمر هذا الجدل حتى الأزمنة الحديثة حول الاتجاهات الصهيونية المختلفة، وحسب الرؤية الاشتراكية المتطرفة(*) فإن أرض إسرائيل (بالإضافة إلى فلسطين نفسها) ليست فقط سيناء كلها والأردن وسوريا ولبنان، ولكن أيضاً أجزاء كبيرة من تركيا(١) الدعاة المعتدلين الأكثر انتشاراً يضعون الحدود الشمالية فقط إذا لم يقتنوا الأرض، فإن إقامتهم هناك سوف تكون مؤقتة(٢) ولكن حتى الموجود المؤقت لغير اليهود مسموح به فقط في حالة "عندما يكون اليهود في المنفى أو عندما يكون الأغيار أكثر قوة من اليهود "ولكن عندما يكون اليهود أكثر قوة من الأغيار فإنه محرم علينا أن نترك الوثني وسطنا، حتى ولو كان تاجر متجول، وإقامة مؤقتة، فلا يسمح له بالمرور عبر أرضنا ما لم يقبل بالقوانين التوراتية السبع(٣)، لأنها كتبت: «لن يسكنوا أرضك(٤)»، وهذا يعني ولا حتى في إقامة مؤقتة، وإذا قبل القوانين السبعة، يصبح مقيأم أجنبياً (ger toshav) ولكنه محرم أن يحصل على الوضع القانوني للمقيم الأجنبي إلا في الأوقات التي يقام فيها اليوبيل (أي عندما يقام الهيكل وتقدم الأضحية) وخلال الأزمنة التي لا يقام فيها اليوبيل يحظر قبول أي شخص لا يعتنق اليهودية اعتناقاً كاملاً (ger tzedeq).

ويتضح مما سبق، كما تقول قيادات ومؤيدو غوش إيمونيم، فإن الجدال الكبير، حول كيفية معاملة الفلسطينيين، وفقاً إلى الهالاكاه، هو ببساطة جدل حول مدى قوة اليهود :فإذا كانت لديهم قوة كافية، إذن فإنه من الواجب الديني طرد الفلسطينيين، وكثيراً ما يجرى الاستشهاد بهذه القوانين من جانب الحاخامات الإسرائيليين ومؤيديهم المتطرفين، فهناك مثلاً التشريع الذي يحرم تأجير ثلاثة منازل متجاورة لغير اليهود، الذي استشهد به بقدسية وإجلال في المؤتمر الحاخامي الذي عقد عام ١٩٧٩، لمناقشة اتفاقيات كامب ديفيد، فكما

(*) الاشتراكي ينادي بضرورة الاستيلاء العاجل على السلطة وعلى الأرض بوسائل نورية (المترجمة)

(١) يدافع عن هذا الاتجاه هـ باردروما وهذا هو حد الأرض القدس ١٩٥٨ وفي السنوات الأخيرة كثر استخدام الجيش الإسرائيلي لهذا الكتاب في تعليم جنوده.

(٢) ابن ميمون مصدر سبق ذكره ٣.٤ و ١٠

(٣) راجع الملاحظة ٢

(٤) سفر الخروج ٢٣ ـ ٣٣

أن المؤتمر، فوفقاً للهالاكاه، فإنه حتى «الحكم الذاتى» الذى كان بيجن مستعداً لتقديمه للفلسطينيين، كان شديد التسامح، ومثل هذه الآراء التى تحدد فى الواقع بشكل واضح موقف الهالاكاه نادراً ما يتم مناقشتها، من قبل اليسار الصهيونى، وبالإضافة إلى التشريعات، مثل التى ذكرت سابقاً، والموجهة ضد غير اليهود كافة فى أرض إسرائيل، فإن هناك خطراً أكبر ينبثق عن هذه التشريعات، خاصة تلك الموجهة ضد الكنعانيين القدماء والأمم الأخرى التى عاشت فى فلسطين قبل الاستيلاء عليها من يوشع، وكذلك ضد العماليق، حيث إنها تنص على وجوب إبادة جميع هذه الأمم تماماً، والتلمود والأدب التلمودى يكرر على نحو مضجر، الحض التوراتى على الإبادة الجماعية باستخدام المزيد من العنف.

والحاخامات المؤثرون، والذين لهم مؤيدين كثيرين من ضباط الجيش الإسرائيلى، يعرفون الفلسطينيين وحتى العرب جميعاً، بأنهم هم أنفسهم هذه الأمم القديمة، لذا فإن الأوامر التلمودية مثل «أنت لن تترك حياً أى شئ يتنفس[١]» تتخذ معنى فعلياً فى الأحداث الجارية وفى الواقع، لا يندر، أن تمنح "محاضرات تربوية "لجنود الاحتياط عندما يستدعوا للقيام بالخدمة العسكرية فى قطاع غزة، حيث يقال لهم فيها إن فلسطينيى غزة "مثل العماليق."

ويستشهد حاخام إسرائيلى معروف، مراراً بالآيات التوراتية التى تتشدد فيها يخص الإبادة الجماعية للميديين[٢] لتبرير مجزرة قبية[٣]، وقد حظيت تصريحاته بقبول واسع فى الجيش الإسرائيلى، وهناك العديد من الأمثلة الشبيهة من التصريحات الحاخامية المتعطشة لدماء الفلسطينيين، والتى تبنى على أساس هذه التشريعات.

(١) سفر التثنية ١٦ـ٢٠ راجع أيضاً هذه الآيات المستشهد بها فى الملاحظة (١٠)

(٢) سفر ايعدد: ١٣ـ٢٠ ـ ٣١ وخاصة الآية ١٧.

(٣) R.shaul Yisha eli, Taqrit Qibbiya Leor Hahalakhah 1953 (حادثة قبية على ضوء الهالاكاه).

تحت هذا العنوان أود أن أناقش أمثلة من التشريعات الخاصة فى الهالاكاه، التي أكثر آثارها أهمية، وليس فقط التمييز المحدد ضد الأغيار، ولكنها أيضاً تغرس فى الأذهان، مواقف من الازدراء والكراهية تجاه الأغيار، ولن أقتصر فى الاستشهاد هنا بالمصادر الهالاكية المرجعية كما فعلت حتى الآن ولكن سوف أستشهد ببعض الأعمال التى وإن كانت أقل أهمية، إلا أنها تستخدم على نطاق واسع فى التعليم الدينى.

ودعونا نبدأ بنص بعض الصلوات المعتادة، ففى واحداً من الأجزاء الأولى فى صلاة الصباح اليومية يجب على كل يهودى ورع أن يحمد الرب لأنه لم يخلقه غير يهودى[1] أما فى الجزء الختامى للصلاة اليومية الذى يستخدم أيضاً فى صلوات رأس السنة ويوم الغفران، فيبدأ بهذه العبارة "يجب أن نحمد إله المبيع ...لأنه لم يخلقنا مثل (جميع) أمم الأرض ..لأنهم يركعون للباطل والعدم ويصلون لإله لا يفيد[2] والفقرة الأخيرة قد حذفت من كتب الصلاة فى أوروبا الشرقية، ولكنها كانت تعوض بالقول شفهياً، والآن أعيدت إضافتها فى العديد من كتب الصلاة الإسرائيلية المطبوعة.

وفى القسم الأكثر أهمية من الصلاة فى نهاية الأسبوع التبريكات الثمانى عشرة تلك اللعنة الخاصة، الموجهة بصفة أساسية ضد المسيحيين واليهود الذين تحولوا إلى المسيحية والطوائف اليهودية الأذى: «فلينعم المرتدون باليأس، وليمحق جميع المسيحيين فى الحال» وبعد التعرض لكثير من الضغط عدلت مرة أخرى لتصبح: «رب لا تجعل للوشاة رجاء ولتمحق المهرطقين فى الحال[3] ».

وبعد إنشاء دولة إسرائيل، فقد أعيدت الصياغة الثانية إلى التداول، حيث أعادت الكثير من كتب الصلوات الجديدة المطبوعة فى إسرائيل الصيغة الثانية،

(١) يعقب هذا الحمد « لأنك لم تجعلنى عبداً «والذكر يقول: لأنك لم تخلقنى امرأة» وتقول الأنثى لأنك خلقتنى كما يرغب هو».

(٢) فى أوروبا الشرقية حتى وقت قريب كان من الشائع بين اليهود أن يبصقوا على الأرض كتعبير عن الإزدراء، ولكن ذلك لم يكن إلزامياً والآن يواظب عليه فقط الأكثر تديناً.

(٣) الكلمة العبرية هى Meshummadim وتعنى فى الاستخدام الحاخامى اليهود الذين أصبحوا «وثنيين» أى يعبدون الأوثان، أو المسيحيين، لكنها لاتعنى اليهود الذين تحولوا للإسلام.

التى يستخدمها العديد من المعلمين فى المدارس الدينية الإسرائيلية، وبعد عام ١٩٦٧ ، قامت عدة جماعات دينية متصلة "بغوش أيمونيم "بإعادة استخدام الصيغة الأولى "شفهياً فقط "وهم يصلون لربهم يومياً من أجل أن يفنى المسيحين تواً. وقد حدثت عملية التنقيح فى الفترة التى حذفت فيها الكنيسة الكاثولوكية «فى عهد البابا يوحنا الثالث والعشرين» من صلوات الجمعة الحزينة، صلاة يسأل فيها الرب أن يمنح رحمته لليهود والمهرطقين ....إلخ، وقد نظر معظم الزعماء اليهود إلى هذه الصلاة باعتبارها عدائية ومعادية للسامية.

وبعيداً عن الصلوات اليومية الثابتة، فإنه يجب على اليهودى الورع أن يتلفظ بتبريكات قصيرة خاصة فى مناسبات عدة، طيبة وسيئة على سبيل المثال، عند: ارتداء قطعة جديدة من الملابس، أو تناول فاكهة موسمية لأول مرة، أو رؤية ضوء ساطع، أو سماع أنباء سيئة ....إلخ بعض من هذه الصلوات الاستثنائية الخاصة بالمناسبات تغرس فى الذهن الكراهية والازدراء لجميع الأغيار، وقد ذكرنا فى الفصل الثانى القاعدة، التى طبقاً لها يجب على اليهودى الورع أن ينطق باللعنة عند مروره بالقرب من مقبرة غير يهودية، فى حين أن عليه أن يمجد الرب عند مروره بالقرب من مقبرة يهودية، نفس القاعدة تطبق على الأحياء، ولهذا فإنه عند رؤية مجتمع يهودى ضخم، على اليهودى الورع أن يمجد الرب، فى حين أن عليه عند رؤية تجمهر غير يهودى أن ينطق باللعنة وحتى البيوت لا تستثنى من هذه اللعنة :التلمود يؤكد[١] أن اليهودى الذى يمر بالقرب من مسكن يقيم فيه غير يهودى عليه أن يسأل الرب أن يدمره، وإذا كان المبنى مدمراً بالفعل أن يحمد الرب على انتقامه وبالطبع القواعد معكوسة بالنسبة للبيوت اليهودية هذه القاعدة كان من السهل الحفاظ عليها بالنسبة لليهود الفلاحين الذين عاشوا فى قراهم، أو بالنسبة للمجتمعات اليهودية المدنية الصغيرة، ولكنها أصبحت غير عملية أو قابلة للتطبيق فى عصر اليهودية الكلاسيكية، لذلك فإنها اقتصرت على الكنائس وأماكن العبادة الخاصة بالديانات الأخرى ماعدا الإسلام[٢] وبهذا الصدد فإنه قد بولغ فى استخدام هذه القاعدة من خلال الممارسات الشعبية فأصبح من المألوف أن يتم

(١) Tnactate Berakhat P 58 b.

(٢) طبقاً للعديد من المراجع الحاخامية مازالت القاعدة مطبقة حتى الآن من «أرض إسرائيل».

البصق)عادة ثلاث مرات (عند رؤية كنيسة أو صليب[1] ويمكن أحياناً التلفظ ببعض الآيات التوراتية المهينة للأغيار.[2]

هناك أيضاً قواعد متتالية، تحرم على اليهود استخدام أى تعبيرات تنم عن مدح للأغيار أو مآثرهم، باستثناء إذا كان هذا يحمل فى طياته تمجيداً أكبر لليهود ومآثرهم.

وهذه القاعدة مازالت تمارس من قبل اليهود الأورثوذكس، فعلى سبيل المثال، بعد عودة الكاتب عجنون من استوكهولم، إثر تسلمه لجائزة نوبل عن الأدب، أثنى فى مقابلة إذاعية له فى الإذاعة الإسرائيلية على الأكاديمية السويدية، ولكنه تدارك الموقف، وعجل بإضافة "لم أنس أنه محرم الثناء على الأغيار، ولكن هناك سبباً استثنائياً لهذا المدح وهو أنهم منحوا الجائزة ليهودياً.

يشمل التحريم أيضاً، الانضمام إلى أى احتفالات شعبية للأغيار، إلا إذا كان هذا يحمل إثارة العداوة تجاه اليهود، ففى هذه الحالة، فإن مشاركة بسيطة يمكن أن تجاز.

إضافة إلى القواعد التى ذكرتها حتى الآن، فإن هناك الكثير منها التى تؤدى آثارها إلى كبح روح المودة الإنسانية بين اليهود وغير اليهود.

وسوف أذكر مثالين :قاعدة «إراقة النبيذ» من أجل إعداد الطعام لغير اليهود فى المناسبات الدينية اليهودية، يجب على اليهودى الورع عدم الشرب من أى نبيذ يكون قد شارك فى إعداده غير يهودى بأي حال، كما أن النبيذ فى

(١) أدت هذه العادات إلى الكثير من الحوادث في تاريخ اليهود فى أوروبا اشهرها والتى مازالت آثارها واضحة حتى الآن، وقعت فى القرن الرابع عشر فى براغ، حيث أمر الملك شارل الخامس ملك بوهيميا، الذى كان الإمبراطور الرومانى المقدس أيضاً، بنصب صليب ضخم وسط جسر مجرى بناه ومازال قائماً حتى اليوم وقد قيل له وقتها، أن يهود براغ لديهم عادة البصق كلما مروا بالقرب من الصليب، ولأنه كان مشهور بحمايته لليهود، لم يعاقبهم على ذلك بل حكم على الطائفة اليهودية بدفع نفقات نقش كلمة Adanay التى تعنى «الرب» بالعبرية، على الصليب بحروف ذهبية وهذه الكلمة أحد أقدس سبع تسميات للرب ولا يسمح بإبداء أى نوع من عدم الاحترام أمامها، ولذلك توقف اليهود عن البص، أما الحوادث الأخرى المرتبطة بهذه العادة، فإنها أقل إثارة للتذر.

(٢) أكثرها استخداماً تحتوى على كلمات مشتقة من الجذر العبرى Shaqetz الذى يعنى يكره، يحتقر، كما فى سفر التثنية ٧ ـ ٢٦ فلتحتقرهم تماماً وتمقتهم ويبدو أن كلمة السب Shaetz المستخدمة فى الإشارة إلى الأغيار (أنظر الفصل الثانى) مستمدة من هذه العادة.

زجاجة مفتوحة، حتى لو كان معداً بالكامل من يهودى، يصبح محرماً إذا قام غير يهودى بلمس الزجاجة أو مرر يده عليها، والسبب الذى يقدمه الحاخامات، هو أن جميع الأغيار ليسوا فقط وثنيين ولكنهم يجب أن نفترض لديهم الخبث، بالإضافة إلى ذلك، قد يكرسون «بهمسة، أو إشارة أو مجرد التفكير، النبيذ الذى يشرع اليهودى بشربه لوثنهم المعبود كنوع من القربان "إراقة النبيذ" وينطبق هذا الأمر على جميع المسيحيين بصورة إلزامية، ولكنه مخفف إلى حد ما فيما يخص المسلمين، حيث لا يلزم سكب الزجاجة، ولكن يمكن بيعها أو تقديمها كهدية، وفى الحالتين يحرم على اليهودى شربها، وينطبق الأمر أيضاً على الملحدين غير اليهود كيف يتحقق اليهودى من أنهم لا يتظاهرون بذلك؟ لكنه لا ينطبق على الملحدين اليهود.

أيضاً، تنطبق المحرمات المفروضة على العمل فى السبت بدرجة أقل على بقية الأيام اليهودية المقدسة، ولذلك يسمح فى اليوم المقدس الذى لا يكون سبتاً، أداء أى عمل مطلوب لإعداد الطعام حتى يؤكل خلال الأيام المقدسة أو الأيام العادية، وتطلق الشريعة على هذا النوع من العمل تعبير طعام النفس (Okhel neresh)، ولكن "نفس "هنا تعنى اليهودى وتستثنى الكلاب والأغيار تماماً[٦٧] ورغم ذلك فإن هناك "تخريجاً"، من أجل غير اليهود أصحاب السلطة الذين يمكن أن تجلب عداوتهم مخاطر، يحلل طهو طعام فى الأيام المقدسة من أجل زائر ينتمى إلى هذه الطبقة ، مع توضيح عدم تشجيعه فعلياً على المجئ وتناول الطعام.

التأثير المهم لجميع هذه التشريعات، بعيداً تماماً عن تطبيقها الفعلى، فى الموقف الذى تخلقه من دراستها المتواصلة، التى كجزء من دراسة الهالاكاه، تعد من خلال اليهودية الكلاسكية واجباً دينياً مقدساً، وبذلك فإن اليهودى الأرثوذكسى يتعلم منذ طفولته المبكرة، كجزء من دراساته الدينية، أن الأغيار يقارنون بالكلاب، وأنه إثم الثناء عليهم، وهلم جرا.

وفيما يخص هذا الأمر، فى الواقع فإن الكتب الدينية للمبتدئين، تعطى المزيد من التفاسير التفصيلية باسلوب يصاغ بحيث يؤثر على عقول الشباب

(١) التلمود Tnactate Beytsah P21a ميشناه بروراه على شولحان عاروخ، أوران حاييم ٥٢١ وهناك أيضاً تغعليق Magen Avraham ويستثنى أيضاً القرايئين.

وغير المتعلمين، ومن بين أعداد ضخمة من هذه الكتب، اخترت واحداً هو حالياً ذائع جداً فى إسرائيل وله عدة طبعات شعبية رخيصة، تدعمها الحكومة الإسرائيلية بقوة، إنه كتاب "التعليم الدينى "الذى وضعه حاخام مجهول فى بداية القرن الرابع عشر فى أسبانيا ويشرح ٦١٣ من الواجبات الدينية اليهودية"Mitzvot" بالترتيب المفترض أنه جاء فى أسفار موسى الخمسة طبقاً إلى التفسير التلمودى (الذى ناقشناه فى الفصل الثالث) ويعود الفضل فى استمرارية تأثيرها وذيوعها إلى الأسلوب العبرى الواضح والبسيط الذى كتبت به.

إن الهدف الرئيسى من هذا الكتاب هو التركيز على المعنى "الصحيح" للكتاب المقدس مع التركيز على بعض المصطلحات مثل: الأخ ...الرفيق ..أو «رجل» التى أشرنا إليها فى الفصل الثالث وبهذا فإن المدخل رقم ٢١٩ يوضح الالتزام الدينى المترتب على آية "أحب لأخيك كما تحب لنفسك "وقد جاء هذا المدخل تحت عنوان "صحبة اليهود بقوة يعنى أن عليك أن تعنى باليهودى فى ماله كما تعنى بنفسك ومالك، لأنه كتب "عليك أن تحب لأخيك كما تحب لنفسك "وحكماؤنا طيب الله ذكراهم قالوا :لا تفعل ما تكرهه لنفسك لأخيك، والعديد من الواجبات الدينية الأخرى تبنع من هذا ، لأن من يحب أخيه كما نفسه لن يسرق ماله، ولكن يخونه مع زوجته أو يغشه فى ماله أو يخدعه لفظياً أو يسرق أرضه، أو يؤذيه بأي طريقة.

والعديد من هذه الواجبات الدينية معروفة لدى أى إنسان عاقل، فى المدخل رقم ٣٢٢ الذى يتعامل مع واجب الإبقاء على البعد غير اليهودى مستعبداً للأبد فى حين أن العبد اليهودى يجب أن يحرر بعد سبع سنوات، فإن الشرح التالى يقدم :وعلى أساس هذا الواجب الدينى تكن حقيقة أن اليهود هم أفضل الكائنات البشرية، خلقوا ليعرفوا ويعبدوا خالقهم، ويستحقون أن يكون لهم عبيد لخدمتهم، وإذا لم يكن لهم عبيد من الشعوب الأخرى، فإن عليهم أن يستعبدوا إخوانهم، الذين لهذا لن يكونوا قادرين على عبادة الرب أو أن يباركهم، فإنه واجب علينا أن نمتلك العبيد بعد إعدادهم وإلغاء الوثنية من كلامهم حتى لا يكون هناك خطر منهم على بيوتنا[٦٨] ، وهذا ما تقصده الآية:

(١) طبقاً للهالاكاة العبد غير اليهودى الذى يشتريه يهودى يجب أن يتحول لليهودية ولكنه لا يصبح يهودى كاملاً.

"لن تستعبد إخوتك الذين يتهيأون جميعاً لعبادة الرب[(٦٩)]".

فى المدخل ٥٤٥ ، الذى يعامل مع الواجب الدينى فى فرض فائدة على المال المقترض من الأغيار ، فإن الشريعة تنص على التالى إننا قد أمرنا أن نأخذ فوائد من غير اليهود عندما نقرضهم مالاً ، وعلينا ألا نقرضهم مالاً دون فائدة" والشرح هو: على أساس هذا الواجب الدينى علينا عدم القيام بأى فعل ينم عن رحمة إلا لمن يعرف الرب ويعبده ، وعندما نحجم عن تقديم أعمال رحيمة ببقية البشر ونقوم بذلك فقط للعابدين ، فإننا نؤكد أن الجزء الأساسى من الحب والعطف عليهم هو بسبب اتباعهم لدين الرب تبارك ، ولاحظ أنه مع هذه النية فإن جزاءنا (من الرب) عندما نمنع الرحمة عن الآخرين تتساوى مع هذا الجزاء الذى نأخذه عن (أعمالنا الرحيمة) لأفراد شعبنا.

وهناك تمييزات شبيهة تقدم فى مقاطع أخرى متعددة ، ففى شرح تحريم تأخير أجر العامل ، فإنه فى المدخل ٢٣٦ ، يشير المؤلف بعناية إلى أن الخطيئة تكون أقل إذا كان العامل غير يهودى.

وفى المدخل ٢٣٩ حول "تحريم لعن اليهودى رجلاً أو امرأة "وفى نفس السياق التحريمات الأخرى المتعلقة بإعطاء نصيحة خادعة أو كراهية الآخرين أو تعييرهم ، أو الانتقام منهم فى المداخل (٢٤٦ و ٢٤٥ و ٢٤٠) تنطبق فقط على اليهود وحظر اتباع عادات الأغيار (٢٦٢) تعنى أن اليهودى ليس عليه فقط أن ينوء بنفسه عن غير اليهودى ، ولكن أيضاً أن يشجب جميع أشكال سلوكهم وحتى ملابسهم ، يجب التأكيد على أن هذه التفاسير التى استشهدنا بها من قبل ، تقدم بشكل صحيح تعاليم حاخامات الهالاكاه ، بل الأسوأ من ذلك أن علماء الدفاع عن اليهودية ، يعرفون هذا جيداً ولهذا فإنهم لا يحاولون النقاش ضد هذه الآراء داخل المجتمع اليهودى ، وبالطبع فإنهم لا يذكرونها أبداً خارجه ، وبدلاً من ذلك يحطون من شأن أى يهودى يظهر هذه الأمور على مرمى من سمع غير اليهود ، ويقدمون إنكارات مخادعة يصل فيها فن المراوغة إلى أقصى درجاته ، فعلى سبيل المثال يعلنون باستخدام مصطلحات عامة ، عن الأهمية التى توليها اليهودية للرحمة والشفقة ، ولكنهم ينسون الإشارة إلى أن هذا وفقاً

(١) سفر اللاويين ٢٥ - ٤٦.

للهالاكاه، يعنى فقط الرحمة تجاه اليهود، وأى إنسان يعيش فى إسرائيل يعرف مدى عمق وانتشار هذه المواقف العنيفة والعدائية الفجة تجاه جميع الأغيار، وسط غالبية اليهود فى إسرائيل، وبالطبع فإن هذه المواقف تتنكر غالباً فى العالم الخارجى، ولكن منذ إنشاء دولة إسرائيل منذ حرب ١٩٦٧ وصعود بيجن، أصبحت أقلية ضئيلة من اليهود سواء داخل إسرائيل أم خارجها، تدريجياً أكثر صراحة فى هذه الأمور.

وفى السنوات الأخيرة أصبحت المفاهيم غير الإنسانية وتعبيرات من نوع أن العبودية هى القدر "الطبيعى "للأغيار، هى الشائعة علانية، حتى فى التليفزيون على يد فلاحين يهود يستغلون العمالة العربية، خاصة عمالة الأطفال وقد استشهدت قيادات من "غوش إيمونيم "بمفاهيم دينية تعطى لليهود الحق فى اضطهاد الأغيار، وقد استخدم كتبرير لمحاولات الاغتيال للقيادات ورؤساء البلديات الفلسطينية وكسلطة تشريعية مقدسة تبرر مخططهم من طرد جميع العرب من فلسطين.

وفى حين أن العديد من الصهاينة يرفضون هذه المواقف سياسياً، فإن حججهم تقوم على اعتبارات الجدوى وصالح اليهود، بدلاً من المبادىء الإنسانية أو الشريعة الدولية أو الأخلاق، فعلى سبيل المثال قد جادلوا فى أن قمع واستغلال اليهود للفلسطينيين، قد يؤدى إلى فساد المجتمع الإسرائيلى أو أن طرد الفلسطينيين غير قابل للتطبيق فى ظل الظروف السياسية الحالية، أو أن الممارسات الإسرائيلية الإرهابية ضد الفلسطينيين سوف تفضى إلى عزلة إسرائيل دولياً ومن حيث المبدأ فإن جميع الصهاينة يشاركون فى مواقف عميقة معادية لغير اليهود تروج لها وبقوة الأرثوذكسية اليهودية.

المواقف تجاه المسيحية والإسلام

قدمنا من قبل عدة أمثلة على المواقف الحاخامية تجاه هاتين الديانتين، ولكن بشكل عابر، ومن المفيد أن نلخص هذه المواقف هنا:

إن اليهودية مصبوغة بكراهية عميقة تجاه المسيحية، مصاحب لها جهل شديد عنها، هذا الموقف قد تفاقم بوضوح بسبب الاضطهاد المسيحى لليهود ولكنه لا يعد نتيجة له، ويرجع تاريخ تلك الكراهية إلى عصر كانت فيه المسيحية مازالت ضعيفة ومضطهدة (ليس من جانب) اليهود وحدهم، ولكن

اعتنق هذه الكراهية يهود لم يتعرضوا أبداً لإضطهاد إسلامى من قبل نظام الموحدين وهرب إلى مملكة القدس الصليبية، ولكن هذا لم يغير من رؤيته فى النهاية تجاه المسيحية ويقوم هذا الموقف السلبى العميق على عنصرين أساسين:

أولاً: على كراهية وافتراءات خبيثة ضد المسيح، ويجب أن نميز بالطبع بين الرؤية التقليدية اليهودية ليسوع من جهة والخلافات الإشكالية التائهة بين معادى السامية والمدافعين عن اليهودية فيما يخص مسئولية قتل يسوع من جهة أخرى، إذ يعترف معظم العلماء المحدثين لتلك الفترة أن غياب الروايات الأصلية والمعاصرة للحدث والتدوين المتأخر للأناجيل، والتناقص بينها، لا تمكن أحداً من تكوين معرفة تاريخية دقيقة حول ملابسات صلب المسيح ويغض النظر عن هذا، فإن مفهوم الذنب الجماعى المتراكم والموروث مناف للعقل والحرية، ومع هذا فإن موضوعنا هنا ليس الحقائق الفعلية حول يسوع، ولكن الروايات غير الدقيقة والمليئة بالافتراءات فى التلمود والأدب التلمودى التى آمن بها اليهود فى القرن التاسع عشر، ومازال يؤمن بها الكثيرون حتى اليوم فى إسرائيل حيث إنها لعبت دوراً مهماً فى تشكيل موقف اليهود من المسيحية، فطبقاً للتلمود فإن المسيح قد صلب من قبل محكمة حاخامية يهودية حكمت على يسوع بالصلب بسبب الوثنية وتحريض اليهود الآخرين عليها، وازدرائه للسلطة الحاخامية، وجميع المصادر الكلاسيكية اليهودية التى تذكر صلبه تلقى بسرور بالغ مسئولية إعدامه على اليهود وحسب الروايات التلمودية فإنه لا يتم حتى ذكر الرومان.

أما الروايات الأكثر شعبية ـ التى تؤخذ مع ذلك بجدية شديدة ـ مثل كتاب «تولدوت بيشو» الشهير فهى أكثر سوءاً، حيث أضافت إلى جانب الاتهامات السابقة ليسوع، السحر أيضاً كان اسم «يسوع» فقط بالنسبة لليهود يمثل رمزاً لكل ما هو بغيض، وهذا العرف الشعبى مازال سائداً حتى الآن، كما أن الأناجيل مكروهة بنفس القدر[٧٠] ولا يسمح بالاستشهاد بها (ناهيك عن تدريسها) حتى فى المدارس اليهودية الإسرائيلية الحديثة.

(١) كلمة «يسوع» Yesha العبرية فسرت على أنها بداية للعنة، فليقتع اسمه وتزول ذكراه، وهذه البداية تستخدم كشكل من أشكال الشتائم المتطرفة، وفى الواقع فإن اليهود الأرثوذكس الذين يحادون الصهيونية (مثل ناتورى كارتا) يشيرون أحياناً إلى هرتسل بتعبير هرتسل ـ يسوع، وقد عثرت فى كتابات دينية صهيونية على تعبيرات مثل ناصر ـ يسوع وأخيراً عرفات ـ يسوع.

ثانياً: تستند الكراهية أيضاً إلى أسباب لاهوتية، يصدر معظمها عن جهل، فالمسيحية تصنف حسب التعاليم الحاخامية كوثنية، وهذا يعتمد على تفسير فظ للتعاليم المسيحية حول التثليث والحلول، وينظر إلى جميع الرموز الدينية المسيحية باعتبارها «أوثاناً» حتى من جانب أولئك اليهود الذين يعبدون حرفياً لفائف التوراة والحجارة أو الأشياء الشخصية «للمقدسين».

فى المقابل فإن موقف اليهود تجاه الإسلام، معتدل بالقياس إلى المسيحية، علي الرغم من أن اللقب المألوف الذى يطلق على محمد هو مجنون Weshugga وإن كان لا يبدو عدائياً كما قد يظهر الآن، وعلى أى حال فإنه لا يقارن بالشتائم التى تقال عن المسيح.

كذلك لا يحكم على القرآن، مثل العهد الجديد بالحرق، ولكنه غير مكرم بنفس الطريقة التي تحترم فيها الشريعة الإسلامية اللفائف اليهودية المقدسة، ولكنه يعامل مثل أى كتاب عادى، وتتفق معظم المراجع الحاخامية على أن الإسلام ليس وثنياً (على الرغم من أن بعض زعامات غوش إيمونيم تفضل الآن أن تتجاهل هذه الحقيقة)، وبناء على هذا فإن الهالاكاه تنص على أن المسلمين لا يجب أن يعاملوا بها الأغيار «العاديين» ولكن أيضاً ليس أفضل منهم، ومرة أخرى يمكننا استخدام ابن ميمون كمثال حى يوضح أن الإسلام ليس وثنياً، ففى أعماله الفلسفية يشير باحترام كبير، إلى الكثير من المراجع الإسلامية الفلسفية، وقد كان كما أشرنا من قبل، الطبيب الشخصى لصلاح الدين وعائلته، وقد أمر صلاح الدين بأن ينصب كرئيس على جميع يهود مصر، إلا أن تعاليمه التى وضعها ضد إنقاذ حياة غير اليهودى (باستثناء تفادى الخطر على اليهود) تنطبق أيضاً على المسلمين.

الفصل السادس
النتائج السياسية

لقد أثرت المواقف المتواصلة لليهودية الكلاسيكية تجاه غير اليهود، بقوة على أتباعها من اليهود الأرثوذكس، وهؤلاء الذين يعدون استمراراً لهم: الصهاينة، فمن خلال الصهيونية تم التأثير أيضاً على السياسات الخاصة بدولة إسرائيل، فمنذ ١٩٦٧، وبعد أن أصبحت إسرائيل أكثر فأكثر دولة يهودية، فإن سياساتها أصبحت يؤثر عليها الاعتبارات الأيديولوجية اليهودية، أكثر من تلك الاعتبارات الإمبريالية المعروفة، هذا التأثير الأيديولوجى لا يستطيع - عادة - المحللون الغربيون إدراكه خاصة أنهم ينزعون إلى تجاه أوالتقليل من شأن تأثير الدين اليهودى على السياسات الإسرائيلية وهذا يفسر لماذا كانت معظم تنبؤاتهم غير صحيحة.

وفى الواقع، فإن كثيراً من الأزمات الحكومية الإسرائيلية، قد نتجت لأسباب دينية تافهة عادة أكثر من أى مسببات أخرى، إن المساحة التى خصصت فى الصحافة العبرية لمناقشة النزاعات المستمرة بين الجماعات الدينية المختلفة وتلك الجماعات العلمانية، كانت أكبر بكثير من تلك التى منحت لأى قضية أخرى، باستثناء أوقات الحرب أو التوترات فى أوائل أغسطس ١٩٩٣، فإن بعض المواضيع التى استحوذت على اهتمام قارىء الصحافة العبرية كانت هل سيدفن الجنود الذين قتلوا فى معركة، وهم أبناء لأمهات غير يهوديات فى المنطقة المعزولة عرقياً من المقابر العسكرية الإسرائيلية؟ وما إذا كانت وكالات الدفن اليهودية الدينية، والتى لديها الحق في دفن جميع اليهود باستثناء أفراد الكيبوتس، سوف يسمح لها بالاستمرار فى القيام بطقسها المعتاد من تطهير جثث اليهود غير المطهرين قبل دفنهم ودون أخذ موافقة أسرهم؟ وما إذا كان استيراد اللحوم غير الكوشير الذى منع بشكل غير رسمى منذ إنشاء دولة إسرائيل، سوف يسمح به مرة أخرى أم سيمنعه القانون؟ وهناك الكثير من القضايا المشابهة التى تشغل بال الجمهور الإسرائيلى اليهودى أكثر من المفاوضات مع الفلسطينيين وسوريا.

إن المحاولات التى قام بها قلة من السياسيين الإسرائيليين لتجاهل عوامل «الأيديولوجية اليهودية» والاهتمام بالعناصر الإمبريالية الخالصة، قادت إلى نتائج مروعة.

فبعد هزيمة إسرائيل فى حرب يوم الغفران، ومع بداية عام ١٩٧٤، كان الاهتمام الرئيسى لإسرائيل، هو تحجيم التأثير المتجدد لمنظمة التحرير الفلسطينية، التى لم تكن قد نالت بعد الاعتراف بها من قبل الدول العربية، ككيان ممثل للشعب الفلسطينى، لقد عمدت الحكومة الإسرائيلية إلي وضع خطة من أجل دعم التأثير الأردنى على الضفة الغربى، التى كانت شديدة الأهمية لها فى هذا الوقت، وعندما طلب من الملك حسين دعمه لهذه الخطة، طالب من جهة بمقابل واضح وقد رتبت الحكومة الإسرائيلية أن يقوم نصيره الشيخ جبرى الذى كان يحكم الجزء الشمالى من الضفة الغربية، بقبضة حديدية ودعم من وزير الدفاع الإسرائيلى فى ذلك الوقت، موشى ديان، بإقامة حفل كبير في فناء محل إقامته فى الخليل، ويكون على شرف الملك حسين احتفالاً بعيد ميلاده، مع رفع الأعلام الأردنية، ويدئه لحملة مؤيدة فى الأردن، ولكن المستوطنين المتدينين فى الجوار، (بوادى عربة) الذين كانوا مجرد حفنة من الإسرائيليين فى هذا الوقت، هددوا رئيس الوزراء جولدا مائير ووزير الدفاع موشى ديان، بمجرد سماعم عن الخطة، وأقاموا مظاهرات قوية، أعلنوا فيها أن رفع علم دولة غير يهودية؛ على أرض إسرائيل فيه إنتهاك للتعاليم المقدسة التى تنص على أن هذه الأرض «ملك» لليهود وحدهم، وحيث إن هذا المبدأ متفق عليه من جميع الصهاينة، فإنه كان على الحكومة الإسرائيلية أن ترضخ لمطالبهم، وأن تأمر الشيخ جبرى بعدم رفع أى أعلام أردنية، وعليه فإن الشيخ جبرى، والذى شعر بإهانة بالغة ألغى الحفل، وفى اجتماع لاحق للجامعة العربية، بعد هذا الحادث مباشرة، صوت الملك حسين من أجل الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل وحيد عن الشعب الفلسطينى، إن المفاوضات الحالية حول «الحكم الذاتى» للفلسطينيين هى بالنسبة للغالبية العظمى من شعب إسرائيل، محكومة أيضاً بمثل هذه الاعتبارات الأيديولوجية اليهودية أكثر من أى اعتبارات أخرى.

ونتيجة لتأثير هذه الاعتبارات على السياسات الإسرائيلية، المرتكزة على تحليل يهودى كلاسيكى فإن أى تحليلات للمؤثرات التى تتحكم فى صناعة

القرار الإسرائيلى، لا تؤكد على أهمية كون إسرائيل بصفة استثنائية «دولة يهودية» هي تحليلات خاطئة وأيضاً عقد مقارنة بسيطة بين دولة إسرائيل والدول الأخرى التى مارست الإمبريالية الغربية أو سياسات الاستيطان، مقارنة غير عادلة، فمن خلال استخدام سياسة التمييز العنصرى تم تقسيم جنوب إفريقيا رسمياً إلى ٨٧٪ تخص البيض و ١٣٪ قيل رسمياً إنها تخص السود، وفى المقابل فإن الدول ذات السيادة الكاملة، قد أجازت جميع رموز الاستقلال ونشأ ما يدعى بالبانتو(*) ولكن «الأيديولوجية اليهودية» تطالب بعدم الاعتراف بأى جزء من أرض إسرائيل، على أنه يمكن أن يخص غير اليهود، أو أن يكون هناك أى مظاهر رسمية للاستقلال مثل الأعلام الأردنية إن المبدأ الأساسى «لاسترداد» الأرض ينص على أن يكون شاملاً لكل الأرض وليس فقط لـ ٨٧٪ على سبيل الفرض ملكاً لليهود، إن «الأيديولوجية اليهودية» تحرم هذا المبدأ الأساسى الملائم تماماً للأنظمة الإمبريالية، والذى ابتدعه الرومان وتبعه الكثير من الإمبراطوريات العلمانية، والذى صاغه من قبل اللورد كرومر، إننا لا نحكم مصر، ولكننا نحكم حكام مصر، أن الأيديولوجية اليهودية، تحرم تماماً مثل هذا الاعتراف كما تحرم أيضاً إظهار أى موقف يتسم بالاحترام للحكام من غير اليهود على أرض إسرائيل.

إن الجهاز بكامله من الملوك التابعين، والسلاطين والمهراجات والرؤساء أو لنقل فى العصور الحالية من الديكتاتوريين المستقلين، شديدى الملاءمة فى أحوال أخرى، لفرض السيطرة الإمبريالية، لكن إسرائيل لا يمكن أن تستخدمه داخل المنطقة التى تعد جزءاً من أرض إسرائيل لهذا السبب فإن المخاوف التى تسيطر على الفلسطينيين عادة من أن يعرض عليهم «بانتو» شبيه بالبانتو الإفريقى لا داعى لها.

إن فقدان عدة أرواح يهودية فى حروب، كما حدث فى كل من حرب ١٩٢٣، وحرب ١٩٨٣ ـ ١٩٨٥ بعد ذلك فى لبنان، هى أقصى الأسباب الداعية إلى تقهقر إسرائيلى التى يمكن تصورها، حيث يبرر عادة هذا التقهقر بأنه كان نتيجة

(*) البانتو: مجموعة كبيرة من الشعوب الزنجية فى إفريقية الوسطى والجنوبية حصلت على استقلالها مع حكم ذاتى فى ظل أنظمة إمبريالية (المترجمة).

لاحترام مبدأ قدسية الحياة اليهودية، الذى هو أهم من أى اعتبارات أخرى.

ولكن ما هو غير وارد على الإطلاق مادامت إسرائيل دولة يهودية، أن توافق على وجود سيادة مزيفة، ولكنها ظاهرياً سيادة حقيقية، أو حتى حكم ذاتى حقيقى لغير اليهود على أرض إسرائيل لأسباب دينية خالصة، إن إسرائيل مثل دول أخرى دولة اقتصادية ولكن الاقتصادية الإسرائيلية متفردة فى حد ذاتها.

وبالإضافة إلى تأثيرات «الأيديولوجية اليهودية» على السياسات الإسرائيلية، فإنها تؤثر أيضاً على الجزء المهم، من غالبية يهود الداسبورة.

وحيث إن التطبيقات الفعلية للأيديولوجية اليهودية ترتكز على أن تكون إسرائيل قوية فإن هذا فى المقابل يعتمد إلي حد كبْير على الدعم الذى يمنحه يهود الداسبورة وخاصة يهود الولايات المتحدة لإسرائيل، إن يهود الداسبورة وموقفهم تجاه غيراليهود، يختلف تماماً عن مواقف اليهودية الكلاسيكية التى وصفناها من قبل، وهذا التعارض يتضح جداً فى الدول الناطقة بالإنجليزية، حيث يحدث باستمرار تزييف كبير لليهودية.

والوضع أكثر سوءاً فى الولايات المتحدة وكندا، الدولتين اللتين تدعمان بقوة السياسات الإسرائيلية، بما فى ذلك السياسات التى تتعارض بصورة فاضحة مع الحقوق الإنسانية الأساسية لغير اليهود.

وعندما ننظر بشكل واقعى وليس نظرياً، إلى الدعم الأمريكى لإسرائيل، فإننا لن نفسره فقط على أنه نتيجة للمصالح الأمريكية الإمبريالية فى المنطقة.

إن التأثير المتزايد والقوى للمجتمع اليهودى (المنظم فى الولايات المتحدة، علي دعم السياسات الإسرائيلية يجب أيضاً أن يأخذ فى الحسبان، من أجل تغيير سياسات الشرق الأوسط التى تتخذها الإدارات الأمريكية، ونجد هذه الظاهرة بشكل أكثر وضوحاً فى كندا، التى لا يمكن النظر إلى مصاحلها فى الشرق الأوسط باعتبارها بنفس الأهمية، ولكن لديها تبعية مخلصة لإسرائيل أكبر من تلك التى لدى الولايات المتحدة، وفى كلا البلدين وأيضاً فى فرنسا وإيطاليا ودول أخرى عديدة فإن المنظمات اليهودية تدعم إسرائيل، بنفس قدر الولاء الذى قدمته الأحزاب الشيوعية للاتحاد السوفيتى لفترة طويلة.

أيضاً يظهر الكثير من اليهود الذين يبدون نشطين فى الدفاع عن حقوق الإنسان، درجة ملحوظة من الفكر الديكتاتورى فيما يخص إسرائيل ويتحولون

إلى مدافعين عن السياسات الإسرائيلية.

ومن المعروف تماماً داخل إسرائيل، أن الشوفينية والتعصب الذى يظهره يهود المهجر المنظمين فى دعم إسرائيل، أكثر عمقاً (خاصة منذ ١٩٦٧) من تلك الشوفينية التى يظهرها يهود إسرائيل العاديون ويلاحظ هذا التعصب بصفة خاصة فى كندا والولايات المتحدة، ولكن بسبب الأهمية السياسية الكبرى التى لا تضاهى للولايات المتحدة، فسوف أركز عليها، ولكن يجب أيضاً أن نوضح أننا نجد آراء يهودية تخص السياسات الإسرائيلية، مختلفة عن هذه التى يحملها بقية المجتمع (نظراً لأسباب متعلقة بالعوامل الجغرافية والدخل والموضوع الاجتماعى وهكذا).

لماذا يظهر بعض اليهود الأمريكيين أحياناً، شوفينية مبالغاً بها، فى حين لا يقوم آخرون بذلك، يجب أن نبدأ بملاحظة المكانة الاجتماعية وأيضاً سياسات المنظمات اليهودية التى لها طبيعة قصرية: إنهم لا يعترفون بغير اليهود كمبدأ أساسى، إن هؤلاء الذين يمكن أن نطلق عليهم اليهود «المنظمين» يقضون معظم أوقاتهم خارج ساعات العمل فى صحبة يهود آخرين، ويمكن القول بأنهم يؤيدون القصرية اليهودية ويحافظون على مواقف اليهودية الكلاسيكية تجاه غير اليهود، وهم فى ظل الأوضاع الحالية، غير قادرين على التعبير بوضوح عن مواقفهم تجاه غير اليهود فى الولايات المتحدة، حيث إن غير اليهود يشكلون ٩٧٪ من تعداد السكان، ولذا فإنهم يستعيضون عن هذا بالتعبير عن مواقفهم الحقيقية فى دعم «الدولة اليهودية» مع تحديد أن غير اليهود والمعنيين، هم فقط الموجودون فى الشرق الأوسط.

كيف يمكنك أن تفسر إظهارهم الحماسة من خلال الكثير من الحاخامات الأمريكيين، فى دعم مارتن لوثر كنج على سبيل المثال، فى الوقت الذى يظهرون فيه ضعف دعمهم لحقوق الفلسطينيين، بل حتى لحقوقهم الإنسانية الفردية.

وبأى شكل يمكنك أن تفسر ذلك التناقض الفاضح بين مواقف اليهودية الكلاسيكية تجاه غير اليهود والتى تتضمن قاعدة أن حياتهم لا يجب أن تنقذ إلا من أجل صالح اليهود، وبين الموقف المؤيد من حاخامات الولايات المتحدة واليهود التابعين لمنظمات، فى قضية حقوق السود؟ على الرغم من أن مارتن

لوثركنج وغالبية السود الأمريكيين ليسوا يهوداً، وحتي إذا كان فقط اليهود المحافظون والأرثوذكس التابعون لمنظمات والذين يشكلون غالبية اليهود الأمريكيين، هم الذين يحملون هذه الآراء حول غير اليهود، فإن الجزء الآخر من اليهود الأمريكيين المنظمين، المصلحين لم يقم أبداً بمعارضتهم بل فى رأيى أظهروا شدة تأثرهم بهم.

فى الواقع يسهل تفسير هذا التضارب الواضح، فيجب أن نتذكر أن اليهودية خاصة فى شكلها الكلاسيكى استبدادية بطبيعتها وسلوك المؤيدين للأيديولوجيات الاستبدادية الأخرى فى عصرنا ليست مختلفة عن تلك التى يمارسها اليهود الأمريكيون المنتسبون لمنظمات. إن ستالين ومؤيديه لم يتوقفوا أبداً عن إدانة التمييز ضد السود الأمريكيون أو سود جنوب إفريقيا، خاصة خلال أبشع الجرائم التى ارتكبت فى ظل هيمنة الاتحاد السوفيتى كما أن نظام سياسة التمييز العنصرى فى جنوب إفريقيا، لم يعرف الكلل أو الملل فى شجبه للتعديات على حقوق الإنسان التى مارسها النظام الشيوعى أو الأنظمة الإفريقية الأخرى، وكذلك فعل أيضاً مؤيدوهم فى الدول الأخرى، ويمكن الاستشهاد بالعديد من الأمثلة الشبيهة ولهذا فإن تأييد الديمقراطية أو حقوق الإنسان، يصبح بلا معنى، بل ضاراً ومضللاً إذا لم يصاحبه.نقد للذات ودعم لحقوق الإنسان عندما تنتهك على يد جماعة الفرد نفسه، إن دعم اليهود لحقوق الإنسان بشكل عام، دون دعمهم لحقوق الإنسان غير اليهودى، الذى تنتهك حقوقه على يد «الدولة اليهودية» هو خداع شبيه بالذى قام به الستالينيون، والحماس الذى أظهره الحاخامات الأمريكيون أو المنظمات اليهودية فى الولايات المتحدة خلال الخمسينيات والستينيات فى دعمهم للسود فى الجنوب، قد روج فقط لاعتبارات تخص المصلحة العامة اليهودية، تماماً كما كان دعم النظام الشيوعى لنفس هؤلاء السود إن الهدف فى الحالتين هو محاولة اجتذاب المجتمع الزنجى سياسياً، وفى حالة اليهود كانت محاولة غير منطقية للحصول على دعمهم للسياسات الإسرائيلية فى الشرق الأوسط.

لهذا فإن التحدى الحقيقى أمام إسرائيل ويهود الداسبورة، هو اختيار نقد الذات، الذى يجب أن يتضمن نقداً للماضى اليهودى، والجزء الأكثر أهمية فى هذا النقد يجب أن يكون مواجهة أمنية ودقيقة للموقف اليهودى تجاه غير

اليهود ، وهذا ما يطالب به تحديداً العديد من اليهود غير اليهود ، مواجهة ماضيهم الخاص، والوصول إلى اعتراف بحقيقة التمييز والتعصب الذى وجه لليهود ، لقد فاق كثيراً فى الأربعين عاماً الأخيرة، عدد غير اليهود الذين قتلهم اليهود ، عدد اليهود الذين قتلهم غير اليهود ، إن اتساع سياسة التمييز والاضطهاد ضد غير اليهود ، التى مارستها «الدولة اليهودية» مع دعم من يهود الداسبورة المنظمين، يفوق أيضاً حجم المعاناة التى تعرض لها اليهود فى ظل أنظمة معادية لهم.

وعلى الرغم من أن الكفاح ضد معاداة السامية (وجميع أشكال العنصرية الأخرى) لا يجب أبداً أن يتوقف فإن النضال أيضاً ضد الشوفينية والاقتصادية اليهودية، الذى يتضمن نقداً لليهودية الكلاسيكية يحمل الآن نفس القدر أو قدراً أكبر من الأهمية.

مؤسسة سعيد المسحال للثقافة والعلوم

تأسست فى عام ١٩٩٦ في مدينة غزة، وهي مؤسسة غير ربحية، بادر في تأسيسها المهندس سعيد المسحال، لتكون مؤسسة فاعلة في المجتمع الفلسطيني، وتقدم خدماتها لجميع شرائح المجتمع ولتساهم في تنمية الحركة الثقافية ، وذلك من خلال مجموعة من الفعاليات والبرامج وبالتعاون مع الهيئات والمؤسسات العاملة في مجال الثقافة والعلوم والتي تصب أهدافها لخدمة وتحقيق أهداف المؤسسة.

الغايات والأهداف

* الحفاظ على الهوية الفلسطينية والاهتمام بالتراث الفلسطيني.
* العمل على دعم وتطوير مستوى الأداء الفني والعلمي والثقافي
* تفعيل دور المرأة في المجتمع.
* الاهتمام بالطفل وتمكينه من تحمل المسئولية.
* إشراك المجتمع المحلي في برامج وفغاليات المؤسسة.
* تفعيل دور المؤسسات المحلية عن طرق إشراكها في برامج المؤسسة.
* إقامة علاقات تبادلية مع مؤسسات عربية في شئون العلوم والثقافة.
* إقامة البرامج والفعاليات الهادفة لتحقيق مجموعة أهداف المؤسسة.

عرفت دوما أن شاحاك مؤرخ مذهل، ومفكر استثنائي وعالم متعدد الثقافات، وناشط سياسى، لقد أدركت أن هوايته الأساسية كانت دراسة اليهودية، من جوانبها التوراتية والتلمودية، وللدارس فى هذا الموضوع، فإن هذا الكتاب هو مساهمة قوية، إنه لا يقل عن الكتب العميقة التى تناولت اليهودية الكلاسيكية، فقد تناول اليهودية الحديثة، واستخدمها فى فهم إسرائيل الآن. ويظهر شاحاك أن ادعاءات تعاليم الشوفينية المنعزلة وضيقة الأفق فى تفكيرها ضد الآخرين المتعددين من غير المرغوب فيهم، توجد فى اليهودية «إضافة طبعا إلى ديانات توحيدية أخرى»، لكنه أيضا يذهب إلى أبعد من ذلك فى إظهار التواصل بين هذه الطريقة التى تعامل بها إسرائيل الفلسطينيين والمسيحيين والآخرين من غير اليهود، حيث تنبثق صورة مروعة من الإجحاف والرياء وعدم التسامح الدينى، والأهم أن وصف شاحاك يظهر أيضا الأكذوبة، ليس فقط فيما يخص خيالات ديمقراطية إسرائيل التى يروج لها فى الإعلام الغربى، لكنه أيضا يتهم ضمنيا القيادات العربية والمثقفين العرب برؤية جاهلة إلى حد فاضح لهذه الدولة، خاصة عندما يتحدثون لشعوبهم عن أن إسرائيل قد تغيرت حقا وأنها الآن تريد السلام مع الفلسطينيين والعرب.

إدوارد سع







